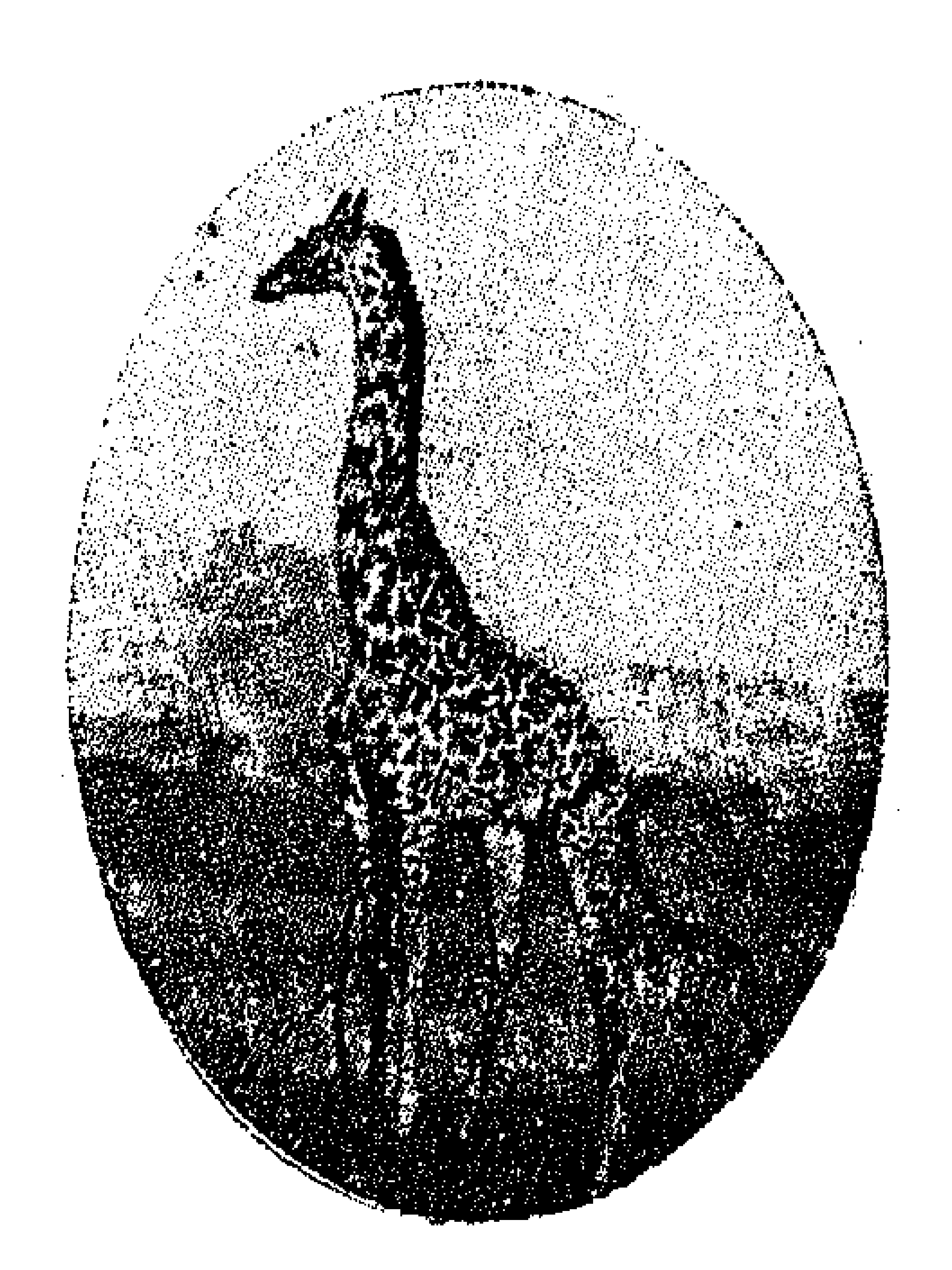
جولة في ربوع أفريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح



من مشاهدات سائح مصرى

محمد ثابت

مدرس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر

بالخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

اهداءات ٢٠٠٢

السيدة/ نهى حقى

القاهرة

جولة في ربوع أفريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح



من مشاهدات سائح مصرى

محمد ثابت

مدرس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر

بالخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥٢٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اليوم أقص على بنى وطنى نبأ جولتى فى ربوع أفريقية بعد أن تقدمتها (جولة فى ربوع آسيا) ، (جولة فى ربوع أوروبا) . تلك الجولة التى أيدت لدى ما نعرفه عن (القارة الغامضة) فى شعوبها وحيوانها وأحراشها ومفاوزها وكم كان لبحثى فى تلك الأنحاء لذة دونها مالقيت فى أوروبا وآسيا أعوامى السالفة ، ففى أوروبا لمسنا مدنية الغرب التى تقوم على المادة بكامل حسناتها من رقى وعمران وما يستتبعه ذلك من رفه وانحلال .

وفى آسيا واجهتنا مدنية الشرق العريقة تلك التى تقوم على أسس معنوية ودعامات روحية لم تفسدها المادة وإن أفسدت منها الرجعية والتمسك بأهداب القديم .

أما أفريقية فقد بدت برية لم يفسدها الدخيل حيث وضحت الفطرة تتجلى فى أنسانها الهمجى وحيوانها البرى ، مما أذكرنى بعصور ماقبل التاريخ يوم كان الانسان ساذجاً يأتى ما توحى به الفطرة وتدفعه اليه الغريزة ، هنا يستطيع المنقب أن يتعقب خطى التطور الآدمى فى كل شىء ، فى بنية الانسان ولغته وعقائده وعاداته ولطالما خال قراء الاسفار أن مجاهل أفريقية

وهمج أهلها قد خضعت جميعاً لوفود المستعمرين ، ولكن تلك فكرة جد خاطئة ، فالسواد الأعظم من أهل تلك الأصقاع لايزال حراً لا يعترف بسلطان ولا يفقه للحكم الأجنبي معنى ، وهيهات أن تنال منه مدنيتنا أو تخلف فيه أثراً .

ولشد ما كان أسفي إذ لم أوت من فسحة الوقت ما يشفي للبحث غلة أو يروي للنفس ظمأ ، على أني أرى فيما قصصت هنا قبساً قد ينير السبيل والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه خير الوطن المفدى وأبنائه الأبرار .

نبذة تاريخية

طالما أشاد الناس بذكر (بارثلوميو دياز) يوم أن طاف برأس العواصف كما هلل الكثيرون لمرور السفن من قناة السويس بعد فتحها ، لكن فاتهم أن ذلك لم يكن بالشيء الجديد المستحدث ، فلقد حاول فرعون مصر (نكو) قبل ميلاد المسيح بنحو ستمائة سنة فتح قناة النيل والبحر الاحمر ، والقناة التي تصل بحر أرتريا فتحها سيتي قبل ذلك بسبعمائة عام ، وكانت تقطعها السفن في أربعة أيام وكان اتساعها يكفي لمرور سفينتين متجاورتين بمجاذيفهما وقد مات في حفرها في عهد (نكو) اثنى عشر ألفاً ، وقد خلف (نكو) عمله هذا غير تام حتى أتمه دارا الفارسي ولحاجته لأرسال أسطوله الحربي تحت قيادة بعض الاغريق ليصل البحرين ، بعث نفراً من الفينيقيين بسفنه وأمرهم ألا يرجعوا إلا عن طريق أعمدة هرقل Pillars of Hercules وهو جبل طارق عائدين لمصر أعني بعد الطواف حول أفريقية كلها ، وفي السنة الثالثة من بدء رحلتهم أتموا ذلك وقصوا على الفرعون عجباً ، أنهم وهم يطوفون بليبيا رأوا الشمس ظهراً ناحية يدهم اليمنى ، أي انها تميل عنهم شمالا بعد أن كانت وهم في نصف الكرة الشمالي لا تميل إلا إلى الجنوب بالنسبة لهم ، ويرجح الكثيرون أن المصريين جميعاً هاجروا من أواسط أفريقية

فى عصور قبل التاريخ وحلوا مصر ويؤيدون ذلك بقرب الشبه بين سحن المصريين الأصفياء وبين بعض قبائل كنيا اليوم نخص منهم — المساى والتوركانا — وقد يكون لآثار زمبابوى فى رودسيا علاقة بالمصريين ولاشك أن لنهر النيل العظيم أثراً كبيراً فى توزيع الانسان قديماً لأن سير الانسان كان قيد الأنهار الكبيرة ، ولقد سجل الاغريق علاقتهم بشرق أفريقية الى زنجبار منذ القرن الثانى قبل الميلاد ولعلهم أتباع الفينيقيين والعرب من قبلهم ، ولما أعقبهم الروم وأغرموا بالذهب والأحجار الكريمة لا يبعد أن يكونوا قد فتحوا طرقاً تجارية الى هناك ، ولدينا وثيقة كتبها اغريقى هو (Periplus) قبل الميلاد يصف بعض المين التجارية من ممباسا شمالا ويقص عن زوارق القوم من الشجر المنقور أو الألواح الموثوقة بالحبال وشباك الصيد وتجارة العاج الهائلة وقشور السلاحف وقواد السفن من العرب والقرصان ، وبعض السلع كالقدح والنبيذ والزجاج والأسلحة المعدنية ، وبعد ذلك بقرن كان بطليموس يحاضر ويكتب عن جغرافية أفريقية ومنابع النيل مستنداً الى المعلومات التى استقاها من رحالة الاغريق ومن مؤرخى الهنود الذين اعتلوا هضاب كنيا وافدين من السواحل الشرقية .

على أن هناك أسراراً يحار فيها العلماء من بينها كشف أراضى الذهب بين اللمپوپو والزمبيزى فى رودسيا الجنوبية وكذلك بعض الأعمال الهندسية للرى حول الزمبيزى وفوق الجميع آثار زمبابوى (وزمبابوى معناها مصانع الذهب أو مطاحنه) ولا ندرى متى بدأ الانسان استغلال تلك المناجم

وصياغة الذهب ، و يظن البعض أن زمبابوى من عمل البانتو فى القرون الوسطى و يرى البعض أنها من عمل الهنود الدرافيديين والراجح أنها من عمل عرب سبأ عهد سليمان ، وعلى ذلك فرودسيا تعد موطن مناجم الملك سليمان وكان ثغر سوفالا الذى أرسل منه الذهب والعاج والفضة والقردة والطاووس الى أوفير (Ophir) من بلاد اليمن أوسبأ حيث نشأت الملكة (شيبا Sheba) وسلكت طريق القوافل الموصلة الى بيت المقدس وهى التى جعث اليها سليمان وهرون يجلبان منها الذهب والأحجار الكريمة والعقاقير والبخور والعصى الحلوة (قصب السكر)

ويغلب على الظن أن عرب سبأ لم يستعمروا رودسيا بل استغلوا مناجمها و بنوا معبد زمبابوى وغيره واستخدموا فى العمل الهنود والشعوب السوداء يؤيد ذلك الأثر القديم الذى يرى شاخصاً للهنود والعرب فى أهل سواحل أفريقية الشرقية ، ولا يعلم مبدأه باليقين فالمسعودى يخبرنا عن ممتلكات العرب وتوابعهم من الهنود فى القرن العاشر ، وفى لغة أهل السواحل والجزائر و بعض عاداتهم ما يؤيد صلتهم بالعرب منذ القدم وفى الأقاصيص أن سام (Shem) أب آسيا الصفراء ماهو الا سبأ وحام أب أفريقية السوداء هو كوش (Cush) ذاك الاسم الذى نطلقه على بلاد النوبة وهؤلاء ماهم إلا سبأ أيضاً

انقطع حبل التاريخ فترة طويلة الى ٦٠٠ بعد الميلاد وفى ٧٤٠ حمل العرب دعوة الاسلام إلى هنالك وقد أجمع المؤرخون على أن العصر الذهبى

لشرق أفريقية هو العصر العربي حين ازدهرت التجارة وقامت المين وفتحت الطرق فى داخل القارة ، وكان سكان افريقية هم الخدم والاتباع لأن العرب أقاموا نفوذهم على الرقيق وتسخيره فى الزراعة على طول السواحل الخصبة ، تلك التى أضحت أهراء بلاد العرب ، وقد ربت المحصولات لدرجة بررت اعتبار افريقية بالنسبة لآسيا فى القرن الثامن كموقف أمريكا من أوروبا اليوم ، وغالب مدنهم الساحلية بين كلوا ومجديشو لا تزال قائمة الى اليوم ، وبعد انتشار الاسلام قام زيد حفيد على كرم الله وجهه على رأس طائفة من الملحدين وحلوا سواحل شرق أفريقية إلى خط الاستواء وامتزجوا بالأهلين وبعدهم بقليل وفد كثير من المسلمين وطاردوا أشياع زيد وتقدموا الى سوفالا حيث وجدوا الذهب فاستقروا هناك ، وقص المسعودى الذى زار أفريقية فى كتابه (مروج الذهب) عن العرب والفرس الذين سلكوا طريق الرياح الموسمية من مدغشقر وشرق افريقية الى ساحل ملابار وسيلان ، والسفن التى كانت تسير بين البحر الأحمر والخليج الفارسى وسوفالا وعن اقزام البشمن الذين أسماهم (واق الواق) وعن زنوج البانتو الذين كانوا يجتاحون البلاد جنوبا ويتبادلون الذهب والعاج وجلود الفهود وقشور السلاحف مع العرب لنقلها لأسواق الهند والصين .

وفى القرن الحادى عشر قام طائفة من الشيعة الفرس وحلوا ثغر كلوة وكانوا خصوم مسلمى العرب هناك وغالبوهم وأشرفوا على سوفالا وملندة وممباسا وپمبا وزنجبار ومافيا وموزمبيق وكان لهم محاط عند الزيبزى وفى

مدغشقر والجزائر المجاورة وقد جاء ابن بطوطه يقص علينا نبأ نفوذ العرب التجارى فقال بأنهم كانوا يقيمون المدن على الجزائر التى يسهل حمايتها ، واستبدلوا ببيوت الطين والخشب القديمة بيوتاً من الحجر بسقوف مسطحة وأفاريز تطل على أزقة ضيقة متلوية ، وقد قامت سراي السلطان تواجه البحر، وكانت مآذن المساجد تبدو مشرفة وسط المساكن وحول تلك البيوت البيضاء نسقت الحدائق و بواسق النخيل ، وكانت طبقة الارستقراطيين والأغنياء من العرب تسير بأرديتها الفضفاضة فى شيء من الوقار والأبهة وسط الطرق وقد ميز المسلمون عن كافة الألوان بلبس العمامة وحمل السيف حتى ولو لم يكن بعضهم يرتدى من الملابس شيئاً ، وكان السيف هاماً لديهم لكثرة الخصوم وتعدد المنازعات بين مسلمى العرب والفرس و بين أرفاض (زيد) و بين السنيين العرب والشيعة من الفرس و بين الكفرة من السود لا بل و بين كل أولئك . على أنه رغم كل ذلك فقد امتزج العرب بالبانتو وكان المولدون من أولئك واسطة جلب المتاجر من الداخل ولم يتوطن العرب فى الداخل بعيداً عن السواحل بل كانوا يستفيدون من الضرائب على طريقة قرطاجنة وكانوا ينقلون متاجرهم فى سفنهم المساة (dhows) التى لقبت بطيور السماء العظيمة تلك التى غالبت الرياح الموسمية إلى قاليقوت وكان يديرها المولدون ، وكان الوسطاء فى قاليقوت من الأروام وأهل الشرق الأقصى الذين وفدوا بالبهار من جزائر الملوك وبالأخشاب العطرة والحرير من الصين واليابان .

ثم أقبل عهد (ماركو پولو) فى القرن الثالث عشر فوصف الاقليم قائلا أن أهل زنجبار عبدة أصنام جسومهم ضخمة يأكل الواحد من الغذاء ما يكفى خمسة أشخاص وهم سود يسيرون عرايا وأشكالهم كأنها العفاريت طعامهم اللحم واللبن والأرز والبلح ، وقال بأن الفيل والزراف يوجدان هناك بكثرة وأن أهلها شجعان بواسل فى القتال يحاربون على ظهور الفيلة والابل ، على أن البعض يشك فى صدق تلك الرواية لأن (پولو) لم يزر الجزيرة بنفسه

وقد وصف أحد مؤرخى القرن الرابع عشر أهل مجدشو بأنهم نهمون فى الأكل دباغون يلتهم الواحد غذاء جمهور كبير وحده ، وأن ممباسا مدينة كبيرة تغص بالموز والليمون وأن أهلها دينون شرفاء وأن (كلوا) بيوتها من خشب وقد ظل ملك السلاطين فيها خمسمائة سنة ويظهر أن غالب الناس والحكام هناك كانوا من المنفيين من بلاد فارس

البرتغال : على أثر تقرير قدم لملك البرتغال سنة ١٤٨٥ يحبذ زيارة أملاك العرب الشاسعة فى شرق أفريقية ، أرسل ڤاسكودجاما مع أربع سفن بحارتها من المجرمين الذين وعدوا باطلاق صراحهم فى الشرق لكن استقبال البرتغال هناك كان قاسياً إذ دخلوا فى نزاع مع العرب دام قرنا كاملا ، وأخذ نفوذ البرتغال وأمبراطوريتهم يمتد وساعدها انقسام العرب وضعفهم فى البحر عن أعدائهم ، وكان غرض البرتغال فى البدء تجارياً وقد حنقت عليها البندقية سيدة تجار البحر الأبيض إذ ذاك ، ومصر التى خشيت ضياع ٢٩٠ ألف جنيه كانت تردها فى العام مكوساً تجارية ، فتعاون كل أولئك على

البرتغال لكن شاءت المقادير أن ينتصر (المايدا) على المصريين والعرب فى واقعة (ديو) و بذلك أصبح المحيط الهندى بحراً برتغالياً لمدة قرن . على أن البرتغال لم يتوغلوا فى داخل أفريقية لوحشية الأهالى ولكثرة الأوبئة لذلك لم يحس نفوذهم فى الداخل خصوصاً وأنهم لم يستخدموا العرب وسطاء لهم خوفاً منهم وحنقاً عليهم ، ولقد بدأوا أعمال التبشير لكنه لم يجد فتيلا رغم اختلاط جنودهم بالسود والهنود ومصاهرتهم مما أضعف نفوذهم حربياً ، ولقد تدهوروا مدنياً لأن سياستهم كانت تقوم على الابتزاز والاسلاب ليس غير ، وأتم انحلال نفوذهم ضم فيليب بلاد البرتغال لأسبانيا فأصبح أعداء اسبانيا الكثيرون أعداء للبرتغال ، و بدأت مزاحمة هولندا وانجلترا وفرنسا لهم.

تقدمت أساطيل هولندا إلى جنوب أفريقية وأقامت شركات تجارية والهولندى بحكم طبيعة بلاده وسيط تجارى على أن عيبهم كان عدم التضامن فهم اعتادوا القيام جماعات صغيرة لا يهمهم جيرانهم من بنى جنسهم مما دعا شركاتهم إلى التنافس الذى أضعفهم ، وزادت هجرة الأوروبيين إلى الكاب هولنديين و ألمان وفرنسيين خصوصاً طوائف الهوجنوت الذين فروا من فرنسا إلى هولنده فشجعتهم هذه على السفر لجنوب أفريقية وتصاهر الجميع مع السود والهنود فكان منهم شعوب البوير (المزارعين) وقد ساعدتهم نزعتهم إلى الرعاية على الارتحال بعيداً فى داخل القارة وافدين من الجنوب ولذلك نقلوا عناصر مدنيتهم إلى قلب أفريقية

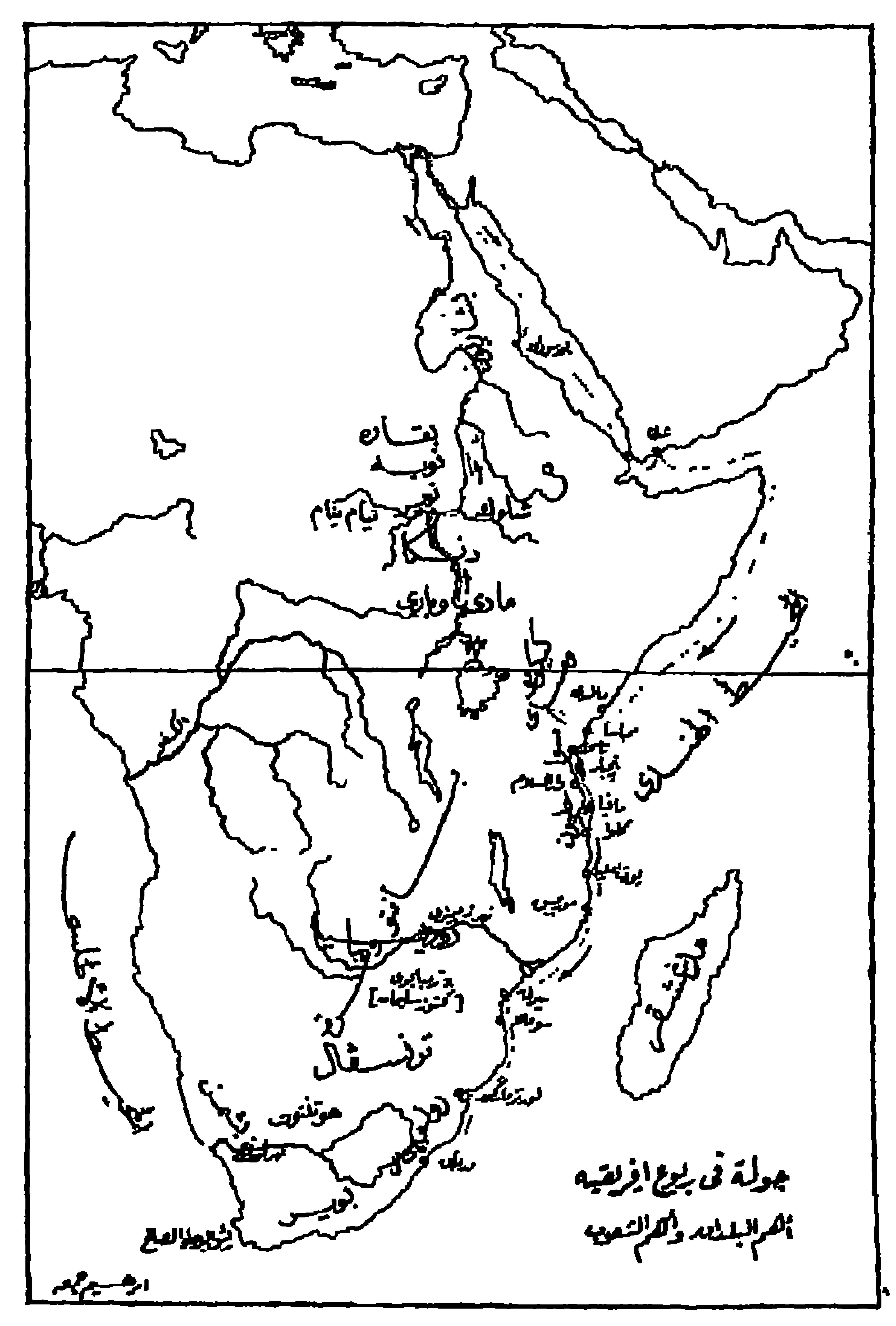
بدأت مزاحمة الانجليز بعد أن أخذوا الغلبة فى البحار وتحول المركز المالى

العالى من استرداد إلى بنك انجلترا فى لندن وقام أهل اسكتلنده المعروفون بالمثابرة إلى جانب الانجليز المعروفين بالمغالبة والمخاطرة فى شىء من الحرص وساعدهم على الفوز افتقار الشركة الهولندية إلى الحكمة حتى فسد موظفوها وابتزوا منها الأموال الطائلة مما أضعف ماليتها ، أضف إلى ذلك خسائر الحرب وكره الأهالى لها أولئك الذين بدأوا يطالبون بالاشتراك فى حكومة البلاد وألحوا فى دستور مسطور خصوصاً بعد أن نجحت ثورة أمريكا ضد الاستعمار .

وصلت سفن الانجليز وأمنت السكان على متاعهم ومنحتهم حرية الاتجار وأبقى الموظفون فى أماكنهم إلا الوظائف الرئيسية التى أخذها الانجليز لأنفسهم ومال الانجليز إلى كلنزة البلاد لكن اللغة الهولندية كانت لغة الكنيسة ، أما لغة الكلام فكانت الانجليزية إلى جانب الهولندية ، وطالب الناس بجعل أفريقية للافريقيين ، وأخيراً تأسست جمهوريتان الترنسفال ، وأورنج الحرة ، ثم توحدتا فى جمهورية واحدة ثم أوجد نظام جمركى بين كل ولايات جنوب أفريقية شبيه (الزلفرين) ودخلته روديسيا الجنوبية لكن محيت الجمهورية وضمت لاتحاد جنوب أفريقية تحت إشراف بريطانيا ، ولايزال يحن كثير إلى العصر الجمهورى وبعضهم يرغب فى حكومة الدومنيون وقد خرجت روديسيا من الاتحاد لأنها أقل خبرة وعلما وأندر سكانا ، وقد حاول الجنرال (سمطس) ضمها مؤيداً رأيه بأنها استعمرت من الجنوب وبأن قانونها مقتبس من قوانين الاتحاد كما أنها كانت عضواً فى الاتحاد

الحركى وهى لاتستطيع وحدها الوقوف مالياً بدون مساعدة الاتحاد إلى ذلك
اتمام الصلة الحديدية بينها و بين الكاب

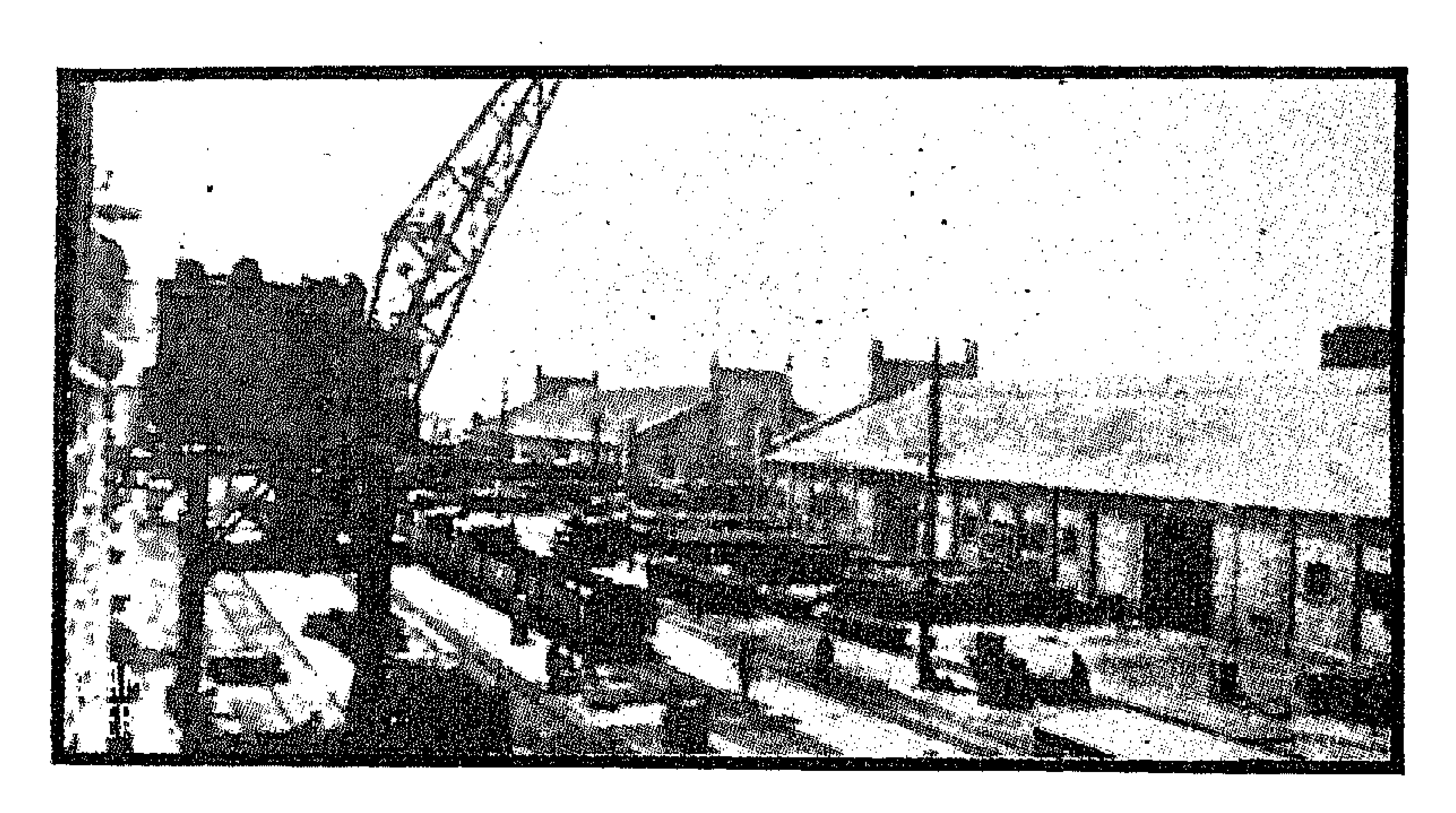
أما فى شرق افريقية فقد عاد للعرب بعض نفوذهم القديم خصوصاً حول
زنجبار وفى عهد أظهرهم نفوذاً (السلطان سيد سعيد) ثار عليه زعيم شعوب
(مزروى) وطلب حماية الانجليز لمباسا لسوء معاملة السلطان لهم فأعلنت
الحماية ورفع العلم البريطانى لأول مرة هناك وتحالف السلطان سيد سعيد
مع الانجليز ونقل مركزه الرئيسى من عمان الى زنجبار وتضامن مع الانجليز
فى منع الرقيق وأقام قصوره فى الجزيرة . ولما مات تنازع خلفاؤه الحكم
فتدخلت انجلترا وزادت مصالحها فى شرق أفريقية فرفعت الحماية على زنجبار
نفسها ، وكان كبار الكاشفين الانجليز قد أوغلوا فى أفريقية وفى سنة ١٨٨٦
اتفقت الدول العظمى على تحديد ملك سلطان زنجبار كخطوة لاقتسام شرق
افريقية ، وأخذ الألمان يزاحمون الانجليز هناك وأرغموا سلطان زنجبار أن
يتنازل لهم عن جزء من ساحل افريقية بسطوا عليه حمايتهم لكن الشركة
الانجليزية التجارية قاومت ذلك ومدت سكة الحديد من ممباسا الى فكتوريا
ولما كسدت تجارتها تنازلت عن أملاكها لسلطان زنجبار مقابل مبلغ من
المال ولا يزال علم زنجبار الأحمر يرفرف على حصن ممباسا وتدفع حكومة
كنيا ستة عشر ألف جنيه سنويا مقابل احتلالها للسواحل ومنذ سنة
١٩٢٠ أضحت كنيا مستعمرة للتاج ماخلا شريطا ساحليا ضيقا فهو حماية
لأنه من أملاك زنجبار .



تبين الخريطة خطة السير وأهم البلدان التى حللناها والشعوب التى لاقيناها. وقد ناهزت المسافة التى قطعناها عشرة آلاف ميل وخمسمائة بين بحر وبر .

بدء الرحـــلة

الى بور سودان : غادرنا بور سـعيد عصر الأربعاء نشق قناة السويس جنوباً ثم أوغلنا فى خليج السويس الذى كانت تبدو سواحله على الجانبين تارة تنأى وطوراً تقترب إلى أصيل الخميس حين دخلنا البحر الأحمر وظل الساحل المصرى بادياً . وفى باكورة الجمعة كنا وسط المـاء

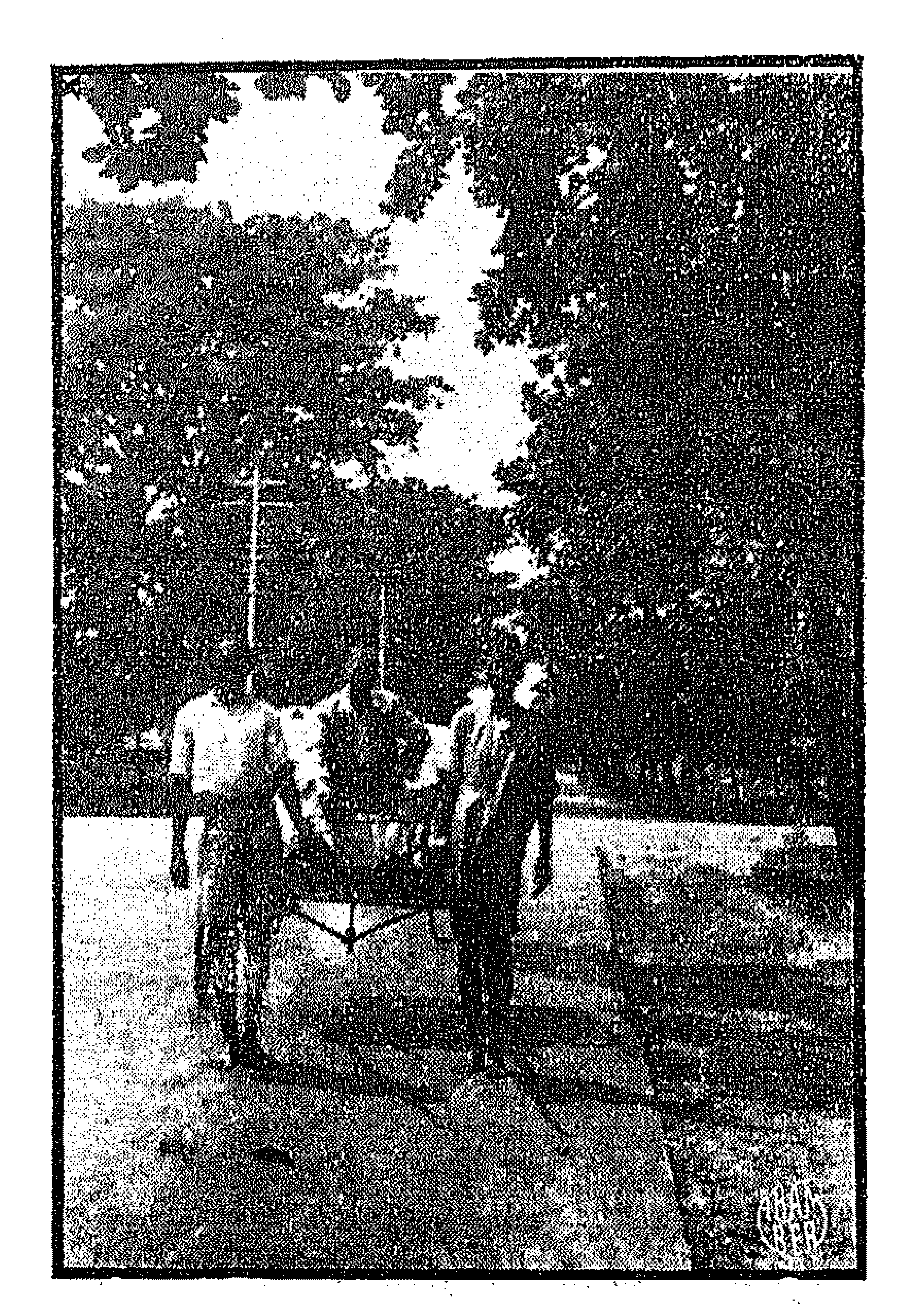


(ميناء بور سودان)

لا تبصر العين من اليابسة شيئاً وفى غداة السبت أقبلنا على بور سودان . حللت المدينة فبدت صغيرة جديدة ليس بها ما هو جدير بالذكر طرقاتها نظيفة وفى استقامة وعلى جوانبها تقوم المبانى الحديثة فى طابق واحد ومظهر المدينة مجدب عار عن النبت لا تكاد العين تقع على خضرة قط ويزيدها جدباً جبالها المقفرة التى تحيط بهـا من كل جانب اللهم إلا جون من البحر

طمر القوم جانباً منه وأقاموا الميناء عليه والأرصفة مزودة بالروافع الثقيلة تجرى على قضبان تؤدى من السفن إلى حظائر للسلع ما صدر منها وما ورد ، وأظهر بناء إذا أقبلت على المدينة من الميناء ، دار المديرية من طابقين كان يعلو ساريتها العلمان المصرى إلى جانب الانجليزى وأهل المدينة أخلاط من السود يتكلمون العربية والزنجية . وكان عمال الميناء من قبل من مهاجرى اليمن لكن الحكومة رأت أن تخص الوطنيين بهذا العمل فاستقدمت من داخل السودان جماهير يقومون بالنقل مقابل أجر خمسة قروش فى اليوم وأعجب قبيلة كانت تبدو بينهم البشارية يرسلون شعورهم تتدلى على أقفيتهم فى جدائل رفيعة وشعر الناصية يترك منفوشاً وقائماً فى كرة ، وجو المدينة لافح محرق شديد الجفاف ذاك لأن أمطارها تسقط فى الشتاء وبمقادير قليلة إلا إذا صادفهم السيل وعندئذ ينذر بالخطر ومن هذا الماء يملأون أحواضاً يرشحون الماء فيها ويستقون منها ، وهنالك وراء الجبال عند منازل المطر نطاق ضيق تكسوه الخضرة وهو المكان الوحيد الذى يستنبتونه فى هذا الأقليم القفر .

غادرنا المدينة فأنعشنا نسيم البحر قليلا ، وقد كان جو البحر الأحمر هذا العام جميلا فى الجملة ولم نحس ذاك السكون الخانق الذى كابدناه عامنا الفائت فى طريقنا إلى الهند والصين واليابان ، ويظهر أنه لا يكون إلا فى أواخر مايو ، على أن الحرارة أخذت تتزايد من يوم لآخر ، وفى يومين دخلنا :



(طريق كلنديني يشق غابات المـانجو ـ ممباسا)

عدن : بجزائرها المحدبة الجافة تقام البيوت والحصون على منحدراتها المواجهة للقارة ، وكان ساحل القارة يبدو جليا وطيئاً على بعد ، وقد نزلت المدينة للمرة الثانية فلم أستزد منها بشيء جديد ، صخور عاتية عريت عن النبت يكاد يصهرها وهج الشمس ، وفى الأصيل برحناها والماء هائج مضطرب أنذر بمرض البحر وأخذ ذلك يتزايد حتى انقضى اليوم التالى وظهر إلى

يميننا قرن أفريقية عند رأس (جوار دافوى) فى حائط صخرى مجدب مخيف يمتد إلى الآفاق وهنا تغيرت الظروف الجوية فأضحت الريح جنوبية وبليلة كادت قطرات ضبابها تكسو الجبال على بعد منا ، وأخذت الريح الموسمية هذه تزأر فى شكل مخيف حتى لم ينج فرد من مرض البحر وظلت السفن تترنح طوال يوم الاربعاء وبعض الخميس وخف الحر الذى عودنا أياه البحر الاحمر ، وكان الهواء بارداً عاصفاً بليلا يحس المرء أنه مشبع بالرطوبة ذاك البلل الذى هو سر فيض نيلنا الغامر ، وخصب بلاد الهند النادر ، وكانت السماء تتلبد بالغيوم الثقال ولبثنا وسط هذا المحيط الزاخر القاتم الرهيب يومين ثم عبرنا خط الاستواء جنوبا فتحسنت حالة البحر نوعا وخفت حدة الريح وندرت سحب السماء وأضحت متقطعة ، وكان ينعشنا الأمل بوصول أرض ممباسا فى الغداة كى نجد عوضا عن هذا البحر الممل ولو الى حين .

ممباسا : فى ستة أيام من مغادرتنا لعدن القت الباخرة مراسيها على أرض ممباسا ، وهى جزيرة ذرعها ميلان فى ثلاثة ، تسمى ملكة الجزائر المرجانية إذ تحفها هالة من شعاب المرجان وبدت فى خضرتها الوفيرة القاتمة كأنها زمردة ألبست فجوة من شرق أفريقية ، وفيما بينها وبين القارة يتلوى البحر فى مخابىء آمنة جعلت الميناء من أجمل مين شرق أفريقية وأمنعها على الاطلاق ، ولقد كانت الميناء القديمة تقوم شمال الجزيرة لكن الانجليز اتخذوا ساحلها الجنوبى مرفأ لأنه أفسح مجالا وأبعد غوراً فأقيمت عليه

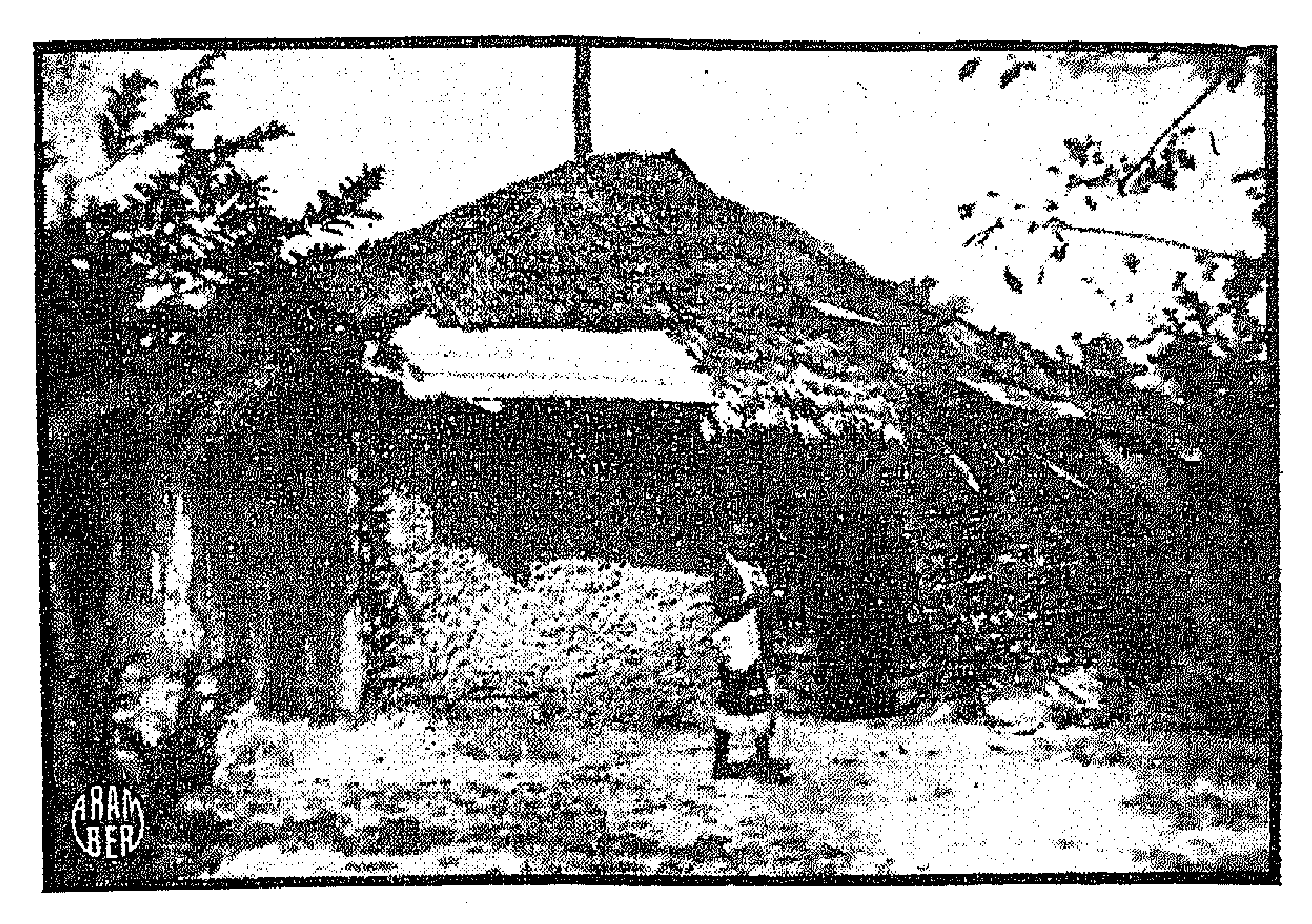


(على حافة قلعة ممباسا)

الأرصفة الممتدة تقوم عليها العنابر والروافع التى تديرها الكهرباء و يطلق القوم على هذا الجزء : مرفأ كلنديني ومعناه بلغة السواحليين مكان الماء العميق ، نزلنا إلى رصيف الميناء با كورة الصباح وكانت الجزيرة تعلو تدريجا فى منحدر من صخر الجير المهشم القديم فسلكنا سبيلنا صعداً فى طريق (كلنديني) الذى يشق الجزيرة نصفين وتقوم عليه المبانى الرئيسية

من متاجر ودور للحكومة وبيوت منسقة والطريق تحفه الغابات ذات الاشجار الوارقة الباسقة على اختلاف أنواعها ولا تكاد تخلو قطعة من الأرض من النبات والعشب الوفير فهو كسائر طرق الجزيرة قد شق وسط غاباتها الكثيفة وكان أظهر الشجر المانجوء الذى كنا نرى ثمره ملقى على الارض فى كثرة هائلة ولا يعنى المارة بأمره فثمنه هو وسائر الفاكهة الاستوائية زهيد للغاية فقد كنت أنتقى أطايب المانجو من بائعه بمليمين ولما أتينا على آخر الطريق بدت القلعة التاريخية تطل على الميناء القديمة — ويسمونها قلعة يسوع — شادها البرتغال سنة ١٥٩٣ يوم أن أصبحت ممباسا عاصمة دولتهم الافريقية لكنها سقطت فى يد سلطان ممباسا سنة ١٦٣١ حين قتل جميع البرتغاليين فى المدينة ، وبعد أربع سنوات استعادها البرتغال وأعادوا بناءها وفى ١٦٩٦ بدأ العرب حصارهم العظيم الذى دام ثلاث سنين وانتهى بفتح القلعة وقتل ما تخلف من حاميتها ، وهى اليوم سجن ويزمع تحويلها الى متحف ، وفى مدخل تلك الميناء كاد ڤاسكو دجاما يفقد أسطوله لأن قواد سفنه وكانوا من العرب تآمروا على تدميره فاتفق اثنان وسببا اصطدام سفينتين تحطمتا ولما قبض عليهما وعذبا بصب الزيت المغلى فى جسدهما اعترفا بأنهما فعلا ذلك انتقاما للعرب فشنقا قصاصا ولڤاسكو دجاما شارع صغير باسمه وعامود تذكارى كأنه قمع السكر شكلا ولونا

وممباسا كانت منذ القرن الثامن حصنا للعرب منيعا تحت أئمة عمان ومسقط وكانت أكبر أسواق للرقيق إذ ذاك ، ولما كشف البرتغال طريق



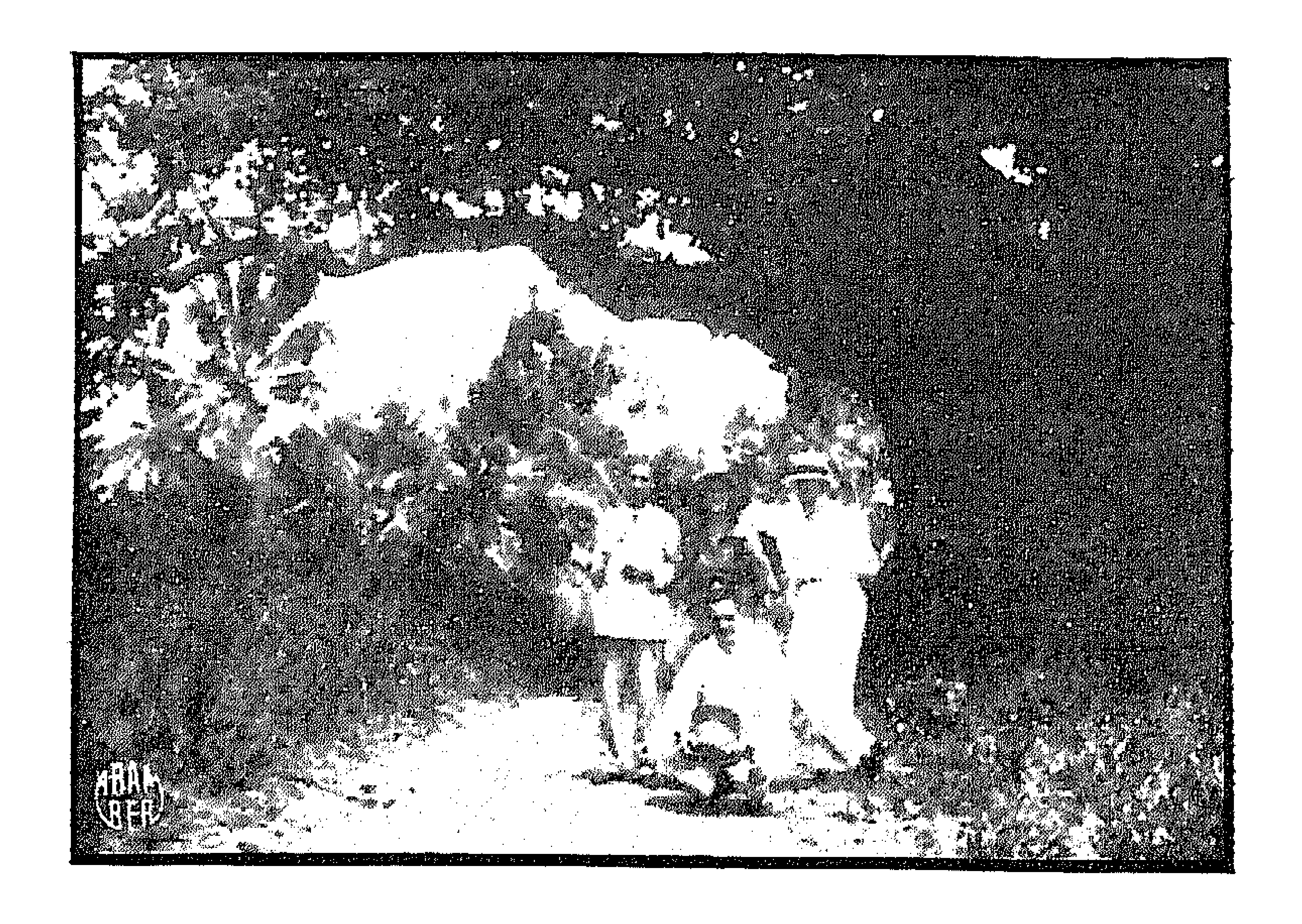
(مساكن ممباسا من جدائل العصى تسد بالطين)

الرأس وجدوا فى مرافىء شرق أفريقية أماكن آمن من البحر وغوائله تلك التى قاسوها فى جنوب أفريقية ، وفى سنة ١٥٠٩ حاز (المايدا) قائدهم النصر فى إحدى معارك التاريخ الحاسمة هى (واقعة ديو) حين دمر أساطيل العرب والمصريين مجتمعة وضمن للبرتغال احتكار المحيط الهندى لمدة قرن من الزمان كامل ، ولا يزال يطلق القوم على الجزيرة (كسيواتشامڤيتا) أى جزيرة الحروب

ومدينة الأهالى هنا أشبه بقرية صغيرة تقام بيوتها وكأنها الأخصاص من شباك العصى والأعواد تملأ فضاءاتها بالطين وسقوفها متحدرة تكسى بالقش أو صفائح المعدن والبيت فى مجموعه مربع الشكل والطرق أزقة متلوية

فى غير نظام ، وكنا نرى جمهرة من تلك الدور بين فجوات الغابات الفطيرة والسكان أخلاط من بينهم ٧٥٥٦ من الهنود، ٧٥٢٣ من العرب ، ١١١٩ من الأوروبيين ، ٢١٣٥٢ من السود ومجموع السكان حوالى ٤٥ ألفاً يتكلمون لغات مختلفة أخصها : السواحلية : وهى خليط من لهجات البانتو مع العربية ، وكنت أتلمس فى كل جملة كلمة أواثنتين أفهم بهاسياق الحديث وتكتب بحروف عربية وهى اللغة الرسمية فى شرق افريقية فكنت أراها تكتب إلى جانب الانجليزية حتى فى الاعلانات، فمثلا عند منحنيات الطرق كنت أجد كلمة (أصبر) بمعنى خفف السير وعند بائع الماء ترى كلمة (ماج) ومن الكلمات الشائعة : (زمانى) بمعنى من زمان مضى و (بريدى) بمعنى البرد و (كرتاس) بمعنى الورق و (سفرى) بمعنى الرحلات (وَمبارَك) للتحية و (دَوَى) للدواء ، واللغة السواحلية سائدة فى شعوب السواحل جنوبا إلى الناتال ومن ممباسا إلى فكتوريا نيانزا فى داخل أفريقية .

والشعب السواحلى وليد اختلاط العرب بالزنوج فهو من أب عربى وأم زنجية ، وهم يعيشون اليوم عيشة خمول فى السهول الساحلية ذات النبت والشجر الوفير وقد كانوا تجار عاج ورقيق من قبل ، ولما حرم الاتجار بالرقيق أهمل العرب مزارعهم لأنها كانت تتوقف فى فلحها على أيدى الرقيق ، وكان هؤلاء يحبون سادتهم من العرب ويختلطون بعائلاتهم لأنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة ، وكانوا لذلك أصحاء الجسوم لكنهم بعد إلغاء الرقيق فقدوا سادتهم ولم يستطيعوا العمل وحدهم فأضحوا وكأنهم الغنم فقدوا راعيهم



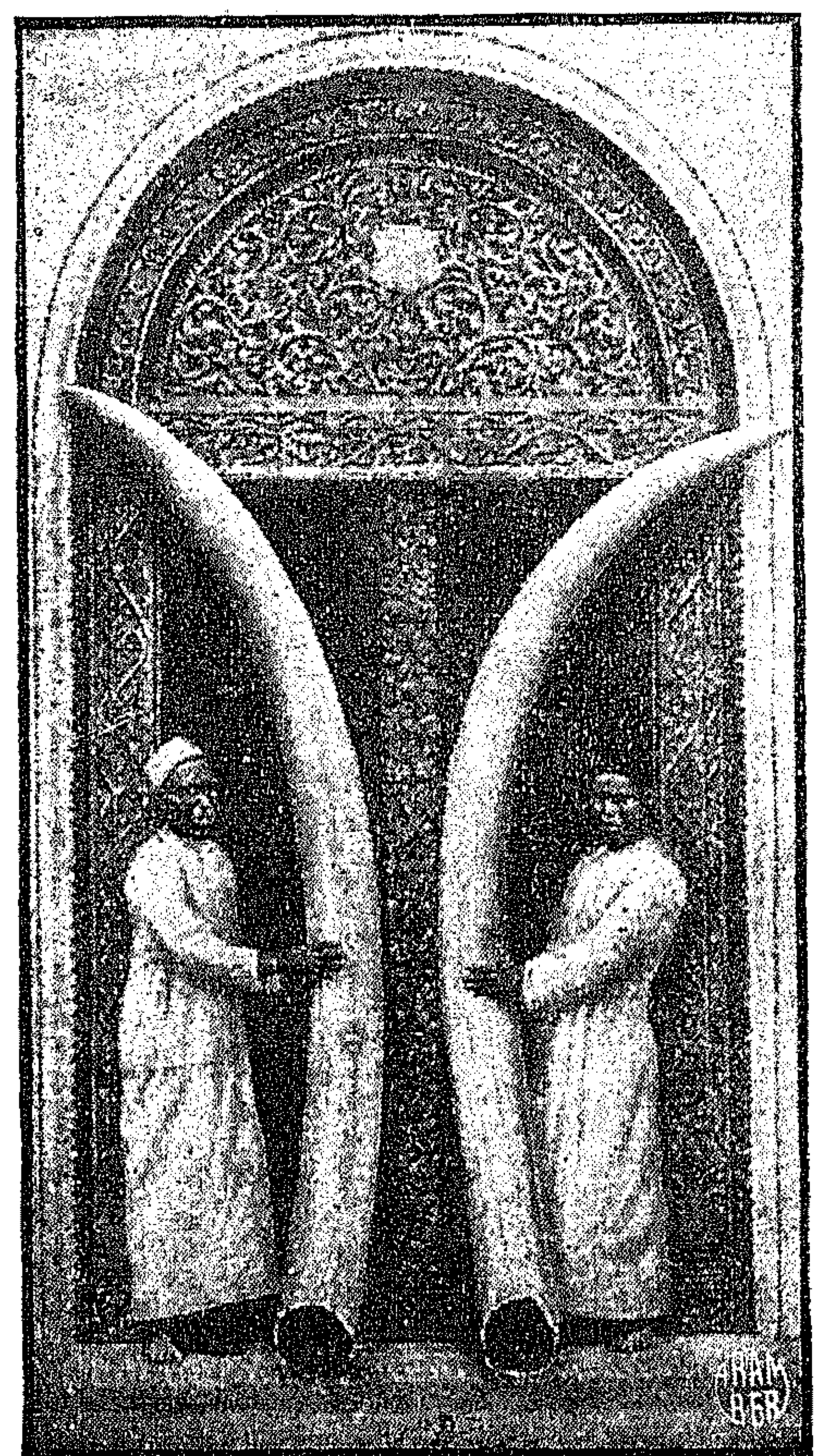
(نقف تحت شجرة (الباوباب) فى غابات شرق أفريقية)

كذلك العرب فأنهم اعتادوا من قبل حياة السادة يشرفون على عبيدهم فحسب فلما فقدوا عمالهم لم يستطيعوا مباشرة العمل وحدهم فكان من نتائج هذا التحرير أن انحط النوعان السيد والمسود وتدهورت حالة الانتاج فى الأراضى الخصيبة الساحلية ، والعرب هناك لا يزالون يفاخرون بحسبهم القديم ويتمسكون بأهداب من العزة واهية فى فلول قصورهم المتوارثة فى مدن السواحل ولا يزالون يحتقرون العمل اليدوى ويظهرون شيئاً من كبريأهم القديم كنا نلمحه على وجوههم وهم آخذون فى التدهور السريع لا بل والانقراض أمام المزاحمين من الأجانب أسيويين وأوروبيين ، ويقال عن السواحليين أنهم مبذرون كسالى على أنهم قوم مرحون قانعون بما يلقون

يشتغلون بجد أسبوعاً من كل شهر وبما يكسبون يسدون حاجاتهم بقية الشهر وكفاهم فخراً أنهم نشروا لغتهم التى أصبحت لغة التعارف بين كثير من وسط أفريقية وشرقها .

وفى ممباسا طائفة من أصفياء العرب تحكى لهجتهم لهجة اعراب البادية فى مصر على أنهم قذرون ومتأخرون ويشبهون فى السحن مسلمى الهنود الذين يكثرون هناك وللمدينة مظهر اسلامى فى تعدد مساجدها وهم يتمسكون بشعائرهم لا يحيدون عنها أما سحن الزنوج فمنفرة للغاية بقاماتهم القصيرة وأنوفهم المفرطحة والنساء أشد قبحاً ، يلبس غالبهم الطربوش تتدلى خصلته الغليظة الملونة (فيما يحكى « زر » العمامة) على جباههم وكأنهم البلهاء .

وممباسا تقع إلى جنوب خط الاستواء بأربع درجات وكان الجو مدة إقامتى بها جميلا أميل إلى البرودة إلا أنه رطب فالسماء قلما كانت تخلو من الغيوم ولم أشعر وأنا بها أننى أقارب خط الاستواء بحره القائظ على أنه إذا بزغت الشمس فانك تلاحظ فرقا عظيما فى الحرارة إذ ترسل الشمس أشعتها الرأسية فتكاد تخرق الجلد فاذا ما حجبتها سحابة — وكثير ما هى — انتقلنا من وهج المنطقة الحارة إلى نسيم الجو الأوربى البليل والموسم البارد هناك بين ابريل وسبتمبر ، ويلفت النظر أشجار عتيقة هى بقايا أشجار (الباوباب) التى نمت أبان سيادة العرب والبرتغال وقد اعوجت أعوادها بمضى السنين وكثرت تجاعيدها وفروعها بحيث كانت تبدو الشجرة وكأنها أربع شجرات أو ست ضمت إلى بعضها وتشعبت كل فى أعلاها تشعباً مستقلا عن جارتها



والميناء صاخبة تظل حركة الشحن والتفريغ بها دائبة وهى الميناء الرئيسية لمستعمرة كنيا ، والمنفذ الوحيد لمتاجر أوغندا إذ يصلها بالبحيرات خط حديدى وكذلك تصرف عنها بعض متاجر تانجانيقا والكنغو وأشهر ماتصدره : البن الذى يزرع فى مساحات شاسعة فى كنيا ثم السيسال وهو نبات كالصبار يدق فيصبح أليافاً صفراء براقة لكنها خشنة تحكى الليف الأبيض من نخيل مصر

(سن الفيل قد يبلغ ضعف قامة الرجل طولا)

وينسج للأشرعة والغرائر والحبال ومن المواد الصادرة من هنا القطن ذواللييفة القصيرةوقشور شجرة (Wattle) تستخرج منها الأصباغ وكذلك العاج ، وقد زرت فى ميناء ممباسيا مستودعاً للعاج تجمعه الحكومة وتصدره

تحت اشرافها بمقادير وفيرة ومن الأسنان ما كان بالغ الطول زنة أكبرها مائتا رطل أعنى أن الفيل الواحد قد ينتج أربعة قناطير ، ويختلف العاج جودة باختلاف الحيوان سناً ونوعاً وكان ثمن الرطل العفل من النوع الجيد خمسين قرشاً ويصدر الخرتيت بقلة وقرنه قصير وفى مخروط مقوس إلى الخلف وثمن الرطل منه سبعون قرشاً

وغالب الأعمال التجارية يقوم بها الهنود أما باقى الأهلين فأجراء وقد قيل لى أنه بسبب الكساد العالمى الحالى اضطر نحو نصف الجنس الأبيض وبخاصة أصحاب الأعمال الكبرى من الانجليز أن يبرحوا البلاد ، وقد لاحظنا الكثير منهم يعودون لانجلترا لكساد أعمالهم هنا وهاهى باخرتنا غصت بهم يوم برحت ممباسا

قامت باخرتنا (لانجى كاسل) تشق مابين جزيرة ممباسا إلى اليسار وأفريقية إلى اليمين وكانت الشواطىء وفيرة النبت وبخاصة شجر المانجو إلى اليسار والنرجيل الى اليمين والساحل مشرف رأسى ومن صخور الجير الذى أصفر بعضى السنين وفى خمس ساعات أقبلنا على بلاد تنجانيقا :

تانجا : قرت عيوننا فى باكورة الصباح بجمال المناظر حول تانجا التى دخلناها فى الليل ونحن نيام ، خليج تحفه الجزائر الصغيرة المترامية وفوق الجزيرة الكبيرة أقيمت المدينة ببيوتها المنثورة ثم طغت على جوانب الخليج قبالتها حيث يصب نهر سيجى Sigi الصغير ، وقد كانت عهد الألمان أولى ثغور تانجانيقا لكنها اليوم فقدت شيئاً من شهرتها ولا يزال يصدر منها



(بعض سيدات السواحليين من المسلمات)

فوق ثلث حاصلات البلاد والأقليم حولها غنى بمزارع السيسال والـكبرا وفوق المرتفعات البن والشاى وهى منفذ طبيعى لأقليم كلمنجارو أهلها أحد عشر ألفا من بينهم ٥٦٣ من البيض و٤٥٨١ من الأسيويين هاجمها الانجليز

سنة ١٩١٤ لكنهم ردوا بخسائر فادحة ، وفى سنة ١٩١٦ فتحها الجنرال (سمطس) ولا تزال ترى باخرة ألمانية صغيرة غرقت هناك أبان الحرب . أقلتنا سيارة طافت المدينة وهى على نمط دار السلام ثم أوغلنا فى مجاهل الغابات خلفها فهالنا مابها من فصائل النبات الملتف المتعانق بين صغير وعملاق وخلالها قطع القوم فجوات زرعوها من السيسال والتابيوكا لكن غالب الأراضى مهمل يحتاج فى زرعه واستغلاله إلى جهد كبير حتى تستأصل تلك الطفيليات التى كنا نمر خلالها فتغطى جموعنا تماماً بعضها فى أعواد وأوراق كأنها قصب السكر والبعض شجيرات أوراقها مهفهفة خفيفة عريضة ، هذه ذكرنا حقاً بمخابىء الوحوش التى خبرنا السائق عنها طويلا وبخاصة السبع والشيتا نمر أفريقية الأرقط وبينا نحن نتحدث إذا بجمهرة من القردة فى أحجام مختلفة تجرى على بعد وتتسابق إلى الشجر وهنا قال الرجل بأن هذه القردة أضحت من أكبر المنغصات هناك لابل وفى باقى أفريقية إلى أقصى الجنوب فهى تسير فى جماعات وتهاجم حقول الذرة ويقف منها حارس أو اثنان للرقابة ولا يفتأ الباقون يقطعون أكواز الذرة ويولون سراعاً ، لقد اتبعوا فى مطاردته طريقة عجيبة هى أن يصاد واحد فى فخ ثم يحلق شعره كله ويطلى جسده بدهان أزرق ويطلق صراحه فاذا أتى عشيرته ورآه الجمع هكذا خشى أن يحل به مثل ذلك فينقطع الجميع عن زيارة تلك البقعة مدة طويلة هروباً من ذاك المنظر المخزى !

أدى بنا التسيار خلال تلك الغابات إلى مغاور بها من الصاعدات

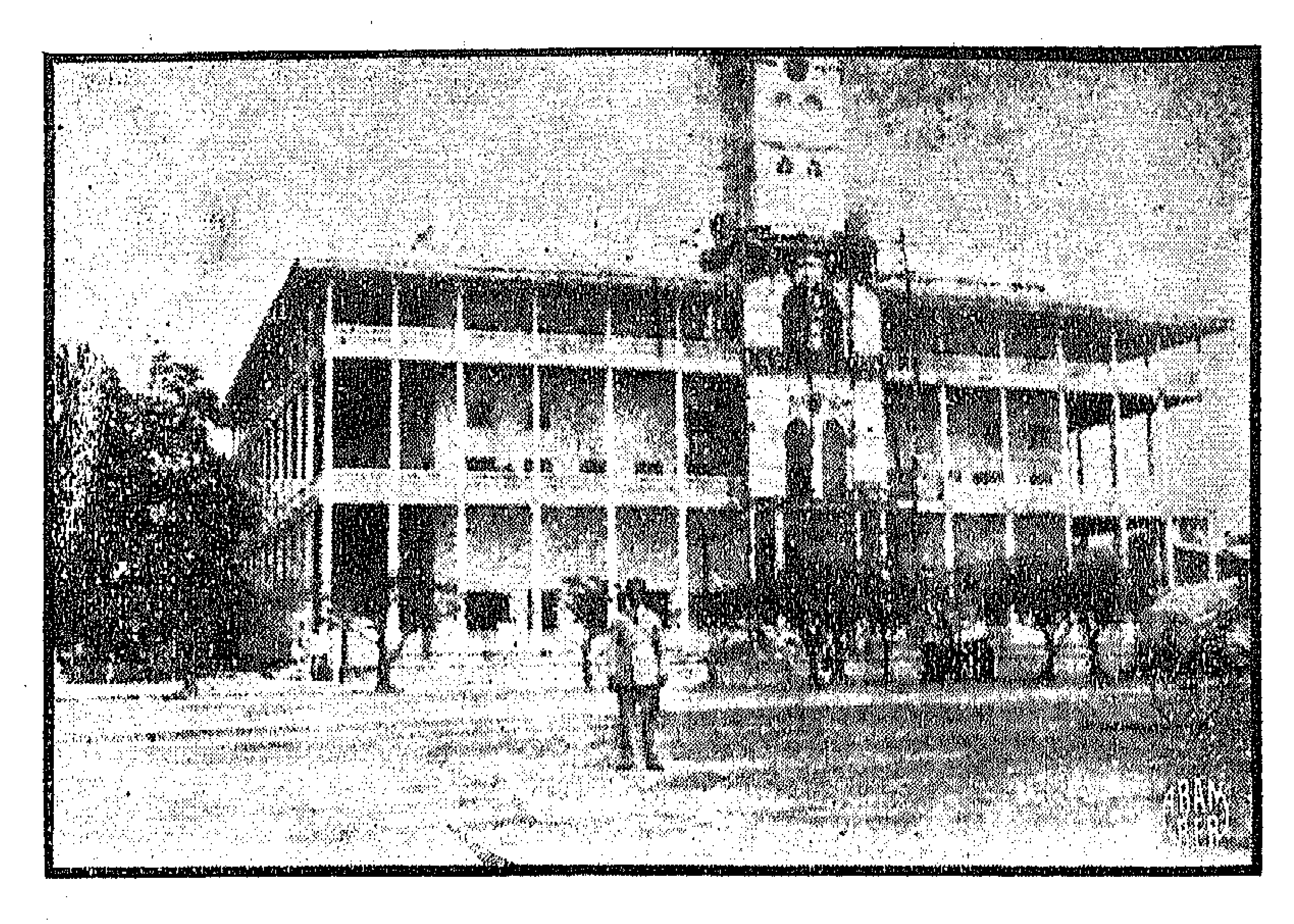


(وسط الغابات المغلقة فى تانجا)

والداليات والفجوات ما يشعر بمرور نهر تحت الأرض ثقب الصخر هكذا والمنطقة حولها جد موحشة لولا ماتري من جموع الفراش رائع النقوش ومن أسراب الطيور الغريدة فى ألوانها الساحرة ، وبعد أن سرنا طويلا فاجأنا نهير يكاد يغطيه كثيف النبت وخليعه ومن الشجر الذى استرعى أنظارنا (الباوباب) الشامخ ، وكان له ثمر كأنه أكواز الشمام الكبير يغطى قشوره وبر أملس ناعم إلى ذلك شجر متعدد الثمرات من بينها ثمرة حمراء هادئة كأنها التفاح قلبها ناصع البياض تتوسطه نواة ضخمة كنواة المانجو ويسميها القوم بالسواحلية (توفاه) بمعنى تفاح ، والجوافه والمانجو التى أثقلها الثمر دون أن تجد صاحباً يستغلها . هنا حط رهطنا الرحال وأخذنا نأكل من

ذلك الثمر الشهى حتى امتلأنا بطوناً وجيوباً ، ويتخلل كل أولئك شجر النرجيل الذى لايغيب عن العين . طال بنا التجوال والركوب زهاء ساعتين بين وهاد ونجاد فهمنا خلالها معنى الغابات الكثيفة حقاً فى رهبتها ووحشتها وجمالها الرائع

زنجبار : فى أربع ساعات بدت أرض زنجبار فى شبح فاتر لبث كلما قار بناه يجلو فى جزائر صغيرة منثورة حول الجزيرة الكبيرة وحول الجميع نطاق أبيض ناصع من تكسر موج البحر على جسور المرجان الذى يحيط بها وكان النبت الوفير يكسوها جميعاً وفى أكثر من ساعتين رسونا على بعد من الأرصفة وأقلتنا الزوارق الصغيرة إلى الشاطئ فبدت المدينة شبيهة بناحية الميناء القديم فى الاسكندرية طرقها مختنقة لكنها نظيفة وغالب بيوتها من طابقين فى هندسة بين العربية والمصرية ويواجه الميناء قصر السلطان القديم فى منظر لابأس بأبهته فى أعمدته التى تحوط طوابقه كلها ويسمونه (بيت العجايب) وهو اليوم دار الحكومة كان يرفع عليه علم البلاد فى قماش أحمر وبجانبه القصر الجديد للسلطان على مدخله لوحة نحاسية كتب عليها (السلطان الخليفة سيد) وهو عربى يلبس عمامة شبيهة بعمامة الهنود ومن هنا أقلتنا الركشا إلى أرجاء عدة من المدينة أخصها شارع (دارا جينى) وهو يجانب شعبة من البحر كأنها القناة الضيقة عليها قناطر عدة يصل بها القوم الى مسكنهم الوطنى وهو أخصاص تقام على شاكلة تلك التى فى ممباسا تماما ، وفى نهاية الطريق يقوم المتحف ويسمى (دار الأمانى) تحت



(أمام « بيت العجائب » قصر سلطان زنجبار)

قبة صغيرة حوى بعض المخلفات القديمة من سيوف ومخطوطات وهدايا وبعض المقاعد والطبول الكبيرة التى استخدمت فى الحروب والمعروضات ليست بذات قيمة تذكر ، بعد ذلك زرنا بيت الحاكم الانجليزى — وزنجبار وبمبا سلطنة تحت حماية الانجليز — وهو أفخر مبانى المدينة يقوم فى شكل قلعة تطل على البحر تزينها الحدائق المنسقة وأمامها متنزه فكتوريا وهو ملعب عام وبه بعض المقاهى والمراقص ، أما أسواق المدينة فأعجب شىء بها فهى أزقة مختنقة ذات لفائف كأنها التيه لا يعلم لها أول ولا آخر بشعابها المعقدة فهى أشبه بحى خان الخليلى وما جاوره عندنا أرضها مرصوفة نظيفة وبها تعرض مبيعاتهم وغالبها من منتجات هندية ويابانية ، وتضم المدينة من الأهلين

مائتى ألف نفس منهم ١٦٥ ألفاً من السواحليين وعشرون من العرب وخمسة عشر من الهنود أما الأوربيون فلا يجاوزون ٢٧٠ واللغة السائدة السواحلية التى يتكلمها الجميع والاسلام دين السواد الأعظم ، أما السحن فبعيدة الشبه جداً ومنوعة وغالبهم فى جهل عميق ويقوم بالأعمال التجارية الهامة الهنود فى الغالب ، وليس للبلاد نقود خاصة فهم يستخدمون النقود الهندية (مثل الروبية ، والآنه) وأعجب ما هنالك ان ساعة البلاد تسير على النظام العربى فعند الغروب تكون الثانية عشرة وترى حتى ساعات الميادين تسير على هذا النظام

والمدينة تقوم على الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة التى يبلغ طولها خمسين ميلا ومساحتها ٦٤٠ ميلا مربعاً وتبعد عن القارة بنحو ٢٢ ميلا ، والبلاد تاريخية قديمة عرفت أخبارها منذ سنة ٦٠ ميلادية وظلت قروناً أكبر مين شرق أفريقية وأغناها مورداً والبيت المالك والطبقة الممتازة من العرب من شيعة أيبادهى (Ibadhi) لذلك خلت مساجد المدن من المآذن والمؤذن ينادى من باب المسجد وعدد مساجدها هذه يفوق المائة أشهرها مسجد كزمكازى (Kizimkazi) بنى سنة ١١٠٧ عند ما احتل الفرس الجزيرة والساحل المواجه لها وعماد ثروتها

القرنفل : الذى زرعه السلطان (سيد سعيد) وأمر أصحاب الأرض أن يزرعوه وإلا اغتصب أملاكهم فأصبح الغلة الرئيسية منذ مائة سنة اذ ٨٨ ./. من قرنفل العالم أجمع يصدر من هذه البلاد وهو يشغل مساحة ٦٠ ألف

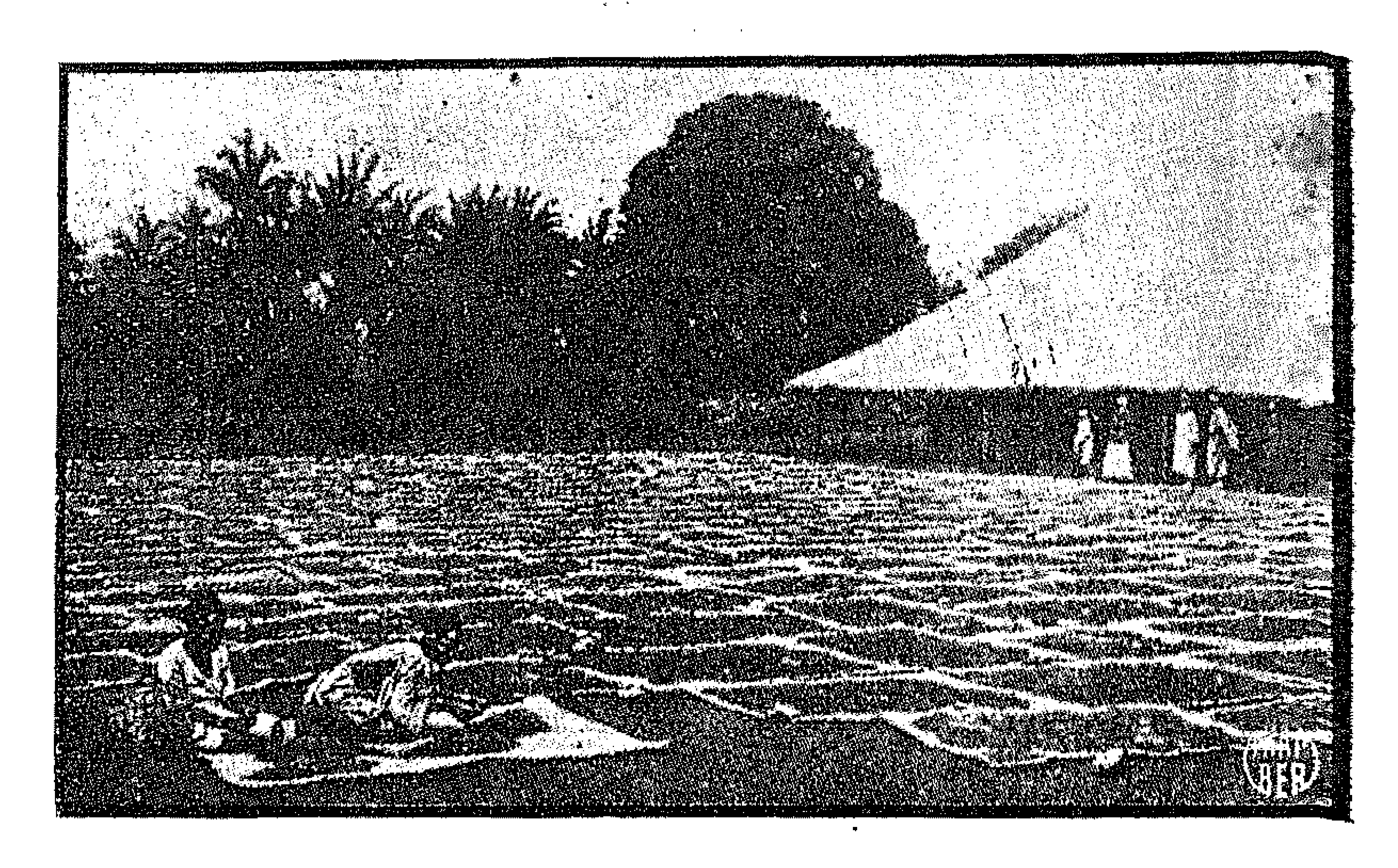


(فى أحد أزقة زنجبار)

فدان ونحو ٤ مليون شجرة تنتج نحو ١٨٠ ألف قنطار قيمتها من عشرة ملايين روبية — والروبية سبعة قروش — ويحسن ألا يزيد عدد الشجر على ثمانين للفدان وشجره يثمر فى سن بين الخامسة والثامنة وقد يثمر فى الثالثة وغلة الفدان خمسة أرطال من القرنفل الجاف وجنى القرنفل يحتاج

إلى مهارة وألا تلف كثير من الفروع السفلى ، وهو يجفف بعمليات شاقة
و إذا نضج و ترك حتى تتفتح أ كامه فقد قيمته واذا أزهر آذى الشجرة لذلك
كان العلم بميقات جنيه وليد خبرة طويلة ، والحكومة تتقاضى عليه من
الضرائب ما يوازى ٢٠ ٪ من قيمته لذلك اهتمت به كثيراً لأنه عماد
موردها، ومن القرنفل تستمد الأعطار والبهار والعقاقير والفانيليا(vanillin)
وعجيب أنه جرب فى السواحل المقابلة لزنجبار فى أفريقية فلم ينجح بتاتاً
رغم تشابه المناخ ، ولو أنه نجح تماماً فى مدغشقر التى بدأت تنافس زنجبار
اذ بلغ انتاجها ١٨٠ ألف قنطار وفى سنة ١٨٧٢ هبت عاصفة عاتية
اقتلعت جميع أشجاره فى زنجبار وأعيد زرعها .

قمت بجولة فى ضواحى المدينة وهى غابة كثيفة تشقها الطرق التى تعلو
وتهبط وتلتوى فى تعقيد كبير وأظهر الشجر النرجيل والمانجو ، وقد دخلت
مزارع القرنفل بأشجاره الكبيرة فى خضرة مصفرة وثمره ينمو فى عناقيد
من براعم متجاورة يعلوها زهر كأنه الوبر ثم تحمر البراعم وتقطف ثم تجفف
وكنا نرى البيوت كلها تنشره على الحصر أمام الأبواب وفى كثير من
الجهات تقوم مصانعه ، وكنا نمر ببعض مصانع (الكبرا) وفيها يجمع النرجيل
ثم يعرى عن قشوره وألبانه و يحطم لبابه و يشحن إلى الخارج لاستخراج
زيوته وتعد الجزيرة خير بلاد شرق أفريقية بانتاج الكبرا اذ صدرت نحو
١٣ ألف طن سنة ١٩٣٠ وشجرة النرجيل تزكو فى الشواطىء الحارة الرطبة
خصوصاً بين ممباسا والزمبيزى (فى كنيا نحو نصف مليون شجرة وفى تانجانيقا



(مصنع للقرنفل ينشر المحصول أمامه فى زنجبار)

ثلاثه أرباع المليون) ويكمل نمو الشجرة فى سن العاشرة لكنها تغل فى السادسة والسابعة وتظل تثمر نحو مائة سنة ويحسن ألا يزيد عدد النخيل فى الفدان على سبعين شجرة وتغل الشجرة من الكبرا بخمسة قروش وفى بعض الجهات يهمل الثمر مقابل العصير من الجذوع ذاك الذى يعمل منه نبيذ القوم المسمى (Tembo) على أن ذلك يؤذى بالشجر جداً لذلك منعته الحكومة فى بعض الجهات.

ومن الشجر الغريب هناك شجرة فاكهة الخبز ذات ورق فى حجم ورق الموز لكنه مخرم مسنن فى وسطه وأطرافه وثمرتها فى حجم الشمام الكبير الا أنها أكثر تفرطحاً واضيق فى وسطها وظاهرها خشن محبب و باطنها مادة نشوية يتخذ منها الدقيق ، وقيل ان ست شجرات منها تمون

عائلة كاملة بما تحتاج إليه من الخبز طوال العام إلى ذلك نبات (الكسافا أو الماهوحا أو التابيوكا) ويبدو كالكروم على بعد فان دانيته بدا أعواداً معقدة فى طول قامة الرجل إذا اقتلعت العود من الأرض خرجت معه مجموعة من جذور درنية فى حجم طويل ومادتها نشوية لبنية لمساً وطعماً ويأكلها القوم طازجة ومطبوخة ومازاد من محصولها جنف فأضحى خفيف الوزن هشاً اذا سحق بيع دقيقاً ، وهو من أهم الموادالغذائية فى شرق أفريقية وحيث يكثر يزيدالسكان ويقال انه أرخص المواد لاستخراج الكحول منه

سرنا طويلا خلال تلك المزارع الكثيفة النبت والشجر وبين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد تغص بالبيوت الريفيه تقام من أعواد الغاب المتقاطعة تطلى بالطين وتعطى بجدائل من خوص النرجيل وكلهم مسلمون ولغتهم سواحلية على أن النساء سافرات يلبسن دثارا فضفاضا خفيفا ألوانه زاهية ويعلقن فى آذانهن أقراطا من ورق ملون مثنى وثلاث ورباع و بعضها فى حجم نصف الريال ، وسحنهن أجمل من سائر السود اللاتى رأيتهن إلى آخر أفريقية جنوبا ولون القوم أخف سوادا مما يشعر بتأثير الدم العربى فيهم جميعاً ، وأعجب مانرى حفلات الرقص القومى يتمايلون خلاله بشكل مضحك تصحبهم قرعات الطبول الافريقية الضخمة وكأنها البراميل المستطيلة تدق من جانبيها

وقد زرنا فى تلك الضواحى القصر القديم للسلطان (سيد برغش) وهو أطلال وسط حدائق تزينها برك البشنين والبردى ولا تزال كثير من



(احدى قرى زنجبار)

أعمدته الضخمة قائمة وكذلك جانب من حماماته التركية بمداخلها الكثيرة ويقص القوم أن هذا السلطان كانت له زوجات يناهز عددهن المائة جارية من مختلف الأجناس في هذا القصر وهذا سر تسميته (بقصر الحريم) ، وهناك قصر آخر يطل على البحر ولا بأس بحفظه كان مقره الريفي ولايزال السلطان الحالي يقضي فيه يوم السبت من كل أسبوع ، عدنا من جانب الجزيرة الآخر مخترقين الحي الآهل بالسكان في بيوتهم ضخمة البنيان ذات الأبواب الحديدية المصمته الثقيلة ومن بينها دار البريد والحربية وأسواق الخضر والسمك ، ثم زرنا الكنيسة الانجليزية التي أقيمت في مكان سوق الرقيق القديم ، وقد بني المذبح في المكان الذي كان معدا للجلد

والتعذيب وقد صنع الصليب الذى يعلو المحراب من خشب الشجرة التى يدفن تحتها قلب الرحالة لفنجستون على بحيرة بنجويلو فى منابع الـكنغو

دار السلام : أبحرنا الى دار السلام الخامسة صباحاً وكان البحر هادئاً جميلا وظل عقد من الجزائر الصغيرة يمتد من زنجبار جنوبا الى مسافة مديدة وكنا أحياناً نلمح شاطىء القارة فاترا على بعد ، وفى خمس ساعات بدت مجموعة من الجزائر المتقاربة كثيفة النبت ومن ورائها مبانى دار السلام وأخذنا نتطلع الى مدخل الميناء وكان ربان الميناء (Pilot) يدير السفينة يمنة ويسرة وكأنها السيارة على ضخامتها وأخيراً ظهر المدخل مختنقاً تحفه شواطىء رملية مدرجة لاتسمح بمرور سفينتين معاً وعنده رأينا رصيفاً منهاراً وسفينة غارقة كان قد رمى الألمان بذلك الى قفل الميناء فى وجه الأعداء من الانجليز ابان الحرب وما ان اجتزنا هذا المضيق حتى انفسحت الميناء بشواطئها الرملية الممدودة فى السن لا حصر لها تنتثر عليها المبانى ذات السقوف المتحدرة الحمراء تحفها المزارع الغنيه ويكاد يخفيها شجر النرجيل وفى الحق انها لميناء آمنة مختبئة حققت فى نظرى تسميتها بدار السلام التى أسسها سيد عبد المجيد سلطان زنجبار سنة ١٨٦٢ واحتلها الألمان سنة ١٨٨٩ على أن الميناء ضحلة المياه كأنها المستنقع ولا يمكن للسفن دخولها الا ساعة المد ، وكنا نلاحظ عند المدخل كثيراً من الشجيرات يغطيها ماء المد فى مساحات مترامية وعجبنا لنموها فى هذا الماء الأجاج ، أما منظر الميناء بجزائرها ونبتها ومبانيها فمن أروع مارأيت جمالا فقد أبدعت الطبيعة تنسيقها وزادها الألمان تجميلا .



(تجفيف النرجيل لعمل الكبرا - دار السلام)

هنا أقبل البوليس الزنجى يلبس الطربوش الأصفر — وكان فى ممباسا ، وزنجبار أحمر اللون — تتدلى منه خصلة ثقيلة سوداء وبذلته صفراء ويلف على الساق شريط أزرق (الشين) أما الأقدام فبدت سوداء براقة بلونها الطبيعى ذلك لأن رجال البوليس فى شرق أفريقية جميعها يسيرون حفاة الأقدام . جبت أرجاء المدينة بمبانيها ذات الهندسة الألمانية المتشابهة طرقها فسيحة مرصوفة وفى استقامة تسترعى النظر تحفها الأشجار الوارقة والحى الأوربى منها كثير الحدائق فاخر المبانى لدرجة تفوق الوصف والناس أشباه سكان زنجبار وممباسا غالبهم مسلمون وكنا نسمع المؤذن ينادى للصلاة من أبواب المساجد أو من فوق سقوفها بلهجته العربية المحرفة والهنود

هنا كثيرون و بيدهم غالب المتاجر شأنهم فى سائر بلاد شرق أفريقية ووسطها وقد علمت أن نحو نصف الأراضى والمبانى فى دار السلام وتانجا وزنجبار ملك لأغنياء الهنود ، وهم ينبثون بين الأهلين ويخالطونهم ويعيشون معهم على قدم المساواة ولذلك فهم محبوبون إلا من الأوربيين الحانقين عليهم لأنهم فى زعمهم موضع خطر اقتصادى كبير بسبب مزاحمتهم للأوربيين مزاحمة قاتلة فى التجارة ذلك لأن معيشتهم بسيطة جداً لا يكادون ينفقون شيئاً وهـذا ماجعلهم يكدسون الأموال ويزاحمون الغير بأجرهم الرخيص ونشاطهم الزائد وكم كان دهشى عظيما لهذا النشاط الهندى الذى كان يبدو مجسما فى جميع شرق أفريقية وقلبها إلى البرت نيانزا فى الداخل فلم أكد أدخل ديوانا أو متجراً إلا وهم قادته وذلك عكس مارأيته منهم فى بلادهم عامى الفائت وذلك يظهر بوضوح مبلغ أثر الضغط وفساد البيئة فى بلادهم ذاك الذى يقعد بهممهم إلى هذا الحد الشائن أما فى خارج بلادهم حيث تحرروا من قيودهم السياسية والدينية والاجتماعيـة فقد ظهرت مواهبهم الـكامنة وكفاءاتهم الخامدة.

ولهم هناك مدارسهم ومساجدهم وقد زرت فى ضواحى دار السلام مدرسة لصغار الفتيات من الهنود حوت نحو مائة وخمسين يجلسن على الحصر فى مكان نظيف وكان الدرس ألعاباً رياضية يقف البنات فى دوائر متداخلة ويدرن وبأيديهن عصى قصيرة من الأبنوس كأنها الصوالج وفى وسط الدائرة فتاة تعزف على شبه بيان صغير وهن يرقصن وراء النغمة

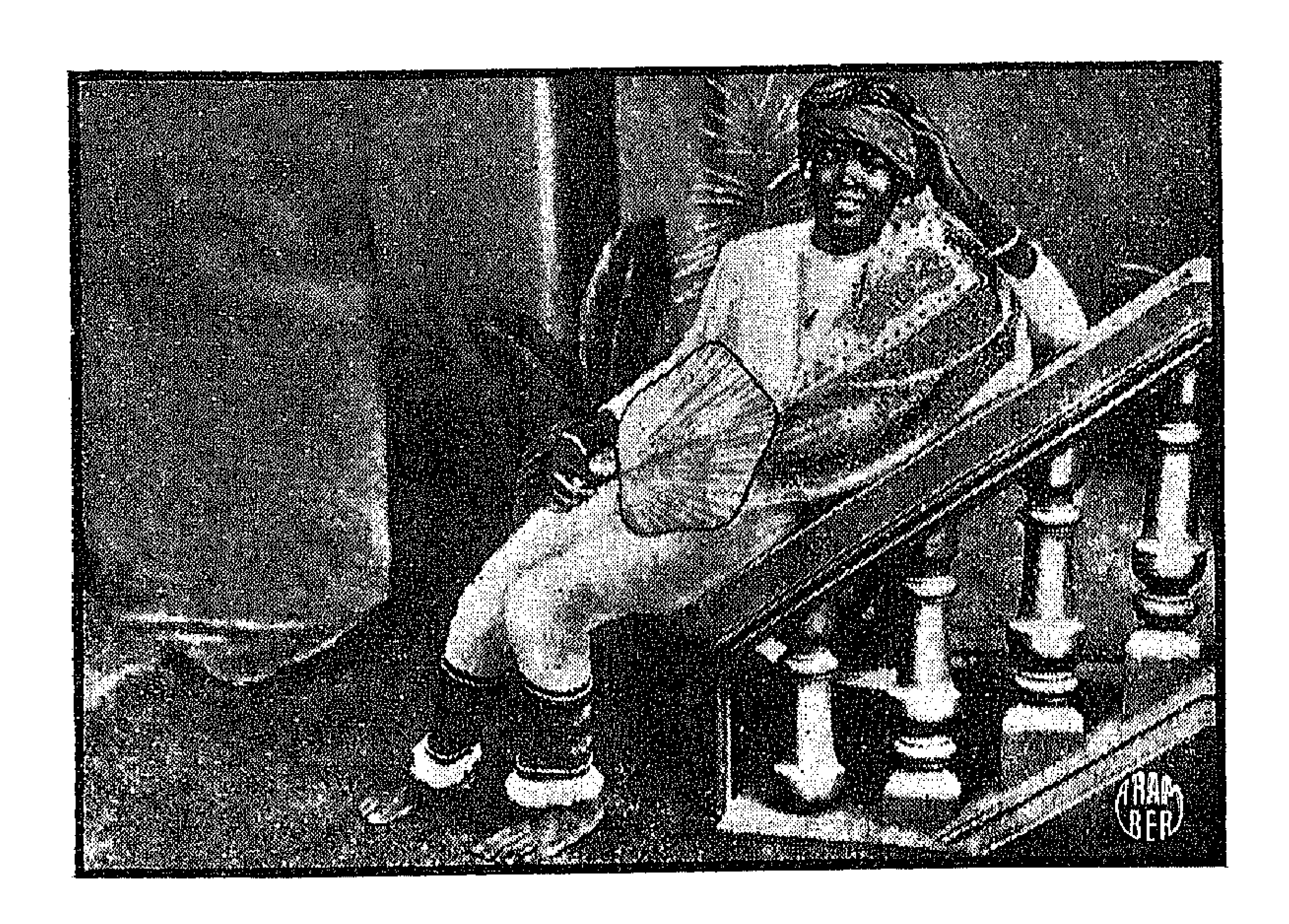


(هكذا يبدو أجناد البوليس فى شرق أفريقية كلها)

و يغمزن بأرجلهن و يغنين وتلاطم كل فتاة عصو يها ثم تعود بهما فتصدم عصوى جارتها وهكذا .

والمدينة تشهد للألمان بحسن القيام على بلدانهم وتنظيمها بدرجة تفوق أقرباءهم الانجليز ، وقد كنت أسمع من كثير ومن بينهم موظف انجليزى هناك كان يشغل وظيفة عهد سيادة الألمان ، أن الادارة اليوم اضطربت

منذ غادر الألمان البلاد فهم فى زعمه كانوا أقدر على حكمها وتتردد الاشاعة أن تانجانيقا ستعاد للالمـان . وكان جو البلاد باردا لطيفا أدفأ من أيام شتاء مصر قليلا والسماء يغشاها السحاب المتقطع ، أما صيفهم وهو موسم المطر الغزير فبعد سبتمبر حين يسقط المطر وابلا وقد حفروا له على جوانب الطرق مجارى كأنها القنوات الصغيرة والمدينة تقع جنوب خط الاستواء بسبع درجات إلا قليلا وسكانها عشرون ألفا نصفهم أفريقيون . وهى اليوم أكبر مين تانجانيقا تحتكر ٥٦٪ من تجارتها ومن الصادرات الهامة التى كنا نراها توسق فى السفن فى غرائر كبيرة البن والفول السودانى المقشور الذى يستخرج منه المرجرين والكبرا وألياف السيسال : ذاك النبات الذى يحكى الصبار الكبير أدخله الالمان أفريقية من بلاد المكسيك فانتشر خصوصا فى تانجانيقا حيث بلغ الصادر منه فى العام بنحو ١½ مليون جنيه وتقطع أوراقه من السنة الثالثة وعددها بين ٢٠ ، ٥٠ ورقة فى العام وتظل تنمو كل عام مرة وينمو العود الأوسط تعلوه جمة (شوشة) عليها البذور وتظهر الاوراق الجديدة فى أسفله ، وبعد السنة الثامنة تموت الشجرة ويبذر البذر من جديد وتغل الورقة ٢½ رطلا والفدان ٢٨٠٠ رطل سنويا وقد تبلغ اليافه المتر طولا فى لون أبيض براق والاوراق تعطن ثم تدق وتنشر الالياف على عصى فى الشمس ثم تحزم وهى خير ما يصنع منها الحبال لمتانتها وهو يفضل فى مصانع أوروبا على قنب مانلا وللنبات فضل فى أنه ينجح فى التربة الرملية ويحتمل أشد التقلبات الناخية ولا يتطلب مالا كثيرا وزراعته لاتحتاج إلى خبرة



(احدى جميلات دار السلام)

واسعة كما أنه لا يتعرض لأمراض قط و يمكن أن يستغل ويصنع فى جميع شهور السنة وأصلح الأجواء له الحارة الجافة ومن ثم الاجواء الصحية الملائمة للانسان ، فمصر تلائمه جدا ولا أدرى لم لا نشجع أنتاجه فى بلادنا رغم توافر الظروف لزراعته وحاجتنا إلى منتجاته ، وقد بلغ ثمن الطن منه سنة ١٩١٨ ٩٩ جنيها لكنه تدهور اليوم إلى ١٣ جنيها مما هدد زراعته جدا على أن الأمل فى انتعاشه كبير لأن الطلب عليه متزايد أذ يفضل قنب مانلا المزاحم له

برحنا دار السلام الثانية مساء بعد أن اضطرت الباخرة أن تنتظر علو

ماء المد ثلاث ساعات وأخذت تتمايل حتى أتت على مخارج الميناء وسط المناظر الساحرة وفى صباح اليوم التالى كان الجو جميلا مشمسا الافى سحب خفيفة منثورة لكنه مالبث أن فاجأنا باضطراب اعصارى شديد أعقبه وابل من المطر ولم يكن ذلك غريبا فأنا نعلم أن مضيق موزمبيق أحد مفاوز الاعاصير ، وكان السحاب يرسل القطرات فتتصل بماء المحيط فى شكل قاتم مخيف وفى ساعتين انكشف الجو وعاد البحر هادئا أما مهاب الرياح غالب الأيام فالجنوب والجنوب الشرقى وتلك هى الرياح التجارية تندفع وراء الشمس إلى القارات الشمالية حيث يخف الضغط ويتخلخل الهواء

الى شرق أفريقية البرتغالية : فى أقل من يوم دخلنا البحار البرتغالية وأقبلنا على خليج (Pemba) فى دائرة كبيرة ذرعها سبعة أميال فى خمسة وعند مدخله ميل ونصف تحوطها الربى الصخرية التى كادت تعرى عن النبت خصوصا فى هذا الموسم من السنة وهو موسم الجفاف وعلى مدرجات إحدى تلك الربى تقوم مجموعة من بيوت صغيرة بيضاء جديدة يشقها طريق رئيسى واحد يتلوى فوق المرتفعات والبلدة تسمى پورت أميليا أقيمت منذ خمس سنوات وينتظر لها مستقبل تجارى عظيم لأنها أصلح المنافذ الطبيعية لأرض نياسا لاند وقبيل لجزء من رودسيا الشمالية أيضا ويزمع مد خط حديدى بينهما وعندئذ تزاحم مدينة موزمبيق ، والخليج عميق متسع الداخل بحيث اذا ما أقيمت عليه الأرصفة آوى من السفن مالايحصى وأقليم نياسا الذى خلفها غنى بالزراعة والتعدين ومن غلاته السيسال



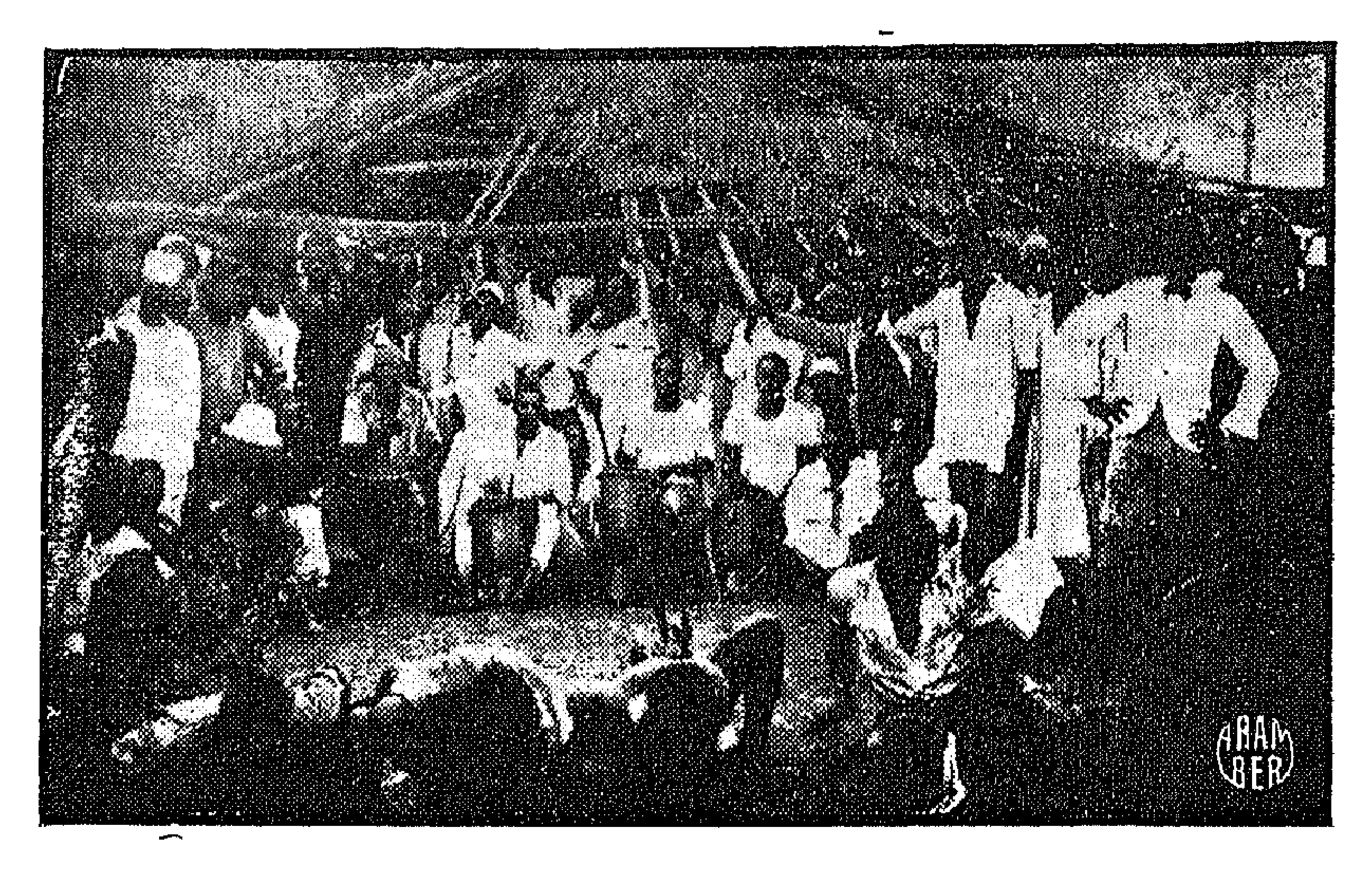
(بعض الأحياء الوطنية ـ دار السلام)

والنرجيل والقطن والطباق والذرة والحبوب الزيتية وقد ظلت الباخرة يومنا توسق من السيسال والسمسم والاقليم كثيف السكان من السود وان كان البيض به قليلاون والميناء تعد من أصح مين شرق إفريقية جوا إذ يندر بها الملاريا والحمى السوداء وذباب تسى تسى تلك التى تكثر فى سائر مين البرتغال وذلك بفضل جودة الصرف الطبيعى بسبب مرتفعاتها

الملاريا : تكاد تكون كل افريقية من رودسيا جنوباً الى أقصى السودان شمالا عرضة لهـذا المرض أبان موسم المطر وهو نتيجة بعوضة مريضة ملوثة ، وجراثيم المرض تحمل فى دم البعوضة وتنقل إلى الانسان أذا لدغته وقد تنقل من المريض إلى السليم ولحسن الحظ قلما تلدغ البعوضة فى

ضوء النهار ولذلك قل خطرها إذا اجتنب الانسان الأماكن ضعيفة الضوء نهاراً واذا طرد البعوض ليلا ، لذلك كنا نشاهد كل البيوت فى المناطق الموبوءة تحمى نوافذها وأبوابها بشباك السلك وأكبر حامل للمكروب الأهالى من السود وبخاصة أطفالهم فاذا أبعد هؤلاء عن البيوت ليلا قلت الفرصة فى أن ينقل البعوض العدوى منهم إلى غيرهم ، وكان يصف لنا الأطباء تناول خمس حبات من الكينين يومياً خصوصاً عند تناول الطعام وذلك يكفى لمنع العدوى ، وبعوض الملاريا لا ينقل بعيدا إلا بواسطة الرياح القوية ، ولما كانت المياه ضرورية لحياته لزم ردم النقائع واستئصال الشجيرات والغاب المهشم الذى يتجمع تحته الماء الراكد ، فأذا تعذر ذلك وجب رشها بالبترول وكثير من البط وصغار السمك يأكل بويضات البعوض (Larvae) بشره زائد وقيل أن سيوة فى مصر تخلصت من ذلك الوباء بنوع من السمك اسمه تاليبيا (Talipia) جلبته من فرنسا سنة ١٩٢٧ ، ويقال أن بعض أنواع الخفاش أفاد فى استئصال البعوض فى جهات من الولايات المتحدة ، واذا عنى بعلاج الملاريا زالت تماماً على أنها كثيراً ما تبقى فى الجسم مختبئة فى الطحال أو الكبد وعند ما يناسبها ضعف الجسم تظهر ثانية ، وعدم الانتظام فى علاجها مدة طويلة قد يؤدى إلى مضاعفات منها :

الحمى السوداء : التى تسبب نزول الدم القاتم مع البول ومن هنا جاء اسمها وهذا المرض أخطر من الملاريا لأنه يضعف القلب ضعفاً شديداً لذلك وجب ألا يحرك المريض وألا يجلس وتحتم أن يباشره الطبيب دائما



(رقصة اوزارامو فى شرق افريقية)

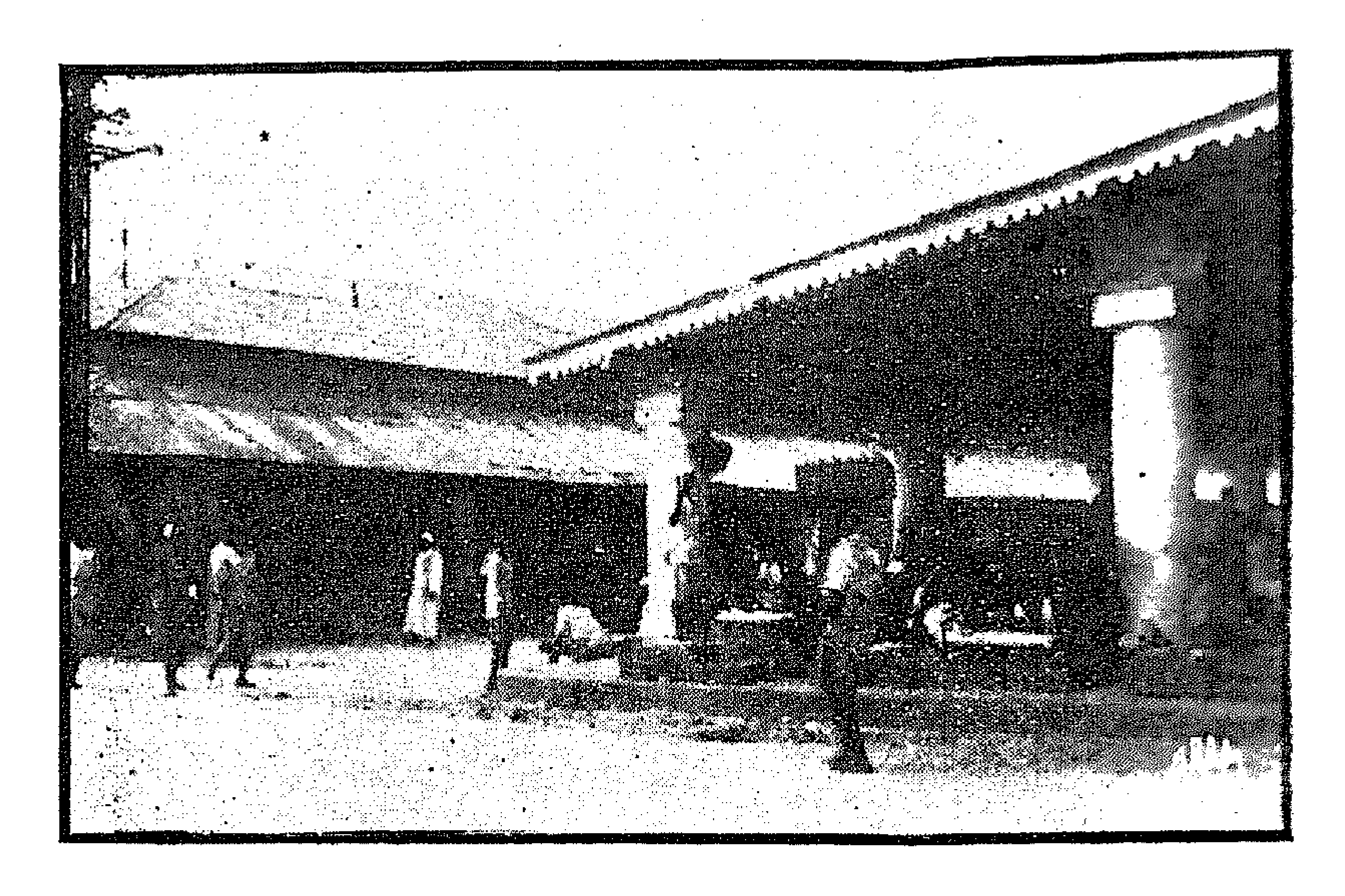
ومن الأمراض المنتشرة هناك مرض الماشية (Nagane) الذى تنقله ذبابة تسى تسى تلك التى تنتشر فى ٦٧ مليون فدان من رودسيا وحدها وتفتك بالماشية فتكا ذريعاً ومما يخفف من وطأتها أنها قلما تلدغ ليلا ولا تقارب المياه ولا تعبر الأنهار قط

لبثت باخرتنا فى پورت أميليا يوماً كاملا هاجمنا خلاله جماهير الباعة من السود كل يحمل أقفاصاً من الغاب بهـا مجاميع من طيور ذوات ألوان ساحرة ، وكان القفص يعرض بعشرة قروش والببغاء الكبير بخمسة قروش والنسناس بعشرة وذلك يؤيد كثافة الغابات موطن تلك المخلوقات

قمنا الى موزمبيق : فوصلناها فى نصف يوم فبدت جزيرة كبيرة حولها مجموعة من جزائر تكسوها الخضرة النضرة وأخذنا ندخل بين طياتها

وعلى منحدرات تلك الجزائر جميعاً تقوم المدينة، والجزيرة الرئيسية تبعد عن القارة بثلاثة أميال ، والجزائر كلها مرجانية تحفها الشعاب المتعددة وتغص بمختلف الأصداف ذات الأشكال العجيبة التى هاجمنابها جمهور الباعة . رسونا بعيداً وحملتنا الزوارق إلى المدينة ، وأول ما استرعى أنظارنا القلعة القديمة بحوائطها الحجرية الضخمة الشاهقة التى يبلغ علوها ٣٥ قدماً ، وهى تحيط بطرف من الجزيرة دخلناها وتسلقنا أسوارها التى تثقبها عيون تطل منها المدافع القديمةالثقيلة تحمل على عجل من خشب وفى وسط سقفهاحوض غائر لجمع ماء المطر الذى كان يستقى منــه الحراس ، وفى أسفلها عدة مقاصير وحجرات مظلمة بنيت سنة ١٥٠٨ بحجارة كلها نقلت من البرتغال على بعد ٨٠٠٠ ميل فى زوارق ذاك العصر وهى تتخذ اليوم سجنا ، ويفاخرالبرتغال بأن علمهم ظل يرفرف فوقها منذ أقيمت فى سنة ١٥٠٨ إلى يومنا هــذا بدون انقطاع .

خرجنانجوب المدينة فراقتنا طرقها الضيقةالملتوية رصفت بالحجر يجانبها اطاران بالأسمنت والى جانب أحدهما مجرى صغير لماء المطر الذى ينزل أبان الصيف وبخاصة فى ديسمبر و يناير ، أما البيوت فكلها من طابق واحــد وبالحجارة الثقيلة لا تكاد ترى بها من النوافذ شيئاً فهى تحكى بيوت القرون الوسطى تماماً ويخيل اليك أنهــا مجموعة سجون ممتدة وكنا نرى معدن الميكا القديمة يقوم مقام الزجاج فى بعض مناورها ، وأجملها بيت الحاكم يطل على الميناء ، والبلدة صغيرة لا يعدو ساكنوها ٧٣٦٥ نفساً منهم ٤٨٦ من



(جانب من سوق دار السلام)

البيض ، ٢٥١ من الهنود والباقون من الزنوج الذين يدين غالبهم بالاسلام ، ولهم جانب من المدينة أقاموا به أخصاصهم المربعة ذات السقوف المنحدرة بالقش والطين والقاب وكم يروقك منظر السيدات وهن يسرن فى ملاءات خفيفة من أسفل الجسد إلى وسط الصدر فى وجوه منكرة يزيدها قبحاً أن الكثير منهن يلطخن الوجه كله بعجين أبيض بحيث لا ترى منه إلا عينين براقتين وتلك آية التجمل لديهم والسيدة إذا سارت بدا تقوسها فى انتفاخ عجزها إلى الوراء وصدرها الكاعب إلى الامام فى شكل مضحك ؛ أما الطرق الرئيسية فتكادلا ترى بها مارة قط فاذا ماأطلت النظر فى الأبواب المفتحة بدا فى داخلها المظلم حانوت به بعض المعروضات الضئيلة ، والمدينة

ظلت عاصمة أملاك البرتغال زمنا طويلا والاقليم الذى خلفها خصيب بالذرة والفول (السودانى) والسمسم والتابيوكا والبن وظلت السفينة تحمل وسقها من الفول والسمسم والكبرا ، ويزمع مد خط حديدى منها إلى نياسالاند التى تعد احدى منافذها الطبيعية وهى وأن قلت أهميتها اليوم عن ذى قبل ألا أنها هامة من الوجهة التجارية ففيها تجمع غلات البلاد المجاورة بواسطة خفاف السفن التى يمتلكها الأعراب وتسمى (داو Dhows) ومن هنا تصدره إلى الخارج . قمنا نشق بوغاز موزمبيق إلى :

بيرا : فوصلناها فى يوم واحد ، وكان جو يومنا مضطربا عاصفا مطيراً وقبل أن تبدو بيرا بساعات تغير لون ماء المحيط فاضحى عكراً كأنه ماء النيل أبان الفيضان وذلك من أثر نهر الزمبيزى الراخر ورغم بعد بيرا عن مصبه بنحو مائة ميل سبب ماؤه حدوث تيارات قاسية تجتاح المدينة الى ذلك فان المدينة تقع قرب مصب نهرين صغيرين (Pungwee من الشمال و Buzi من الجنوب) ، ولقد انتظرنا دليل الميناء ونحن نبعد عنها بنحو ١٨ ميلا مما يدل على أن مدخل الميناء ضحل قايل الغور وقد عانينا كثيراً ونحن نرسو الى رصيف الميناء ولما غاص الماء أبان الجزر هوت السفينة حتى استقرت على الأوحال فأدهشنى ذلك لكن علمت أن السفن مبسوطة من أسفلها وليست مثلثة كما كنت أعتقد فلاضير أن تستقر السفينة على قاعها ، وفى الأصيل علا المد فجاوز ١٨ قدما وهذا المد العالى الذى يدرك المدينة هو سر شهرتها التجارية وان كانت الجرافات



(مزارع السيسال فى تانجانيقا)

دائبة على تطهيرها من الرواسب ، دخلنا المدينة فبدأنا نسمع البرتغالية يتكلمها غالب البيض ، أما لغة السود فلهجة أخرى تقرب من السواحلية وقد لاحظنا فى وجوه السود تغيرا فاللون أسود والشعر أمعن فى التجعد والقامات أخذت فى الطول ، والبيوت مبعثرة فى غير نظام وكلها من طابق واحد إلا شارع هو آية فى التنسيق له أرصفة بالاسمنت وعلى الجانبين تقوم الاشجار ومجار للمطر تطمر بالرمل ثم أطار ضيق الراجلين وأجمل ما به بيوت فى فلات أنيقة تقوم على عمد أوشباك من قوائم الاسمنت والآجر وعليها طابق واحد منحدر السقوف والكل تغشاها شباك السلك الدقيق اتقاء البعوض ذلك لأن المدينة تقع فى بقعة وطيئة تكثر من حولها الاوحال والمناقع ويؤمها بعوض

الملاريا وكثير من البيوت يبنى بألواح الصاج المجزع أو من الخشب وبها خط لسيارات الامنيبوس وقد كان بها ترام لكنه أوقف لقلة دخله والهنود هنا أقل ظهورا منهم فى البلدان السابقة والبوليس من الزنوج يلبسون فوق الرأس قلنسوة ممطوطة توضع على جانب من الرأس وهم حفاة الأقدام .

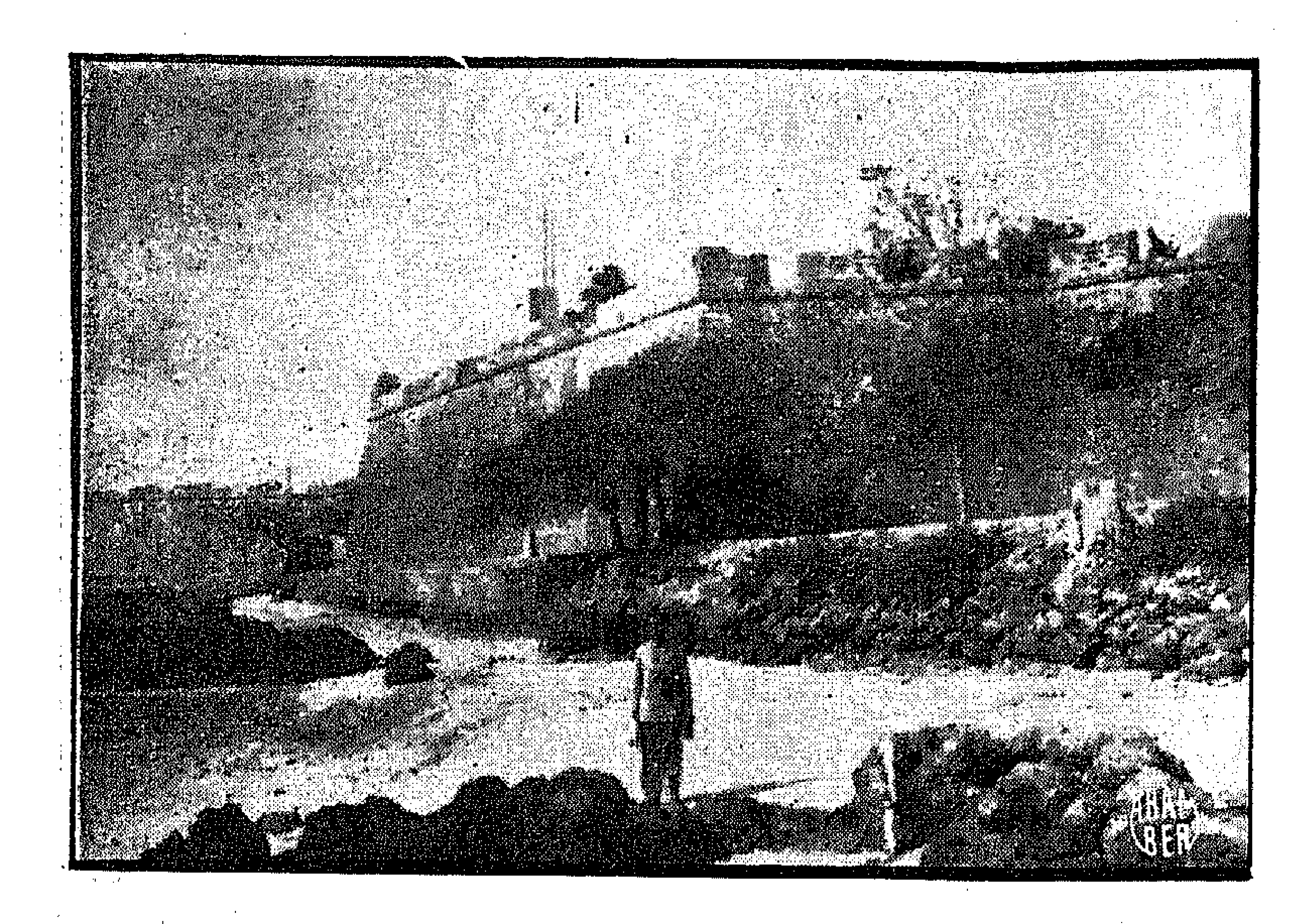
والغذاء القومى هنا مزيج من مدشوش الذرة يطبخ كالأرز المسلوق وقد تقطع عليه شظايا السمك نيء أو مقدد و يأكله القوم بشكل تعافه الأعين ويسمونه (Milipapa) وسكان المدينة حول ١٦ ألفاً منهم فوق الألفين من البيض وأقل من ذلك من الهنود وكثير من السود يقومون بزارعة الأراضى الداخلية خصوصاً التى تنتج المطاط والقصب والذرة ، ولاتزال طريقة البرتغال سائدة وهى أن يمتلكوا الأرض جميعها ويكلف السود بفلحها لكنهم بدأوا يرون أن الطريقة الأنجليزية فى تمليك الأراضى للأهلين وتكليفهم بخدمتها مقابل ضرائب يدفعونها هى خير وأعود بالنفع وميناء بيرا عظيمة ، حركتها التجارية لاتخبو ولا يقل عدد السفن التى تدخلها عن ٦٥٠ حمولتها فوق ثلاثة ملايين طن ، وهى تعد مفتاح رودسيا كلها تلك البلاد الشاسعة عديمة السواحل وتصلها بسلزبرج عاصمة رودسيا سكة حديدية ، ونهر زمبيزى يقسم رودسيا قسمين الشمالية الأقرب للفطرة والهمجية والجنوبية الأكثر عمرانا ، ولعل رودسيا أقدم بلاد لها تاريخ مدون فى أفريقية بعد مصر فأهلها الأصليون كانوا من البشمن الذين تركوا آثارهم فى رسومهم داخل بعض المغارات هناك ولسوء حظهم كانت بلادهم



(پورت أميليا « شرق أفريقية البرتغالية »)

مفرطة فى الغنى المعدنى خصوصاً الذهب ، حتى غزا البلاد فى عهد سليمان الحكيم شعب من الاعراب يسمون عرب سبأ أو شيبا ، وهم فرع من الفينقيين تملكوا مناجم الذهب واستخرجوه وأغرقوا به العالم حتى لم يصبح للفضة فى عهد سليمان من قيمة تذكر بجانب الذهب ، وهؤلاء تركوا من آثارهم هناك ما هو جدير بالذكر بين معابد ومناجم وقلاع ولعل أفخرها البيوت الصخرية فى زمباوى فى مقاطعة ڤكتوريا من جنوب رودسيا قبالة ثغر بيرا مباشرة وهى بقايا مدنية عريقة حقاً كان أهلها يتعبدون فى الهيكل الاهليلجى الذى كان يحوطه سور من الجرانيت علوه ثلاثون قدما وبه برج مخروطى شامخ ، ويظهر أن السبأيون سادوا أغلب بلاد رودسيا على سعتها بين ٢٠٠٠ ق م،

١٠٠٠ بعد الميلاد حتى غلبهم جماعة البانتو من الشمال ، ولما أغار البرتغال من الشاطىء سنة ١٤٨٥ دخلوا البلاد عن طريق الزمبيزى لكنهم لم يتمكنوا من البقاء وهزموا سنة ١٧٦٠ وساد الهمج هناك فوق قرن من الزمان حتى كان عصر المستكشفين أمثال لفنجستون وسسل رودس ، والبلاد غنية بالمعادن جداً فلقد انتجت على أيدى البيض مائة مليون جنيه من المعادن ثلاثة أرباعها ذهباً — فهى ثالثة جهات الامبراطورية البريطانية فى انتاجه والنحاس بها كثير و بعض مناجم رودسيا الشمالية تنتج سبعة آلاف طن يومياً ومجموع ما فى أرضها ٥٠٠ مليون طن من النحاس ، وقد كانت باخرتنا تحمل وسقاً منه فى كتل فطيرة طوال اقامتنا فى بيرا ، ولعل أفخر مناظر رودسيا شلال فكتوريا على الزمبيزى وعنده تعبر سكة الحديد النهر فى أعلى قنطرة فى الدنيا وليس فى طوق انسان أن يصور روعته ، تصور بحراً زاخراً من الماء فى عرض ميل يهوى كله هوة غورها ٤٥٠ قدما وفى قرارها يختنق كل هذا إلى مائة ياردة و يعلو رذاذ الماء ٧٠٠ قدم فى الجو و يسمع دوى الماء على بعد عشرة أميال و يزيد المنظر سحراً كثرة أقواس السماء التى تنعكس بألوانها المتحركة فى ضوء الشمس نهاراً والقمر ليلا ، وفى اليوم المطير الهادىء يصعد البخار فى خمسة أعمدة رأسية تسمى بالأصابع الخمسة أو (بالدخان الراعد) وهذه يراها المقبل على بعد ٢٥ ميلا وأطلق العرب على الشلال — آخر الدنيا — ويخال البعض أن الشلال حديث العهد جداً ، وأنه منذ ثلاثة قرون فقط كان الزمبيزى يجرى إلى كالاهارى و يغذى أخوارها ومناقعها التى يرى



(أمام قلعة موزمبيق و يفاخر البرتغال ان علمهم ظل يرفرف عليها منذ حلوها)

ماؤها اليوم آسنا مالحا فلما تحول النهر هكذا جفف أقليم كالاهارى وزاد مناخه تطرفا ، وللأستاذ شفارتز مشروع هائل به يعيد صلة الزمبيزى بتلك المجارى القديمة فيملأها ماء هى وسائر بحيرات كالاهارى فيعود المكان خصبه و بذلك يمكن رى عشرة ملايين من الأفدنة . وأهل روديسيا يعيشون على فطرتهم وهم قبائل عدة وتتعدد لهجاتهم و يعبدون الجن ، ولعل أعجب قبائلهم قبيلة (أواتوا) الذين يعيشون فوق مناقع لوكانجا وتقوم أخصاصهم من الغاب والطين وسط الماء و يتنقلون فى زوارق نحيلة أقدامهم مكفوفة كأقدام الوز وهى فى الحقيقة رخوة لدرجة تجعلهم لا يكادون يطيقون الوقوف على اليابسة لذلك حق عليهم التسمية بالانسان المائى وهناك قبيلة شبيهة

بهم حول مناقع بنجويلو وتسمى قبائل (وونجا) شعارهم التمساح وقبائلهم لا تزال تتعقب أنسابها عن طريق الام

و بعض النحاس الغفل الذى كان يوسق فى السفن ونحن وقوف فى بيرا يفد من (كاتانجا) فى جنوب الكنغو البلجيكية وتلك مقاطعة أثبت البحث الحديث أنها غنية جداً بالمعادن وبخاصة النحاس والراديوم ففى سنة ١٩٢٢ كشف الراديوم مختلطا بمعدن اليورانيوم ويصدر الخام إلى بلجيكا ونسبة الراديوم كبيرة جداً ففى أمريكا أغنى بلاد الدنيا إلى سنة ١٩٢٢ كان يستخلص من طن الخام ٢٫٥٧ ملليجرام من الراديوم لكن الطن فى كاتانجا ينتج ٢٢٫٧ ملليجرام و يقدر ثمن الجرام بنحو ١٢٠٠٠ جنيه ولذلك يقدر ثمن الطن من الخام بنحو ٣٠٠٠ جنيه والبوليس يحرس المناجم فى كاتانجا اليوم وكأنها مناجم الماس وقد كانت أمريكا تنتج أربعة أخماس محصول الدنيا لكن ستزاحمها كاتانجا تماماً ومجموع أنتاج الراديوم الآن ثلاثون جراماً وثروة هذا الأقليم أخذت تجتذب سكة حديد الكاب والقاهرة إليها فبعد أن كانت تنتحى ناحية شرقية انعرج الخط إلى الكنغو ، وأرض كاتانجا مرتفعة تلائم سكنى الجنس الأبيض وقد فكر البلجيكيون أبان الحرب الكبرى لما أن كادت ألمانيا تمحو بلادهم من أوروبا أن يتخذوا أمثال تلك المقاطعة من الكنغو وطنهم الثانى وأن ينتقلوا إليها تحت أمير وطنى بلجيكى

قمنا عصر الجمعة إلى الجنوب و بعد ساعتين بدت على بعد إلى يميننا قرية سوفالا التاريخية القديمة التى كانت آخر محاط العرب قديماً ، ويزعم



(مبانى موزمبيق تبدو كأنها سجون « طره »)

بعض أنها الفاصل بين الشرق والغرب إذ النفوذ الغربى سائد بعد ذلك إلى أقصى أفريقية جنوباً ، أما فى كل ماسبق من سواحل أفريقية فالأثر العربى لايزال سائداً رغم خروج تلك البلاد من أيدى العرب وفى الصباح بدت :

لورنزوماركوز : فى خليج عظيم الامتداد يناهز طوله ٢٦ ميلا بين شواطىء رملية مشرفة لونها أحمر تكسو أغلبها الأعشاب وقد سماه البرتغاليون خليج (دلاجوا) ومعناه من (جوا) لأنه اتخذ مرسى لسفنهم الوافدة من الهند صوب البرتغال ، أما السفن التي كانت تفد من البرتغال إلى جوا فكانت ترسو على خليج (الجوا) ومعناه (إلى جوا) وهو اليوم مكان ثغر پورت اليزبث فى الكاب .

نزلنا المدينة فهالنا ما رأيناه من مبالغة فى التنسيق والنظافة، جميع الطرق رحبة تتوسطها الماشى ذات الأشجار و بجانبها أطاران عريضان أحدهما يرصف بالأسمنت و بين آونة وأخرى كنا نمر بمتنزه صغير أنيق تزينه الجواسق الخشبية سامقة السقوف وهذه يتخذها القوم مقاهى ومشارب للشاى تحوطها أرصفة من الودع الملون وجزء من المدينة مقام على منخفضات الشواطىء أما غالب الأحياء الممتازة فتبنى فوق الربى من خلفها وتمتد الشوارع بين هذا وذاك فتصعد بانحدار قاس وأنت تكشف من طرفها المرتفع المدينة كلها والخليج الرائع من دونك والبيوت كلها (ثلاث) من طابق واحد هى آية فى النظافة والجمال ، و يتوسط المدينة سوقها فى بناء فخم يحوطه متنزه جميل تقوم على أركانه الاربعة الجواسق الانيقة ولعل تلك الجواسق أظهر ما يميز المدينة ، دخلنا السوق فى باكورة الصباح فكان القوم من السود نساء ورجالا يفترشون سلعهم و بخاصة مواد الغذاء والفاكهة على مناضد من حجر وتسمع جلبتهم وهم يساومون الباعة و بخاصة النساء بصدورهن البارزة وأعجازهن المنتفخة وعلى ظهورهن يربطن أطفالهن وكأنهم صغار القردة وكانت تسترعى نظرى رءوسهم بشعرها الفلفلى وناصيتها المدببة وجبهتها المشطورة المتحدرة ومن أفخر مبانى المدينة محطة سكة الحديد التى تعد من أجمل محاط أفريقية كذلك حديقة النبات التى تغص بفصائل المناطق الحارة وهى تقام على مدرجات بعضها فوق بعض وفى جانب صغير منها حديقة للحيوان وفى طرفها الآخر متحف جميل حوى مجموعة من



(أشرف على الحى الوطنى المكتظ — موزمبيق)

الحيوان المحنط المحشو بكامل حجمه تحوطه نماذج من بيئته و يغلب أن ترى الحيوان ممسكا بفريسته

ومن أعجب ما رأيت أفعى تمسك بقرد صغير ، وأخرى تمسك بغزال التفت حول جسمه وهى تمتص الدم من رأسه الى ذلك مجموعة من الأسماك المحنطة و بعض الحشرات ومن بينها ذبابة تسى‌تسى فى حجم يزيد قليلا على الذبابة العادية وأجنحتها مجزعة كاوراق الشجر وهى اذا لدغت انسانا بدت عليه عوارض الجنون ثم يستلقى و بعد شهور قليلة يصبح جسمه عظاما بالية وفى الطابق العلوى بعض المخلفات الحربية لهمج أفريقية يوم فتحها البرتغال، والدخول للمتحف بغير أجر وهناك سجل دونا فيه أسماءنا

وفى ناحية متطرفة من المدينة نسق شاطىء البحر فى مدرجات وطرق ملتوية وجواسق وحمامات هى آية فى الابداع ، وتسمى ناحية پولانا وكم يعجبك منظر الشاطىء الوطىء ومن خلفه تقوم شرفة عالية من الرمل الاحمر تتخلله منابت العشب البرى ، وحقا لقد أكبرت تلك المدينة فى نظرى من شأن جماعة البرتغال وأيدت حسن ذوقهم ، أما فى المساء فالمدينة مظلمة هادئة إلا فى مصابيح الكهرباء واشارات المرور وهذه على أحدث نظم فالمصباح معلق وسط مفارق الطرق و يتعاقب اللون من الاحمر (لايقاف المرور) الى الاصفر (للاستعداد للسير) الى الاخضر (لفتح الطرق) فى فترات منتظمة كل ذلك يتحرك بنفسه بدون جندى يباشره (اوتوماتيكى)

وسكان المدينة ٣٧ ألفا ر بعهم من البيض والمسلمون هناك قليلون جداً وليس بالمدينة مساجد قط و يظهر أن جمعيات التبشير هناك ناشطة لأنى كنت أرى جماهير السود يمسكون بأناجيلهم تلف فى مناديل من حرير وهم يسيرون زرافات إلى الكنائس يوم الأحد ؛ والمدينة عاصمة شرق أفريقية البرتغالية أما بيرا فعاصمة أملاك الشركة التجارية البرتغالية وكل منهما له حكومته فهذه تديرها حكومة البرتغال رأساً أما منطقة بيرا فتديرها الشركة ولكل نقودها الورقية وطوابع للبريد تغاير ما للأخرى حتى أنى لم أجد هنا من يقبل نقود بيرا وكذلك لم أستطع وضع طوابع شريتها من بيرا على خطاباتى هنا ، وقيل أن الشركة ستسلم بلادها للحكومة بعد ست سنوات ، ولهجات السود هنا متعددة فأهل بيرا لا يفهمون أهل لورنزومار كوز على أنها من لهجات البانتو



(الى جانب احدى حسان موزمبيق وقد كست وجهها بالعجين تجملا)

البانتو : هم جميع السود من جنوب خط الاستواء الى حدود جنوب أفريقية لغاتهم وإن احتلفت لهجاتها إلا أنها ترجع إلى أصل مشترك والبانتو ليسوا سكان البلاد الاصليين بل زحفوا من الشمال ، فريق من الشمال الشرقى وهم أخف سواداً ويسمون بالشعوب النيلية التى دخلهم الدم الحامى ، ولما كان الدم الحامى هو الذى ميز دم البانتو عن السود وكان الحاميون

شعبة من الشركس أقرباء الاوروبيين قال البعض بأن البانتو أقرب الى الجنس الابيض منهم الى الاصفر أو الأسود أو الاحمر

وفريق أسود وفد من جانب الكنغو ، والفريقان تقدما من البحيرات جنوبا وبعضهم زحف ناحية كلاهاري والبعض الى الجنوب الشرقى وكانوا أكثر غلبة وقوة فأسسوا امبراطورية مونوموتابا فى القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر غزاهم فريق آخر أشد شراسة وحل ناتال وتبع هؤلاء قبائل (باروتسى) ضخام الاجسام فى لون اسود نحاسى وشعر جعد ولحى نادرة الشعر وأنوف فطساء ، وفى القرن الثامن عشر الباڤندا والباكوينا الى الاورنج والدمارا الى جنوب غرب أفريقيه ، وكل قبيلة كانت تحمل اسم رئيسها مسبوقا بكلمة آما Ama بمعنى الشعب أو الناس .

والبانتو عموما لهم نظام قبائلى تدعمه أسس دينية وكل قبيلة تقدس زعيمها وسلطته زمن الحرب مطلقة وزمن السلم تتوقف على قوة أخلاقه ومتانة عادات القبيلة وتقاليدها التى يفسرها للناس مستشاروه (Indunas) الذين يجب عليه أن يعمل بمعاونتهم ويلى هؤلاء مقاما مجلس القبيلة وغالبهم من أقرباء الزعيم لأنهم يقدسون البيت المالك وفروعه

وأغنياء الزعماء يتزوجون أكثر من سيدة والزوجة الاولى تسمى زوجة اليد اليمنى والثانية زوجة اليد اليسرى وهناك الزوجة العظمى وابنها وارث الملك وهذه الزوجة تأتى متأخرة فى العادة ، ولذلك غالب أن يتولى الوارث الملك طفلا تحت وصاية عمه أو أحد أقربائه ، وقد كان هذا من



(بيرا « شرق افريقية البرتغالية » بيوتها مبعثرة فى غير نظام)

أسباب كثرة المنازعات خصوصا عند ما يبلغ الصبى الرشد و يتسلم مهام الملك أما أولاد الزوجتين اليمنى واليسرى فيعطون رجالا وقطعانا ليؤلفوا عشائر جديدة تنضم للقبيلة ولذلك صعب على الاوروبيين هناك أن يقفوا على مقر السلطة وصاحب النفوذ الحقيقى منهم فقد يمضون معاهدة مع رئيس و يظهر لهم أن الباقين ليسوا مرتبطين بها لاهم ولا ورثته بعد موته ، وكان يوقف استبداد الزعيم برعاياه سهولة نظام التبنى والتحول من عشيرة لأخرى فان استبد هجروه وانحازوا الى رئيس غيره والرؤساء فى الغالب عادلون ، ولهم محاكم وقضاة ويسمحون للمتهم بالدفاع والاستئناف وكل عقوباتهم تنفذ (بالكى) بالحديد الذى يسخن لدرجة الاحمرار وعند بعضهم يحول على

الطبيب الساحر ليشتم فيه رائحة الاجرام ويلصق به التهمة على أن أغلب العقوبات تنحصر فى شيئين الاعدام أو الغرامة التى تدفع ماشية ، أما السجن فغير معروف بين قوم يقطنون بيوتاً واهنة

وكان عقاب السحرة الموت واغتصاب أملاكهم لأنهم ارتكبوا جرماً سياسيا ودينيا ، ويعتقدون فى إله واحد يسمونه (امكولونكولو Umkulunkulo) هوالذى خلق الناس وكل شىء حى من الطين وسلخه من عود الغاب وكانوا يرون فى هذا الإله أبا أشبه بآدم عندنا منه بالله ويحوط كل هذا عالم للأرواح الطيب منهـا يجب أن نسعى لنتصل بها والخبيث يجب الابتعاد عنها وهؤلاء هم الذين يتصل السحرة بهم ليلحقوا بالانسان ضرراً أو بالماشية والمحاصيل

وكان من وظيفة طبيب السحر أن يشتم هؤلاء ، وأغلب الشبهات كانت تحوم حول المفرطين فى الغنى ، وقانون القبيلة كان يحفظ فى ذاكرة الساسة المحنكين ، (أندونا) أما الكتابة فلم تكن في لغتهم وكلما كان الرئيس لسنا فصيحا قدره الجميع وحاولوا النقل عنه وتكثر بينهم المناظرات ، التى هى فى أوروبا أساس البرلمانات وللنساء هناك — عكس أوروبا — قدرة مدهشة على استماع تلك المناظرات ، ولذلك كان من نصيب المرة عند البانتو أن تزيد فى ثروة اللغة من ناحية التعابير الموسيقية الجذابة ولكى يجتذب النساء ذكر اسماء الذكور من أقرباء أزواجهن كان لزاماعليهن أن يخترعن كلمات جديدة ، واليوم نرى بين نساء الزولو — أشد قبائل أفريقية



(البانتو يأكلون « الميلييابا » من مدشوش الذرة ونثير السمك)

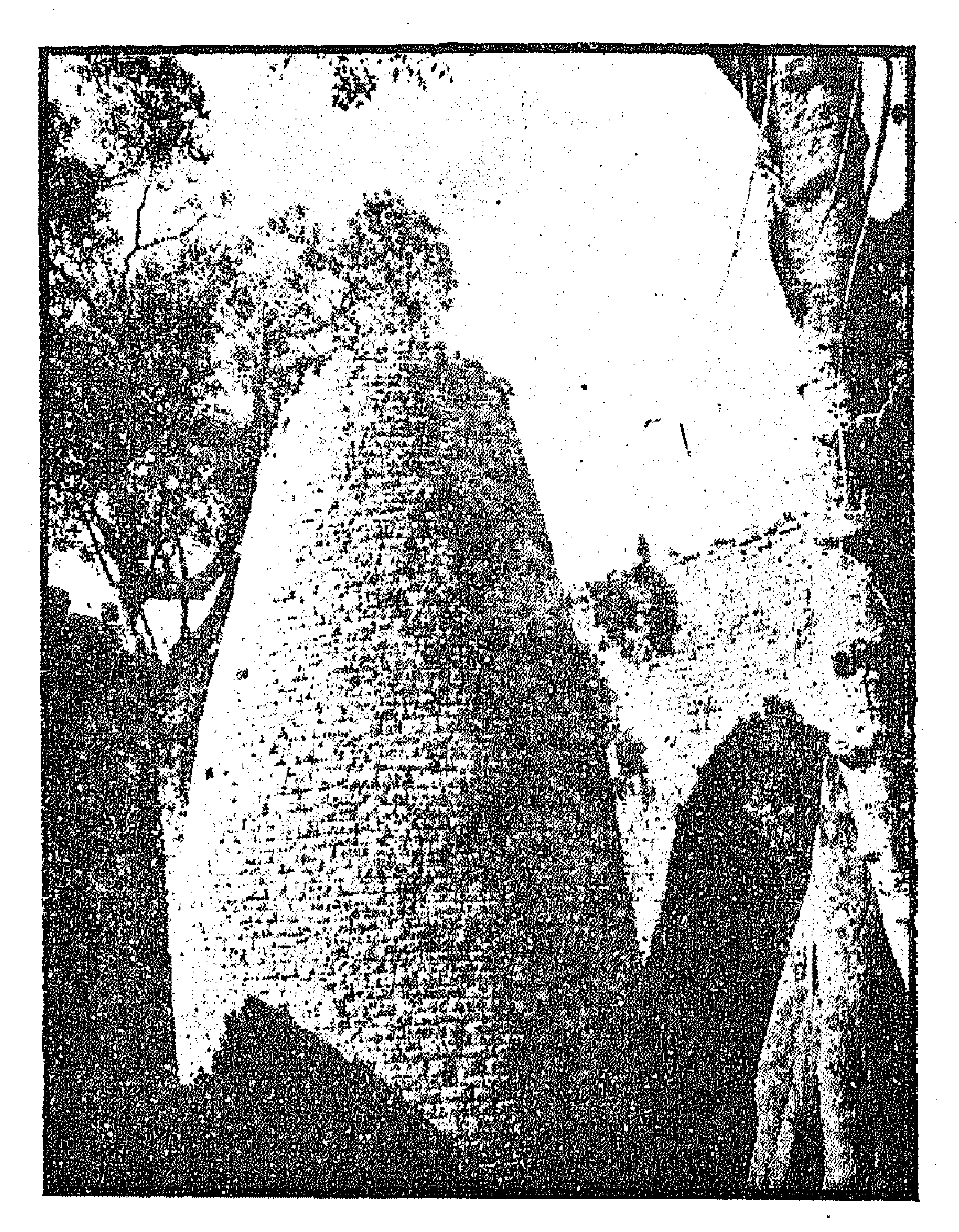
رجعية — لغة خاصة بهن مجموع كلماتها نحو خمسة آلاف كلمة

ولهجات البانتو ٢٧٤ تمتاز كلها بكثرة التعابير وبأن أواخر كلماتها متحرك فى الغالب وبأن أوائل الكلمات متحدة الحروف مما يجعلها كلها متشابهة متوافقة النغم على أن بعض لهجاتها لا تخلو من التهتهة وضروب اللكنة التى سرت اليهم من لغة الهوتنتوت

والبانتو من الناحية الاقتصادية رعاة ماشية يمارسون الزراعة كعمل ثانوى واعداد الاطعمة والشراب المسكر وزرع الحبوب وفلح الارض وتعهد الحدائق من نصيب المرأة أما رعاية الماشية فعمل الرجال ، والماشية ذات القرون ثروة القبيلة ومفخرتها ، ولذلك قدسوا الماشية وأقاموا بيت

الماشية فى الوسط ومن حولها بيوتهم ، واذا أرادوا الاتصال بالموتى سلخوا ثوراً حيا وسط بيت الماشية يمثل القبيلة وآخر يمثل العدو والذى يظل حيا مدة أطول يدلهم على مبلغ نجاحهم أو فشلهم فى الحرب المقبلة كذلك كانت تدفع الغرامات والتعويضات ماشية ، وشعر ذنب نوع من الماشية خير علاج للامراض لديهم

والماشية هى خير غنم فى الحروب وبها يدفع المهر (Lobala) الذى تفاخر به الزوجة والذى يعدونه سر انتاج الذرية ، اذ لولا الماشية لأصبح الاولاد غير شرعيين ! وحيازة الاراضي أساسية لديهم فالارض والرجال دعامة القبيلة ، والبيت الاعظم (كرال Kraal) للزعيم فى الوسط وحوله تقوم البيوت الاخرى وحول هذه جميعا مساحات الارض المملوكة لهم ، وقد تتداخل فى أملاك القبائل الأخرى فان تنازعوا على أرض كان السيف هو الحكم فمن هزم خسر أرضه وقد تستأصل القبيلة كلها وتضيع أرضها والأرض ملك القبيلة كلها ، وليس من حق الزعيم أن يبيعها أو يهبها ، وهنا موضع خلاف شديد بينهم و بين نزلاء الاوروبيين الذين يتقيدون بالعقود المكتوبة أما البانتو فلا يعرفون للعقود قيمة فليست الارض لديهم هى الهامة بل الناس الذين فوقها وكل فرد من القبيلة بحكم نشأته فوق الارض له الحق فى هوائها ومائها وعشبها وحطبها وحيوانها ولذلك فأن هؤلاء إذا باعوا الارض للنزلاء كان معنى البيع لديهم أنهم يمنحون بعض الامتيازات التى لأبنائهم على تلك الارض مقابل ثمن من الماشية أو الضأن أو الأسلحة وكان معنى

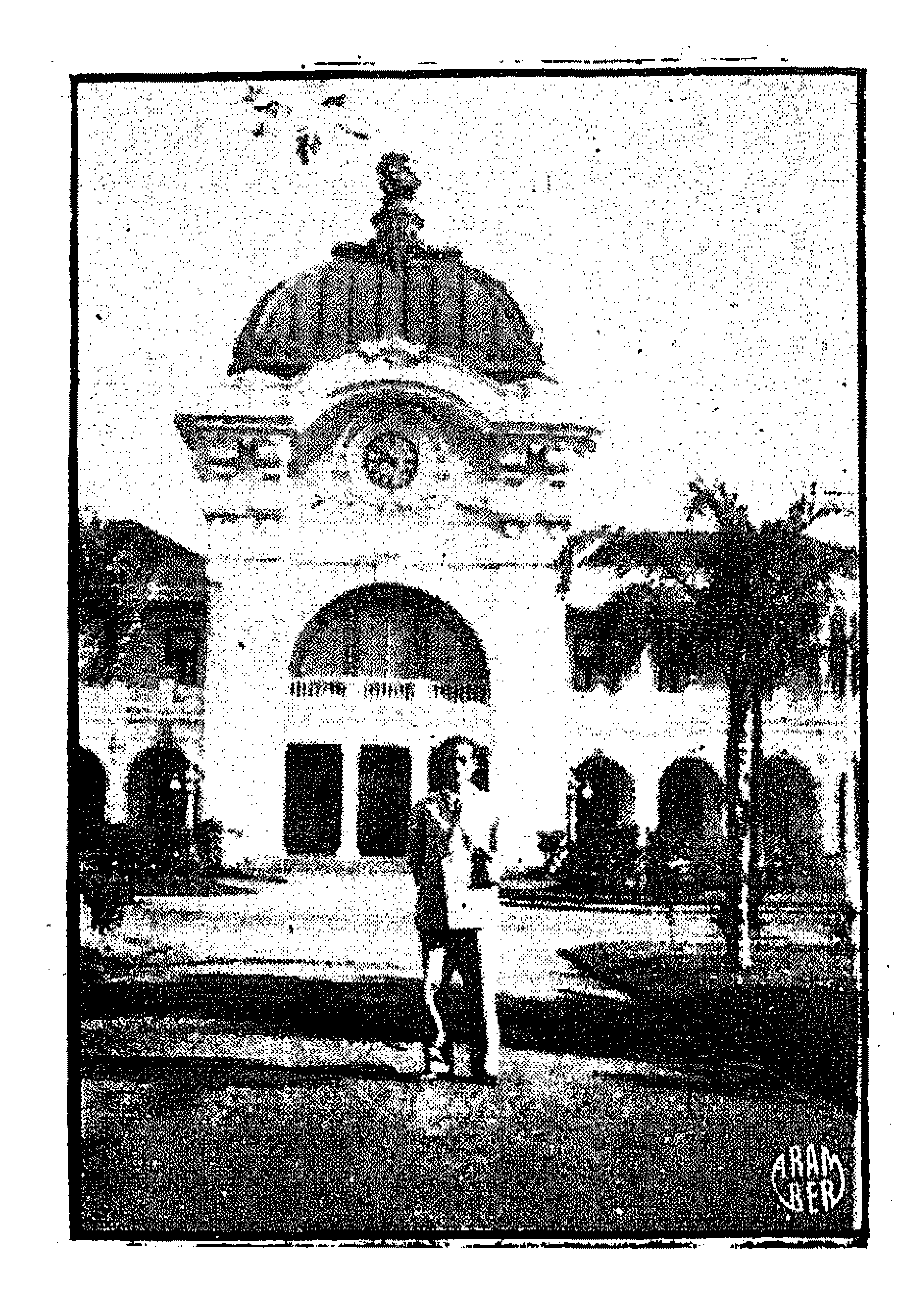


(أحد أبراج زمبابوى مقر كنوز سليمان الحكيم)

ذلك فى نظر الزعيم أن النزلاء أصبحوا أتباعه ! ومثـل تلك النزعات والافـكار المتناقضة أدت الى كثير من الارتباك بين الفريقين وجرت إلى الحروب التى طالما خاضها البيض مع الـكفرة فى جنوب أفريقية ، والبانتو عامل من العمال الذين تعوزهم المهارة والصبر التى اشتهر بها أهل الشرق ،

وهو خامل بفطرته لأن حاجياته قليلة ويمكن الحصول عليها بسهولة من الغابات وقنص الحيوان لذلك فهو يميل إلى الرعاية أكثر من الزراعة التى يقع عبؤها على المرأة ، ورغم أحتكاكهم بالجنس الأبيض فانك اذا زرت مساكنهم (تسمى كرال) بدت لك فطرتهم فهم لا يعبأون بالكماليات والمسرات وهم قادرون على سد حاجاتهم القليلة وعدم الاهتمام بالراحة التى نهتم لها نحن كثيرا و يدهشك عدم شعورهم بالمسئولية العائلية تلك التى تقلق بالنا نحن كثيرا وهم يملكون الأرض على طريقة المشاع ، ومع أنهم ليس فى مقدورهم انماء الثروة فهم لا يسعون إلى ذلك قط إلا أن الفقر ليس معروفا لديهم فكل أفراد القبيلة متساوون لا يتصدق أحدهم على غيره لان المال حق للجميع إلى ذلك مورد الأب من مهور بناته ، كل ذلك يشجع البانتو أن يعيشوا على فطرتهم وأن ينصرفوا عن العمل .

ميناء لورنز وماركوز : والميناء مزودة بأحدث الوسائل وأوفاها من أرصفة وروافع وسكك حديدية ، وهناك رافعة للفحم تستطيع تفريغ ٨٠٠ طن فى الساعة يندر وجود أمثالها وهى تجاب الفحم من الترنسفال إذ تتصل بها بخط حديدى فهى أقرب المنافذ لمعادن الترنسفال وذهب الراند أغنى مناجم الأرض جميعاً إلى ذلك فهى تصدر فاكهة جنوب أفريقية ، وقد لبثت باخرتنا توسق من أقفاص التفاح والبرتقال ، وقد أعد لها مخازن ذات مثالج على الميناء ، وتقارب متاجر الثغر مليون طن فى العام غالبها من الترنسفال :

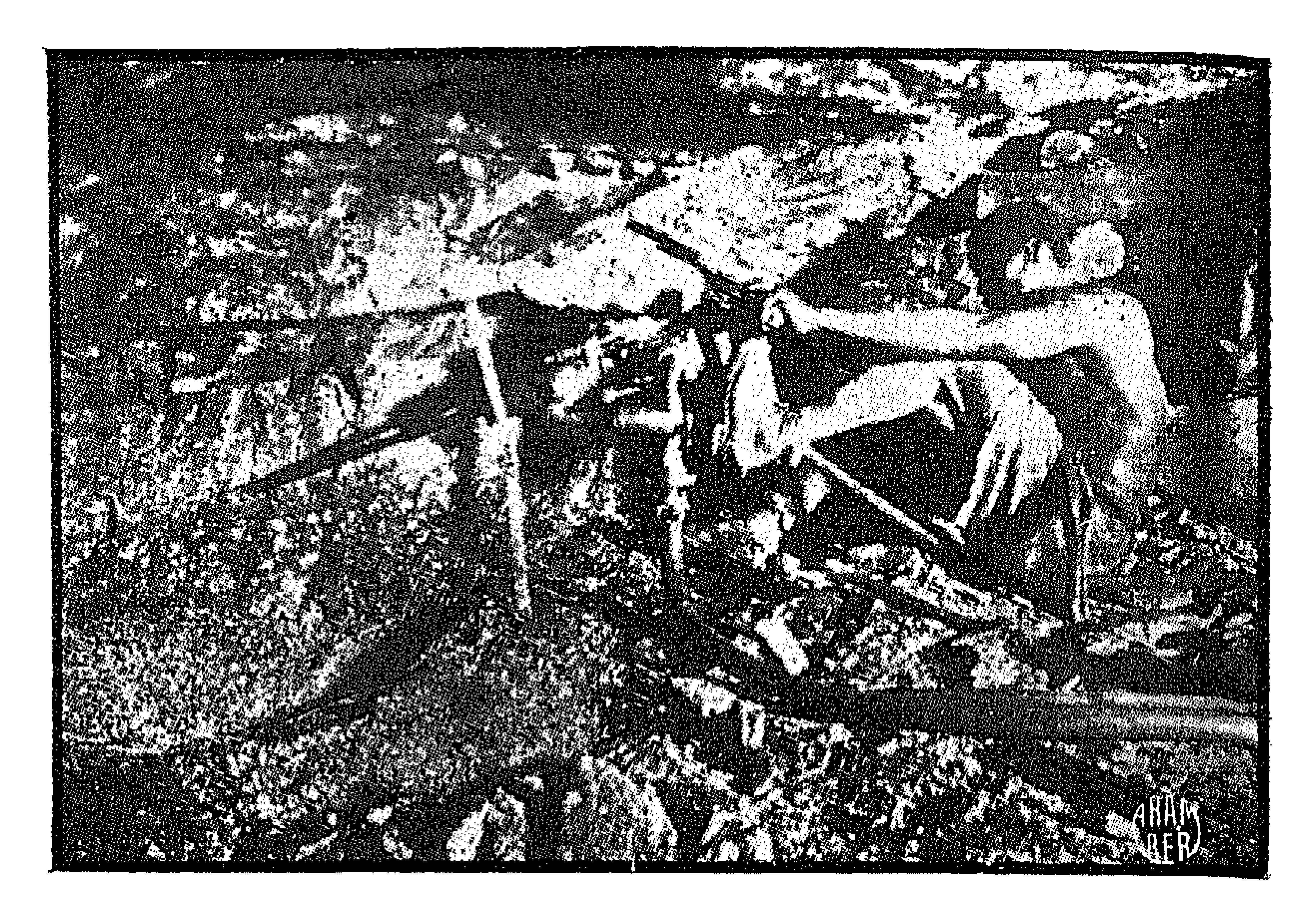


(أمام محطة لورنزو ماركوز البرتغالية)

أرض الذهب : حق للعالم أن يسمى بلاد الترنسفال بأرض الذهب ، فقد زاد مجموع الذهب الذى استخرج منها رغم صغر مساحتها على ألف مليون جنيه فى نحو أربعين عاما وأغنى بقاعها الراند الذى يغل من الذهب أربعين مليون جنيه فى العام مع أن انتاج الذهب فى العالم كله

٨٥½ مليون جنيه سنويا فالترنسفال وحدها تنتج ٥٢½ ٪ من ذهب العالم (أما الولايات المتحدة فتنتج ١٢ ٪ فقط)

وأول من كشف الذهب هناك رجل افريقي اسمه (ووكر) وهو يحفر ليقيم منزلا سنة ١٨٨٦ فاعترضته صخور من المجمعات (كنجلمرات) وبعض الرمل الفضي بدا تحتها الذهب في عرق يتلوى في امتداد أفقي لمسافة لا تقل عن ٨٠ ميلا وفي سمك قد يبلغ أحيانا خمسين ميلا وامتداده من الغرب إلى الشرق وقد بدأ الرجل يعمل في استخراج الذهب لكنه قبل أن يؤتى شيئا يذكر مات صاحبه فقيراً ولقد أطلق الناس على هذا العرق اسم (عرق سبأ Sheba reef) أشارة الى عرب سبأ وقوم سليمان الحكيم وما حازوا من ثروة من ذهب تلك الناحية قديما فقد أثبتت الآثار انهم استغلوا الذهب في مناجم تمتد من زمبابوى الى الراند ويعتقد الجيولوجيون بأن العرق نهر قديم كان يجرى فوق صخور الجرانيت وكان النهر يحمل تبر الذهب في رواسب وكانت له دلتا وهي التي يمثلها اقليم الراند أغنى البقاع بالذهب اليوم ثم مالبث أن طمر المجرى ورفعته القوة الباطنة ولقد تكهن العلماء عن مستقبل الراند فقدروا أن الخام الذى به لا يقل عن ٥٥٠ مليون طن وبعضهم قال بأنه ١١٦٠ مليونا مع العلم بأن كل ما استخرج من الخام الى اليوم لم يصل ٣٠٠ مليونا وقال الدكتور (ڤاجنار) أن بالراند الآن ما لا يقل عن ١٢٠٠ مليون جنيه من الذهب، وتقوم المناجم على نجاد تتخللها نوانئ الجرانيت وقد حفرت فتحاتها وتعمقت الى ٧٠٠٠ قدم حتى قيل انها



(فى الراند أغنى مناجم الذهب فى العالم تستخدم أحدث الآلات فى الحفر)

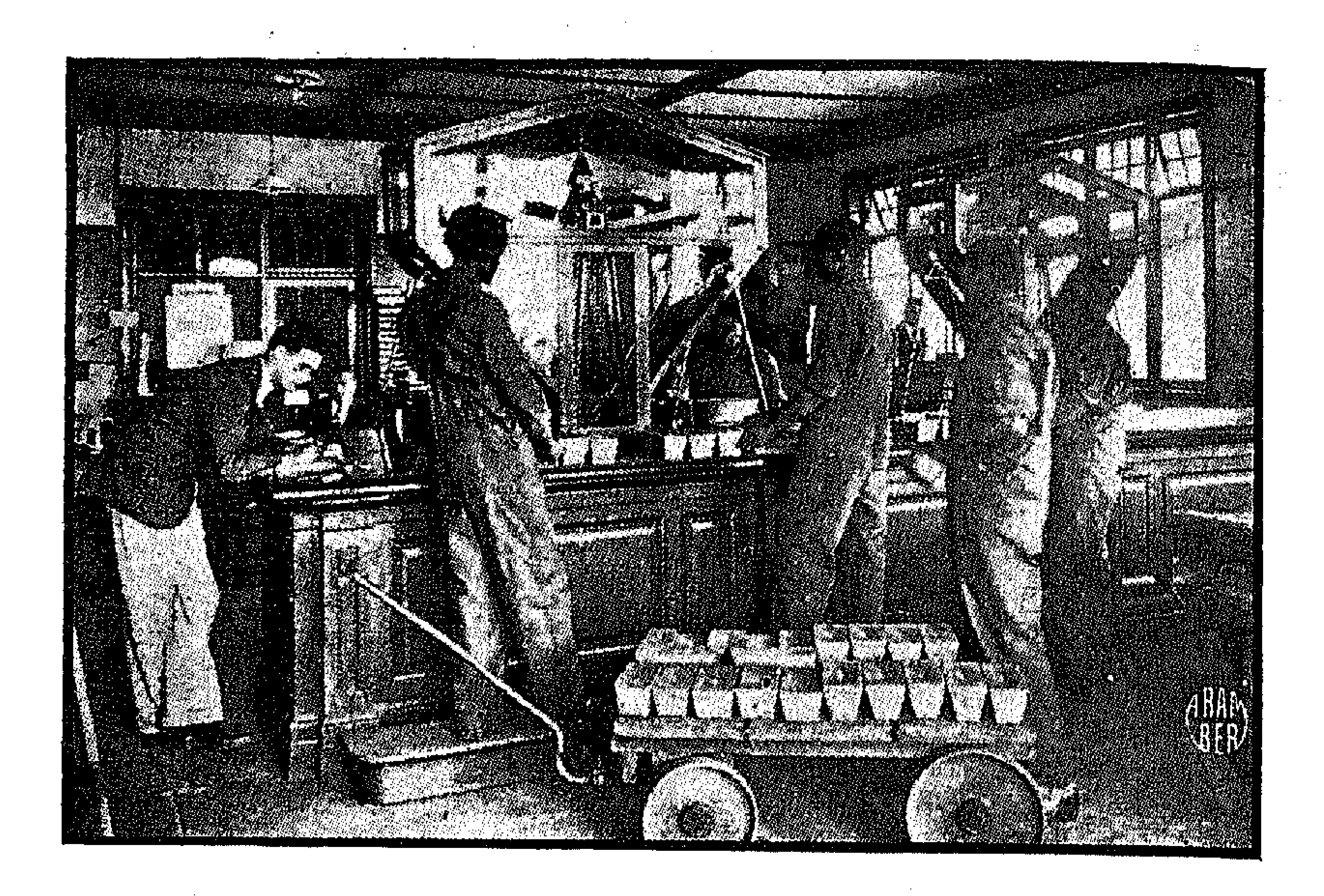
أعمق مناجم الدنيا وفى بعضها يشتغل العمال على عمق ٧٦٤٠ قدماً وهذا يصحبه زيادة فى الحرارة وزيادة فى الأجور والنفقات وهذا مايهدد التعدين هناك وينقص من قيمته عن ذى قبل على ان تحسين وسائل الانتاج لاتزال تعوض على المعدنين خسائرهم

ولقد درت تلك المناجم على العمال خيراً كثيراً فقد دفعت المناجم للبيض من العمال فى العشرين سنة الأخيرة ١٦٣ مليون جنيه وللسود ١٢٠ مليونا ولا يقل عدد البيض عن عشرين ألفاً والسود مائتا ألف ورأس المال الموظف فى الراند ٦٣ مليون جنيه وتعد المناجم أبدع مناجم الدنيا وأتقنها نظاماً تحتكرها ٤٧ شركة يمثلها أعضاء فى غرفة تعدين الترنسفال ويقولون ان نحو ٨٥ ٪ من سبائك الذهب التى صدرت من الترنسفال

عادت الى البلاد نقودا ، وتلك الثروة الخيالية هى التى قامت من أجلها مدينة جوهانسبرج فى الراند وقد بلغ أهلوها فى أمد وجيز نصف المليون نصفهم من السود والنصف من البيض ولا تزال تتضخم بسكانها وقد أقيمت على نتوء جنوب نهر ڤال (ومنه أخذ اسم ترنسڤال أى عبر نهر ڤال) ، وقد بدأ عدد العمال من السود قليلا فاضطروا الى جلب الصينيين الذين هددت كثرتهم البلاد فرُحِّلوا ثانية بعد أن أحرقوا جثث موتاهم وأخذوا رمادها ليدفن فى بلادهم ، أما اليوم فان العمال السود كثيرون جداً وقد أحبوا العمل فى المناجم حتى ان أبناءهم لايعدون رجالا إلا بعد أن يبدأوا التوظف فى المناجم ، وتراهم يقيمون حفلاتهم يرقصون على أنغام طبولهم وموسيقاهم الخشبية (شرائح خشبية كالبيان تضرب وتعطى أنغاماً مختلفة) كلما حل موعد تسلمهم لمرتباتهم وكانوا يتبارون فى ذلك لدرجة كانت تخرج بهم إلى النزاع والحرب أحياناً خصوصاً إذا مالعبت الخمر بلبهم

ومن معادن الترنسفال الهامة : البلاتين والماس فالبلاتين ينتظر أن يزاحم أكبر البلاد انتاجاً له وهى روسيا فى اقليم أرال ومحصولها السنوى ربع مليون أوقيه ثم كولومبيا فى أمريكا الجنوبية وتنتج ٥٥ ألفاً وثمن الأوقية منه ١٥ جنيهاً والعالم يستهلك فى السنة ٢٠٠ ألف أوقية من المعدن الجديد و ٩٠ ألفاً من القديم المعاد صهره

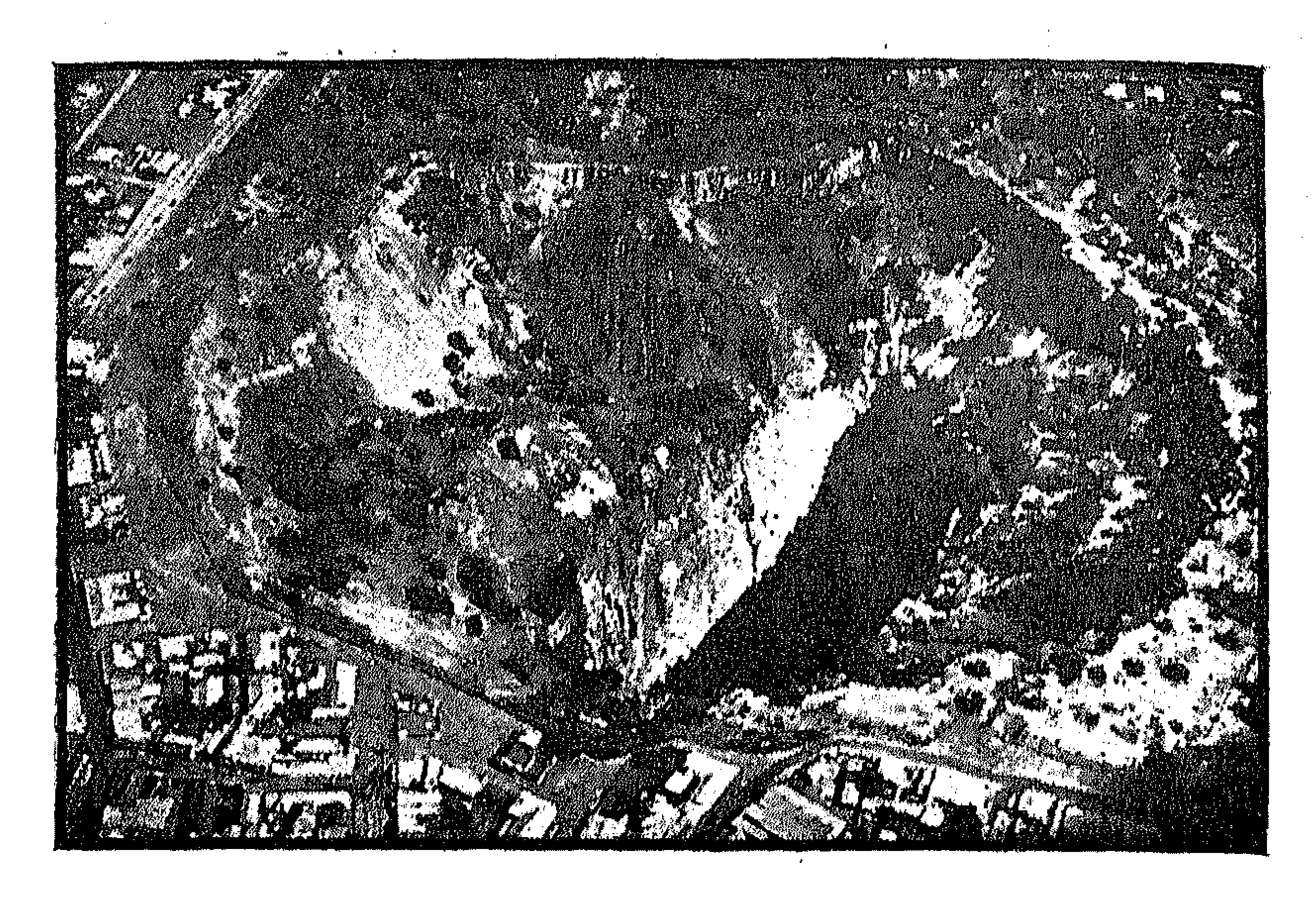
أما الماس فنى منجم (برمير Premier) حيث أقيمت مدينة بريتوريا من أجله ، وجدت أول ماسة هناك زنتها ٢٠٢٣ قيراطاً وحجمها ($4\frac{1}{2}$ ×



(فى مناجم الراند وترى ٣١ سبيكة من ذهب ثمن الواحدة ٥٠٠ جنيه)

٢½ × ٢ بوصة) والمنجم كاس بر كانية يكسر صخرها بالديناميت ثم يحمل الهشيم ويركز كل ١٢٠٠٠ طن منه الى قدم مكعبة وهذه تفحص باليد وقد استخرج من هذا المنجم ٦½ طن من الماس قيمتها ٢٨½ مليون جنيه مع ان ثمن الأرض كلها لم يبلغ ٥٢ ألف جنيه على أن مصادر الماس الهامة فى جنوب أفريقية حول نهر أورانج وأقدم ماسة وجدت فى جنوب أفريقية عثر عليها صبى اسمه يعقوب سنة ١٨٦٦ فى قرية (هو بول) على الأرنج ، وكان يلعب بها وزنتها ٢١½ قيراطا وثمنها خمسمائة جنيه ، وهذا الصبى هو الذى نبه الناس الى وجود الماس كما فعل ووكر الذى عثر على عرق الذهب

- فى الترنسفال ، وبعد سنين عثر آخر من الهوتنتوت على قطعة زنتها ٨٣½ قيراطا بيعت بمبلغ ١١٢٠٠ جنيها ، وهى التى يطلق عليها اليوم (نجم جنوب افريقية) وثمنها اليوم ٢٥ ألف جنيه وسرعان ما ذاعت الاشاعات المبنية على الوهم والمبالغة فى أوروبا عن الوديان التى تنتثر بقطع الماس وعن أكواخ الزنوج من الطين ترصعها قطع الماس الثمينة فدفع هذا بالكثير الى المهاجرة الى (وادى الماس) وفى سنة ١٩١٣ عثروا على قطعة ثمنها ثلاثون ألف جنيه وفى ١٩٢٤ وجد طفل قطعة زنتها ٤١٦ قيراطا ولقد ازدحم المهاجرون حول كمبرلى التى تحفها المناجم فيما لا يزيد على ميل ، وقد انتجت تلك المنطقة وحدها بنحو ٢٥٥ مليون جنيه من الماس فى أقل من نصف قرن وقد كان الممولون يشترون المزارع الصغيرة بآلاف الجنيهات ثم يبحثون عن الماس وكان بعض تلك المزارع يغل ملايين منه ، ويكثر الماس فى تربة من الطفل الأزرق والعادة ان العمال يملؤون عربات صغيرة من ذلك الطفل ثم ينشرونه شهورا فى العراء والشمس حتى يقل تماسكه ويمكن تكسيره بسهولة وتسمى تلك المساطح (floors) يحرسها رجال مسلحون وتحوطها أسلاك شائكة واذا ما صلحت للعمل حملت ثانية فى عربات وحلت بالماء وبآلات ذوات أسنان حادة ، ومن كل مائة عربة تستخلص واحدة تحوى الماس ، وهذه تدخل آلة تفصل الماس الى ست درجات حسب الحجم والوزن ومن كل سبعين ألف طن من الطفل الأزرق يستخرج عشرة أرطال من الماس وعادة القوم عند البحث عن الماس أن يجتمع الحفارون تحت قيادة رئيس ثم يقفون



(احدى حفائر الماس الكبرى فى كمبرلى)

فى صف و يصدر الرئيس الأمر بالجرى فيهجمون سراعاً و يختار كل مكاناً يدق فيه وتداً ثم يحفر حوله وفى سنة ١٩٢٧ كان أكبر سباق من نوعه هناك حين بلغ عدد أفراده عشرين ألفا جروا كلهم فى وقت واحد

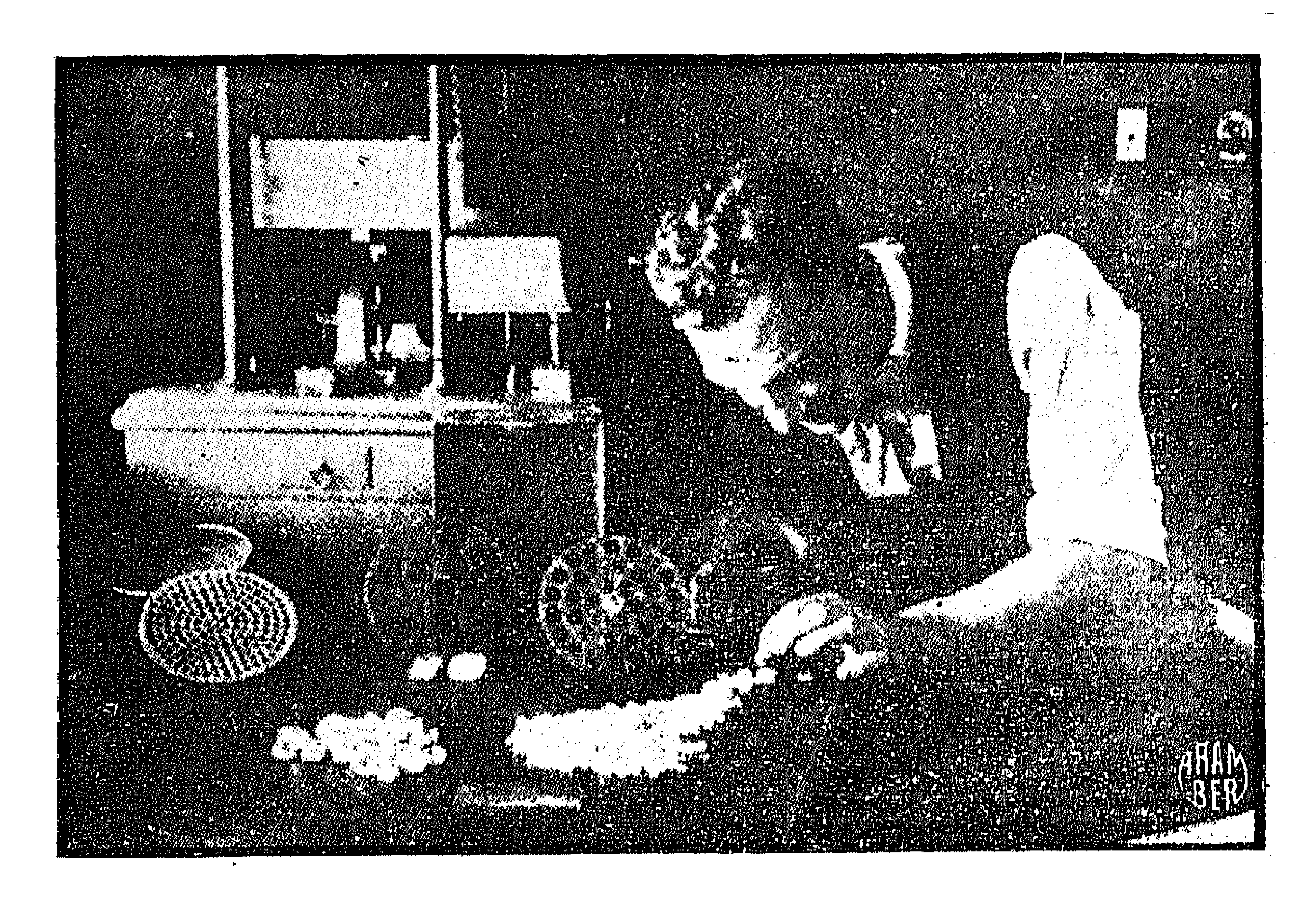
والحكومة هناك تشاطر فى نحو ٦٠ ٪ من الأرباح هذا خلافا لما تتقاضاه من ضرائب الصادر وضرائب الدخل من أصحاب المناجم وقد سنت الحكومة قانونا بالاتفاق مع اتحاد المعدنين تحدد به مقدار المعروض من الماس كل عام حتى لايهبط ثمنه هبوطا فاحشا يصحبه إيقاف العمل وطرد آلاف العمال من المناجم

ويظهر أن الماس يعم الاراضى التى يجرى فيها نهر أورانج كلها لأنهم

يعثرون عليها فى كل أرجائه الى مصبه حيث ينتثر الشاطىء بالماس إلى شمال مصب الاورنج بنحو ٣٠٠ ميل وقيل ٦٠٠ ولذلك أطلق على هذا الجزء اسم (شاطىء الماس) ويرجح العلامة الدكتور ڤاجنار أنها حملت مع رواسب النهر ودفعها تيار بنجويلا الذى يسير أزاء الشاطىء شمالا بدليل صغر بلوراته كلما سرنا شمالا مما يؤيد أن فى الارانج بطونا للماس لم تستكشف بعد على أن الماس هنا يعيبه صغر حجمه رغم جودة نوعه

الى الناتال : أقلعت الباخرة فى باكورة الصباح (الاثنين ٢٥ يوليه) والبحر هادىء والجو مشمس بارد كأنه شتاء مصر إذ كنا نقارب بلاد جنوب أفريقية فى شتائها الذى يحكى جو يناير عندنا وفى صباح اليوم التالى دخلنا خليج دربان أكبر بلاد الناتال وهو فى دائرة تحوطها الربى من جميع نواحيها تكسوها الأعشاب النضرة والأشجار الوفيرة

وأرصفة الميناء ومعداتها هائلة صاخبة وظلت باخرتنا تحمل وسقها من غرائر السكر الناعم الذى تستخرجه الناتال من القصب المنزرع فى مساحات شاسعة وقد علمنا أن الفدان هناك ينتج بين ٣٠ و ١٠٠ طن من القصب حسب جودة الأرض ومن السكر بين ١½ و ٤¾ طن ويظهر أن دراية الزولو سكان البلاد من السود بزراعة القصب كبيرة لأن الفدان فى جاوه مثلا ينتج ٤٠ طنا من القصب فقط و فى كوبا ٢٠ طنا و فى هواى ٤٩ طنا وهى من أحسن البلاد انتاجا على أن هبوط ثمنه هذا العام الى أربعة ملاليمات للرطل عاكس انتاجه بعض الشىء ويعزى هذا الهبوط الى كثرة انتاج



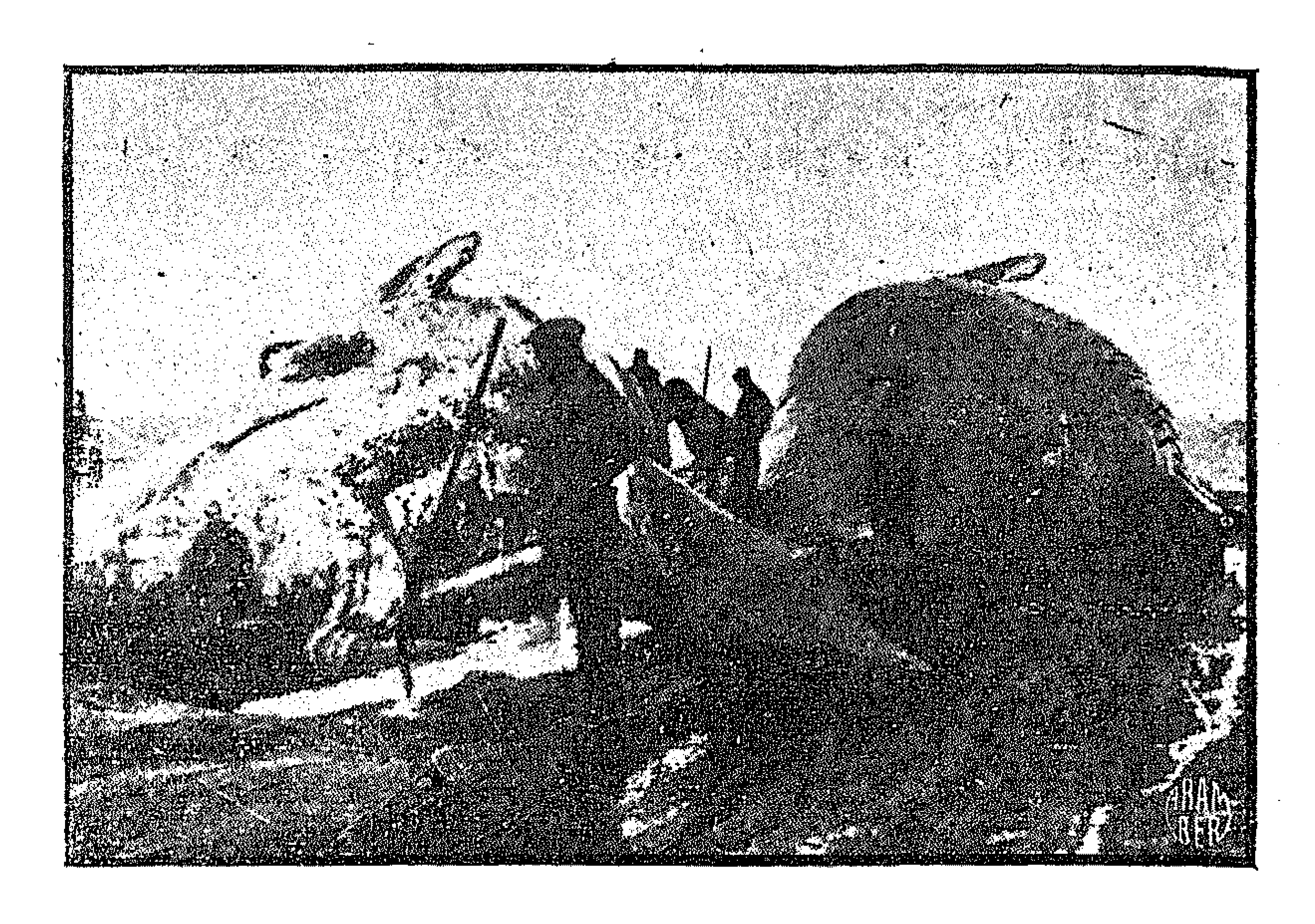
(كيف تفرز قطع الماس بحسب الحجم والجودة)

العالم من السكر الذى بلغ ٣٠ مليون طن مقابل ١٨½ سنة ١٩١٤ من القصب والبنجر معا . ولقد أنتجت الناتال ٧٨٨ مليون رطل صدرت نصفها بنحو ١½ مليون جنيه سنة ١٩٣٠

ولقد أخذ يحتل القصب الاراضى التى تزرع هناك شايا ذلك لأن الشاى يتطلب خبرة الاسيويين وهؤلاء قد منعت القوانين الجائرة هجرتهم الى جنوب أفريقية على أنى كنت أرى كثيراً من النجاد يكسوها الشاى وعلمت أن المساحة المزرعة ثلاثة آلاف فدان ولا تسد سوى ربع حاجة جنوب أفريقية من الشاى وشجرته هناك تنضج بعد سبع سنين لكنها تعطى

محصولا يسد نفقاتها فى الرابعة ، ولذلك وجب على زراعه أن يبدأوا برأس مال كبير ينفقون منه حتى ينتج و يربى و إذا عنى بالأرض ونظافتها يؤتى الشاى ثمره لمدة خمسين عاما بدون حاجة الى تجديد زرعه ومتوسط محصول الفدان فى الناتال ٣٥٠ رطلا جافا — كل أربعة أرطال من الورق الرطب تصبح رطلا جافا — وهذا دون المحصول الذى شاهدته عامى الفائت فى جزيرة سيلان بالهند ولعل لخبرة الهنود وتوافر عددهم دخلا فى ذلك فان أجرة العامل فى الناتال تزيد على أجرته فى الهند ثلاثة أضعاف ونصف

وقد رست باخرتنا إلى جوار رصيف الحيتان وهو المكان الخاص بأعداد ما يصيده القوم من الحيتان الكبيرة والناتال من البلاد الشهيرة بصيدها ، وقد كان يلقى أمامنا منها ما لا يقل عن خمسة فى جثث هائلة وقيل لنا أن ما يصاد منها فى جنوب أفريقية لا يقل عن ثلاثة آلاف حوت فى السنة ثمنها نحو نصف مليون جنيه وقد صدرت البلاد خمسة ملايين جالون من الزيت بثلث مليون جنيه ومن الحوت يأخذون الزيت وثمن الطن منه ٢٥ جنيها ثم اللحم وهو غنى جداً بمادته الغذائية ثم السماد ثم العظام وهى ثلث وزن الحيوان و بها ٢١ ٪ من فسفات الجير ، ٨½ ٪ من النشادر و يمكن تحويل الجثة كلها الى سماد غنى ، ولقد أسرف الانسان فى صيد الحوت حتى هدد بالانقراض اذ بلغ ما صيد من نصف الكرة الجنوبى ١٧٫٥٠٠ حوتا وفى العالم كله ٤٥ ألفا فى السنة ، ولسوء الحظ أن حمايته متعذرة لأنه خارج عن حدود كل دولة فلا يحميه إلا القانون الدولى

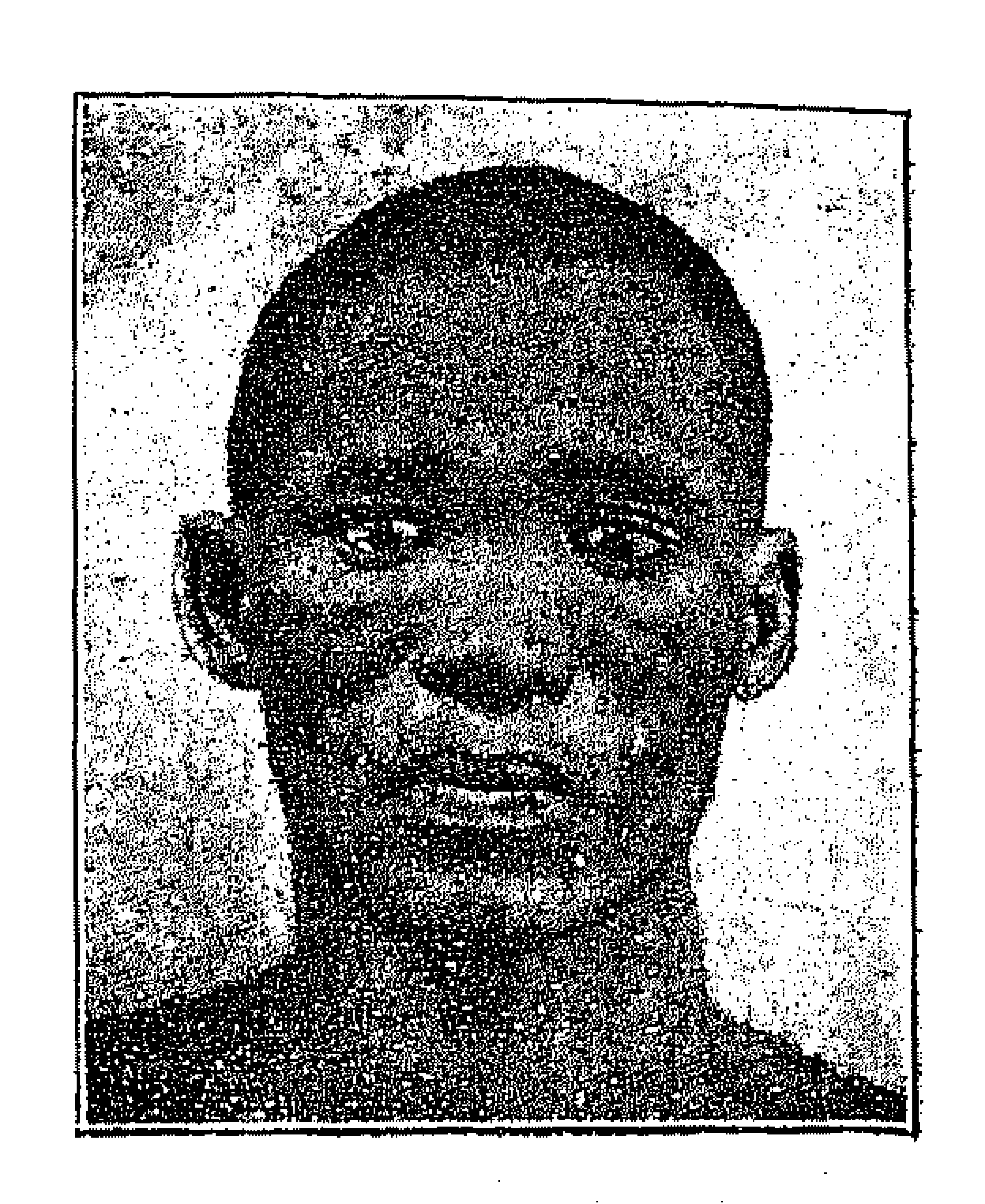


(صيد الحيتان مهنة هامة فى دربان)

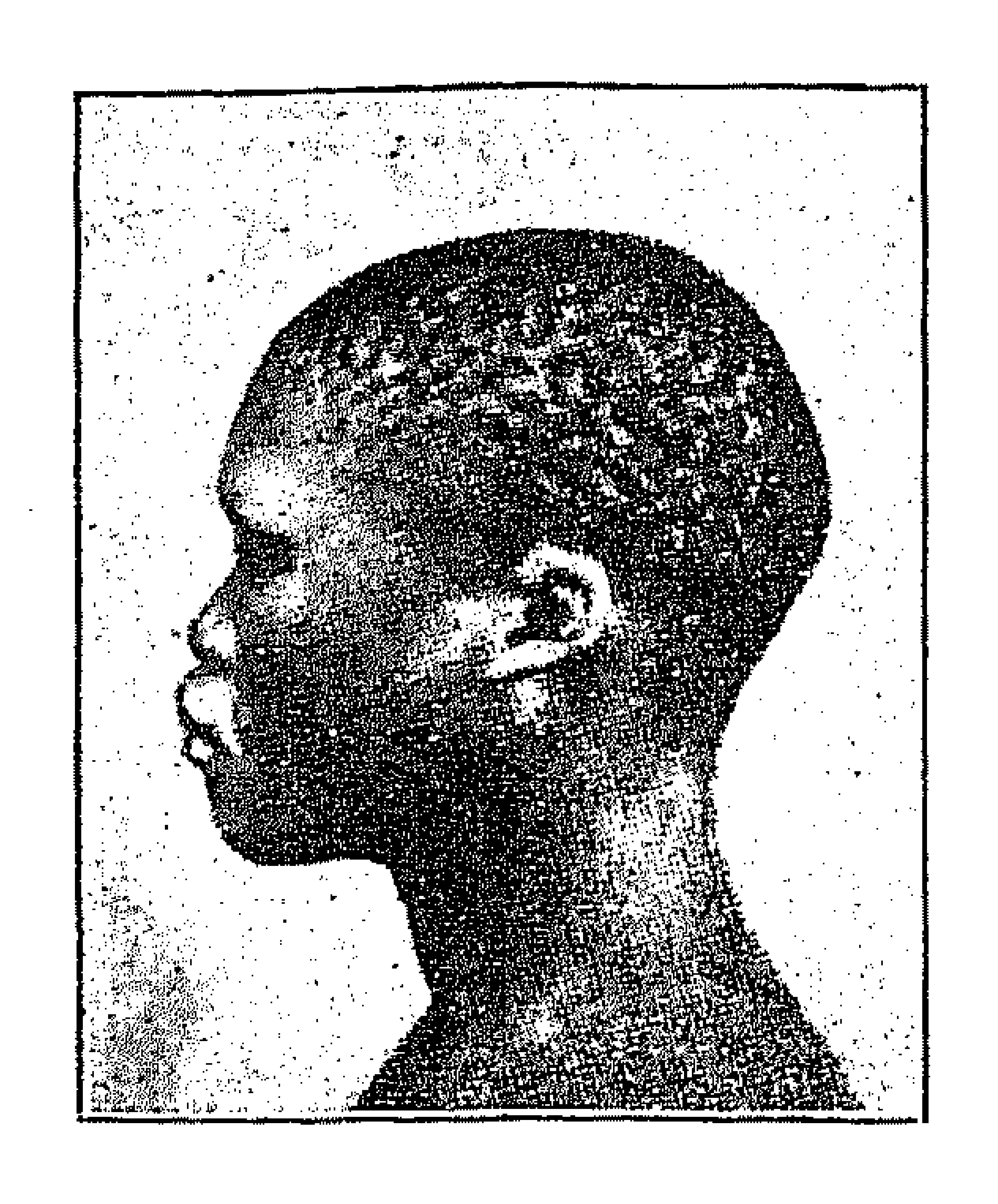
ولعل أول ما استرعى أنظارنا تعدد السحن واختلاف الأجناس البشرية ، إذ كنا نرى الهنود والملايو بجسومهم الناحلة والسود بقاماتهم الطويلة وعضلاتهم المفتولة خصوصاً المتابيل والزولو أشد سكان الأرض فراسة وقسوة فهم أخطر من الهنود الحمر فى أمريكا وزنوج استراليا وماأورى زيلندة وأظهر ما كنا نراهم وهم يسوقون الركشا يلبسون فى رءوسهم القرون الكبيرة علامة على القوة وحولها الريش علامة على السرعة وخفة الحركة الى هؤلاء المولدون الافر يقيون بسحنهم الاوروبية فى لون أسمر ثم الهولنديون والانجليز فالناس هناك خليط لا أول له ولا آخر

ولعل أعجب الشعوب جميعاً الهوتانتوت والبشمن :

البشمن : (شعوب واق الواق) أقدم سكان أفريقية فهم هناك منذ العصر الحجرى حين كانوا يتنقلون فى كل أرجاء القارة على أنه يشك فى أنهم سكان أفريقية الأوائل (ذلك لأنا عثرنا على أقزام فى وسط القارة يخالفونهم) ولم يكونوا يعرفون النار ، ولقد استحضر منهم فرعون عددا كان يرقص أمامه ويسليه ، وقال المسعودى بأن أهل السواحل عرفوا سكان (واق الواق) وكأنهم القردة أولئك الذين عاشوا مع سائر الحيوان قبل أن يخلق الله الإنسان من الطين ، ولهؤلاء الحق أن اعتقدوا بأنهم غير آدميين فهم أبعد الناس عن الآدميين لقصرهم (فهم دون خمس أقدام) ولشعرهم المنفوش ولآذانهم التى لا شحمة لها ولوجوههم المثلثة عديمة اللحى وكأنها وجوه الثعالب ، وكانت عيونهم غائرة تحت حواجب مشرفة بارزة وكانت سوقهم الدقيقة وأقدامهم الصغيرة تبدو وكأنها لا تكاد تحمل بطون الرجال المنتفخة ولا الثدى المادل والعجز الضخم للنساء ، وكانوا رعاة يتنقلون فى عشائر عدد الواحدة ٣٠٠ على الأكثر يقودهم زعيم كأنه القائد الحربى والروابط العائلية كانت واهنة بينهم يتزوجون أكثر من واحدة وشبانهم يقتتلون من أجل الحصول على الزوجات ونساؤهم وقورات وروابط الزوجية واهنة أيضاً فلا يكاد الطفل يستقيم على سوقه حتى يهيم على هواه والمسنون والمرضى يهجرهم ذووهم لأنهم عبء لا يستطيع الانتقال ، وعبادتهم الجن والتمسك ببعض التقاليد الخرافية وبعضهم كان يقدس (كاآنج Kaang) رئيس السماوات والبعض عبدوا النجوم والقمر ولغتهم فقيرة اللفظ لا تعدو كلماتها



(الهوتنتوت)



(البشمن)

٦٣ وهى غاصة بأصوات التهتهة واللكنة (Clicks) ومخارج الأنف فدراستها توضح لغة الإنسان الأول وكيف تطورت ومنها فهم البعض أسرار أصوات بعض الطيور والحيوان وكيف تطورت إلى الكلام وأنت تسمع أصواتهم فى مخارج متقطعة وكأنها عواء القردة .

ويختلف المعنى بحسب طريقه التعبير والتهتهة واللغة خالية من صيغ الجمع ومعرفتهم بالحساب لم تتعد الثلاثة لكنهم عوضوا بعض هذا النقص فى اللغة والحساب بالحفر والرسم وفى هذين فاقوا انسان العصور القديمة ومن مواهبهم غرامهم بالأقاصيص وحركات الوجه والرقص الذى يمتاز به كل

سكان أفريقيه وفيما عدا ذلك فليس لهم من متاع الدنيا شيء قط حصلوا على النار من أثر الاحتكاك وسكنوا العشش ورداؤهم عباءة من جلد خفيف يتخذونها غطاء لهم فى الليل وتزينوا بالودع و بيض النعام يحملون فيه الماء ودخنوا نباتا كالطباق اسمه (dagga) وثملوا بخمر أعدوه من العسل البرى و بعض الجذور النباتية ولم يستأنسوا من الحيوان سوى الكلاب ولم يعرفوا المعادن ولا الزراعة ولا النسيج ؛ وكان عمادهم فى الغذاء على الجذور والنمل وأصداف البحر وما يصيده الرجال من الحيوان بسهامهم المسمومة يتخذون السم القوى من حشرة هى أصغر من البعوضة حجماً وهم فى القتال بواسل ولهم قدرة مدهشة على الحصول على الماء من النبات فهم يمتصونه حتى من الغاب الأجوف ومن جذوع الشجر ومن بعض فصائل القرع التى تنمو فى الصحراء . ولقد كانوا يقاومون حياة الرعاية التى عاشها الهوتنتوت و يرمونها بأنها حياة خمول كذلك لم يتفقوا مع النزلاء أبداً ولذلك فنى منهم فى القتال كثير إلا أقلية تقطن الصحارى فيما جاور كالاهارى ولا يزال العالم حائراً مدهوشاً لما خلفه أولئك المنحطون من الفن الجميل فى الحفر والتصوير على الصخور فى كل أرجاء جنوب أفريقية ، وقد أرجعها بعض العلماء إلى ماوراء ٨٠٠٠ سنة ق م .

الهوتنتوت : وهم أحدث عهداً من البشمن و يخال البعض أنهم قبل مجيء الهولنديين بألف عام كانوا يقطنون حول البحيرات ثم زحفوا جنوبا ويرى البعض أنهم انحدروا إلى الساحل الغربى ولازموه إلى الكاب



(بقايا نقوش « البشمن » على الصخور فى ناتال)

ثم شرقا إلى الناتال ، وآخرون يرون أنهم ساروا أزاء الساحل الشرقى ، وكان زحفهم لاجتناب الاحتكاك بالبانتو من جهة وللتخلص من ذباب تسى تسى حول الزمبيزى من جهة أخرى وأجسادهم أكبر من أجساد البشمن وقاماتهم أطول ، وكانوا يسمون أنفسهم (خُوى خُوى Khoi Khoi) أى رجال من رجال ، وكان لهم لحى وجسومهم أنحف من الأوروبيين وظهورهم مجوفة وأقدامهم صغيرة وعيونهم متباعدة وخدودهم غائرة وذقونهم مدببة ولونهم زيتونى مصفر ، ورغم شعرهم الجعد الصوفى وشفاههم الغليظة وأنوفهم الفطساء فان لونهم يقرب من ألوان الأوروبيين ، وهم يزينون شعرهم بالودع والنحاس وكلا الجنسين يلبسون جلود الأغنام صوفها يلامس الجلد شتاء

ويكون من الخارج صيفاً ، بيوتهم نصف دائرية ومن الحصر والعصى وهم وسط
بين العصرين النحاسى والحديدى وعلى ذلك فهم يتقدمون البشمن بمراحل
استخدموا النحاس بكثرة والحديد على قلة ، وهم رعاة قبل كل شىء ويقع عمل
الرعاية على الرجال واعداد اللبن والغذاء على النساء وليس هناك من رابطة بين
القبائل يسيطر على كل قبيلة رئيس وراثى ، على أن الثروة لديهم أهم من
الزعامة وأغنياؤهم يتزوجون بأكثر من واحدة وعنايتهم بالمسنين والمرضى
لا توجد ، ولغتهم أغنى قليلا من لغــة البشمن وقد ورثوا عنهم كثيرا من
النهنهة ، وقد امتزجت بهــا اللغات الحامية ، وهم يحبون القصص والرقص
كالبشمن ، لكنهم أقل منهم شجاعة وفناً إذ لا يعرفون الحفر ولا التصوير
أسلحتهم الحراب والسهام ذات الأطراف المعدنية والدروع والتروس من
الجلد ، وبعضهم يمرن الثيران تتقدمهم فى القتال ليحتموا خلفها وبعضهم
يعبد الجن والبعض ارتقى واعتقد فى إله الخير ومحله السماء الحمراء وإله الشر
ومقره السماء المظلمة السوداء ، ولايكاد يوجد الجنس صافياً اليوم رغم أنهم
كانوا كثيرين يوم دخل الهولنديون البلاد ، وقد وصفهم ڤن ريبيك بأنهم
مرحون قذرون كرام لحد التبذير كسالى نهمون فى الطعام يتناولونه أنى وجدوه
شديدو الصبر أبان المحل يحبون التطيب بالأعطار وهم مخلصون صادقون
شكورون .

ومشكلة السكان فى جنوب أفريقية من أعقد مشاكل الدنيا
فالبيض منقسمون على أنفسهم لا بحسب الجنسية فحسب بل وأيضاً بسبب



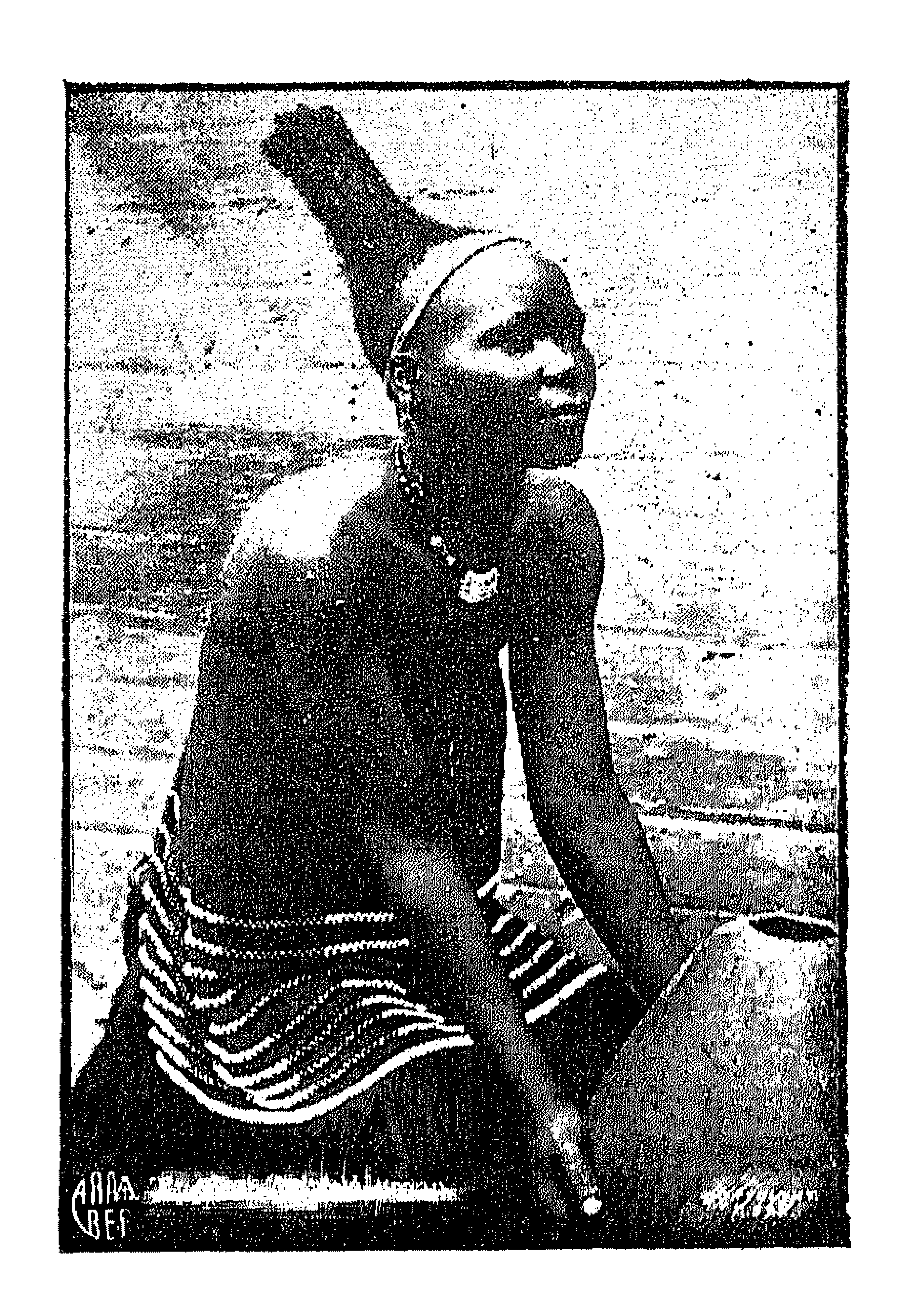
(سائقو الركشا من الزولو والقرون شعار البسالة والريش شعار خفة الحركة)

ما شجر بينهم من النزاع في الماضي كذلك أهل البلاد متعددو الأجناس والقبائل مختلفو النزعات والى هؤلاء عدد متزايد من الهنود وهم مبغضون من الفريقين السابقين ، فكيف يمكن لكل أولئك أن يمتزجوا ليكونوا جنسية لها قومية واحدة ! تلك مشكلة معقدة ، فالبيض هناك هم القادة والسادة والسود الخدم والأتباع رغم كثرتهم الهائلة ـ فعددهم

٥ر٤ مليوناً والبيض مليون ونصف ـ وزاد الأمر تعقيداً أن السود مختلفون في مقدار الذكاء فالبانتو ومنهم الزولو أذكى من الهوتنتوت وهؤلاء أذكى من البشمن ، إلى ذلك كثير من المولدين الذين يحاولون أن يلحقوا أنفسهم بالبيض و يرفعوا مستواهم اليهم

وأكثر مايرى الهنود فى الناتال حيث جلبوا من بلادهم للقيام بشئون الزراعة التى تنحى عنها فى البدء أهل البلاد ـ وهم اليوم نادمون على ذلك ـ أما فى الكاب فالهنود أتى بهم الهولنديون من الملايو وجزائر الهند يوم أن كان جنوب افريقيه تحت حكمهم وكثير من الباعة هناك من الملايو ولهم أحياء خاصة وكثير من نسائهم محجبات يلبسن القناع وكثيراً ما تسمع المؤذن يدعوهم الى الصلاة لأن سوادهم مسلمون

والهولندى والانجليزى القح آخذ كلاهما فى الزوال والانقراض والذى يحل محلهما اليوم الافريقى (Afrikander) الذى يظهر فيه الأثر الهولندى أكثر من الأثر الانجليزى ، يؤيد ذلك احصاء الجنس الأبيض هناك الذى دل على أن ٧٠ ٪ من البيض فى الكاب هولنديون و ٨٥ ٪ فى الاورنج و ٦٠ ٪ فى الترنسفال ، ولا يسود الدم الانجليزى الا فى الناتال حيث تبلغ نسبة الهولندى ٢٥ ٪ فقط ، و يرى البعض فى سكان جنوب افريقيه الذين اندمج خليطهم اندماجاً تاما هكذا سيادة المرأة الهولندية وحماسة شبان فرنسا وحنكة السن الألمانى، ولكثرة توغلهم فى البرارى الداخلية أضحوا نصف متوحشين وأهملوا نظافة البيوت الهولندية وافتقروا الى النظام



(كيف يجدل جميلات « الزولو » شعورهن)

الاجتماعى وعاشوا عيشة شبيهة بعيشة الرعاة المملة الى ذلك فان اشتغالهم بالصيد ودوام أكل اللحوم وتعدد الحروب مع الكفرة والبشمن جعلهم أكثر جفاء من الأوروبيين، على ان نظام المعيشة العام يبدو انجليزياً ولغة القوم السائدة مزدوجة انجليزية وتاليه (Taal) وهى لهجة هولندية يحرفها ذووها بين بلد وآخر لكن اللغة الكتابية أقرب الى الهولندية ، أما العامية فقد بسطت كثيراً

ودخلها كثير من الكلمات الغريبة ، وكثيراً مايسمع المرء ثلاث لهجات هولندية مختلفة : الهولندية التى يتكلمها أهل هولندا ولهجة محلية تستخدم فى التعليم والتالية ، ولقد كان لهذا الخلاف فضل فى ظهور اللغة الانجليزية إلى جانب الهولندية ، وأغنياء الهولنديين هناك يعيشون عيشة انجليزية ويوفدون أبناءهم ليتموا تعليمهم فى جامعات انجلترا ، وكان يطلق على أولئك الهولنديين شعوب البوير : والكلمة معناها المزارعون لأنهم كانوا يزرعون الأرض لاطعام ماشيتهم وقد كانوا يحتقرون الأهلين لذلك تجدهم مبغضين من السود وهذا مما ساعد على تقدم الانجليز إلى جانبهم فى جنوب أفريقية والبويرى حريص فى المال شحيح فى معاملاته ميال للمرح والنكات عنيد إلى الحد الأقصى ويحاول البوير منذ قامت حكومة الاتحاد أن يسلبوا غالب الأعمال من أيدى منافسيهم الانجليز لأنهم يشعرون بأنهم الاغلبية التى يجب أن تمسك سلطة البلاد بيدها وتتصرف فى أموالها ، ولقد كنت ألمس ذلك فى عين السخط التى كان ينظر بها هؤلاء إلى الانجليز جميعاً وهم دائبون على مضايقة الانجليز فى أعمالهم ووظائفهم لدرجة أن كثيراً منهم أخذ يترك تلك البلاد إلى غيرها وقد كان معى فى سفينة العودة نحو ثمانية من الانجليز الذين فصلهم رؤساؤهم من البوير وكانوا يقصدون شرق أفريقية بحثاً عن عمل جديد وأظهر مايكون ذلك الشعور فى الترنسفال والأورانج أولاثم فى الكاب والناتال هذا إلى انصراف البلاد تدريجاً عن الاتجار مع الانجليز وشذوذها عن انجلترا فى الاحتفاظ بالنقد الذهبى رغم خروج انجلترا

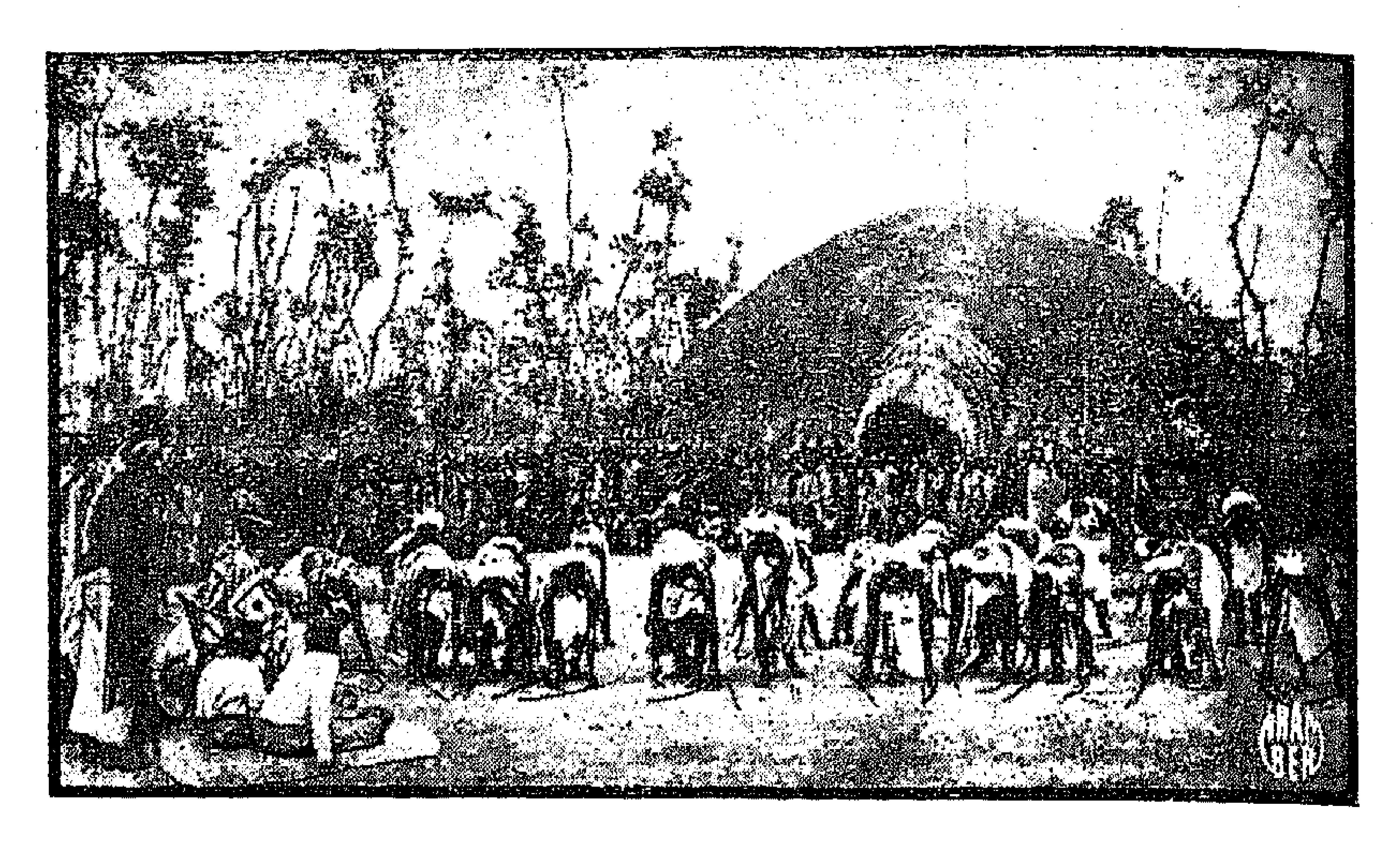


(لاتزال تلك العربات تجرها قطر من الثيران أداة النقل فى ريف جنوب افريقية)

عن معيار الذهب مع أن ذلك قد أحدث أثراً سيئاً فى صادرات جنوب أفريقية.
ولغة البلاد الرسمية مزدوجة الأفريقية (الهولندية) والانجليزية وتطبع
جميع الأوراق بهما معا ولا يقبل فى الوظائف إلا من يجيدها وكنت أرى
الاعلانات وأسماء المتاجر تكتب بهما معاً وتدرسان فى المدارس جميعها

الحاجز اللونى (Colour Bar) ضرب من الرق المستور: ما كان أشد
دهشى واستنكارى للمعاملة السيئة التى يعامل بها البيض فى جنوب أفريقية
الشعوب السوداء رغم أنهم أصحاب البلاد وليسوا دخلاء متطفلين كالبيض
فقانون (الحاجز اللونى) هناك يحرم على السود القيام بالعمل الممتاز الذى
قصر على البيض حتى ولو وجد من السود أكفاء لهذه الأعمال وخص
بالسود العمل اليدوى المهين إلى ذلك فليس للسود حق دخول الوظائف

العامة ولهم مدارسهم الخاصة يدرسون فيها مبادىء القراءة البسيطة وليس
لهم دخول مدارس البيض ولا يد لهم فى تصريف شؤون البلاد لأنهم
ممنوعون من التصويت فى الانتخاب ولا يباح لهم دخول النزل والمقاهى
وما شا كلها فلهم محالهم الخاصة بل وفى بعض الأحيان بلاد وأحياء خاصة
وفى بعض البلاد يحرم عليهم دخول الأحياء الأفرنجية بتاتاً ولا يقبل الخدم
منهم ويعامل الأسيويون وبخاصة الهنود والصينيين كذلك ، فهم فى الناتال
ممنوعون من فتح المتاجر بجانب البيض وكم ناقشت القوم فى هذا التشريع
غير المعقول ذاك الذى ينافى النواميس الطبيعية فكانت تعلاتهم أن أجور
هؤلاء زهيدة جداً لدرجة تزاحم البيض مزاحمة قاتلة وهم لاينفقون فى
معيشتهم شيئاً يذكر بجانب ماينفقه البيض لذلك وجب إبعادهم بتشجيع
بقائهم فى حياتهم الريفية الهمجية وبسن قوانين تحدد لهم دائرة أعمالهم
وخشية أن يجتاح السود الجنس الأبيض (لأن السود هم الأغلبية الساحقة)
يحظر القانون على البيض الزواج من السود أو اتخاذ نسائهن خلائل لهم
ولا يلحق بالسود الأسيويون فحسب بل والمولدون وهم من النزلاء الأوائل
الذين اختلطوا بالدم الأسود ويميزون على السود قليلا إذ يسمح لمن يزيد
دخله على مائة جنيه فى العام بالاشتراك فى التصويت العام ولهم أن يقيموا
مقاهى وحانات خاصة بهم أما السود فممنوعون من الخمر بتاتاً هذا فى الكاب
فحسب ، أما فى باقى جنوب أفريقية فالمولدون يعاملون معاملة السود وأدهى
من ذلك أنهم يعاملون بعض الدول الأخرى معاملة شبيهة بذلك تلك



(ملك من البانتو يرأس حفلة رقص حربية أمام قصره)

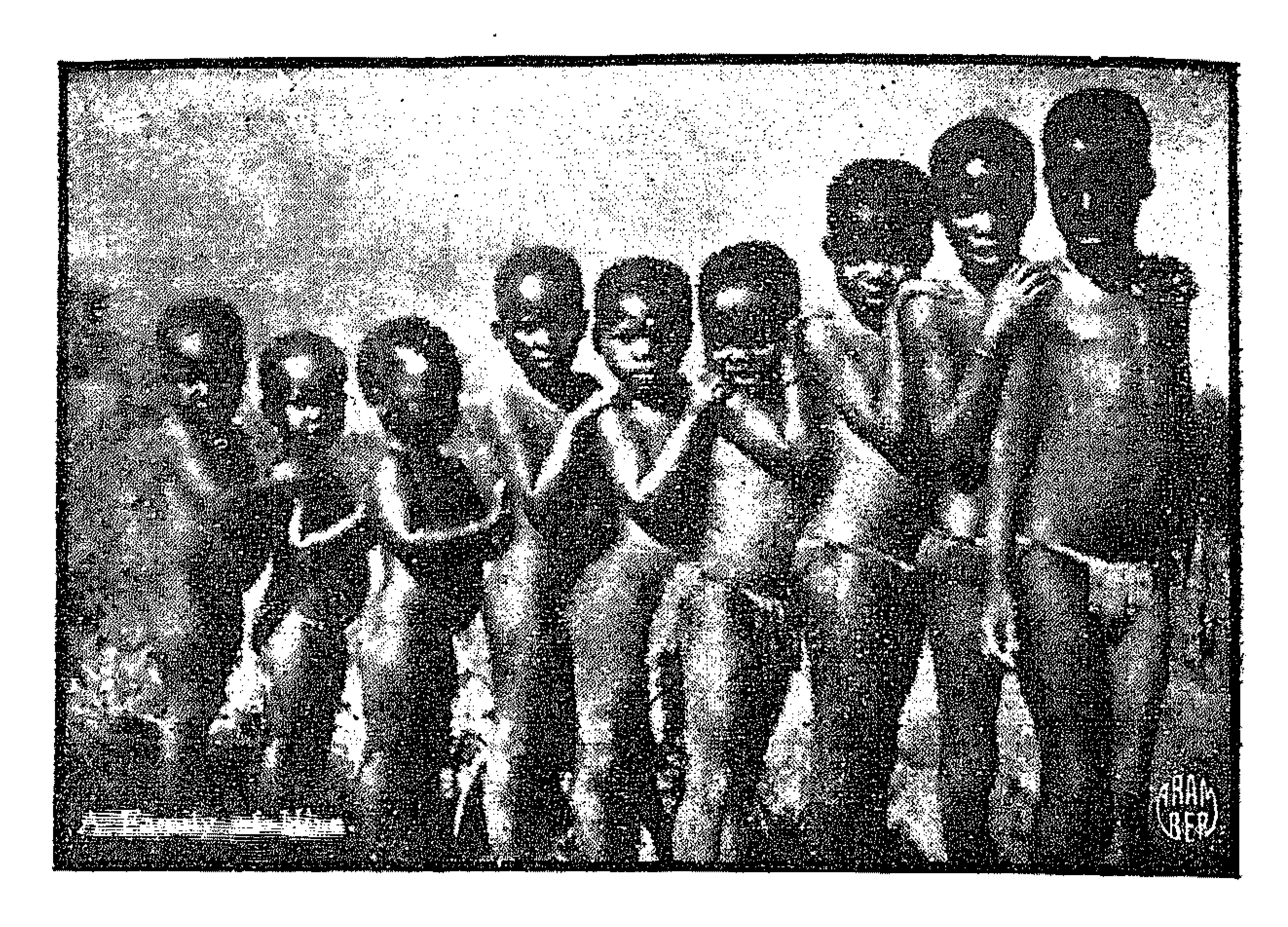
الدول التى يضعونها تحت نظام اسمه (Quota System) وما كان أشد ألمى عند ما علمت أن المصريين كذلك ! لذلك لم أعجب عند ما علمت أن (المهاتما غاندى) قد اضطرته معاملة جنوب أفريقية لبنيه من الهنود بهذا الاضطهاد المزرى أن يصبح على ما نعلمه فيه من التطرف فى الدفاع عن صوالح بنيه لأنه أمضى شطراً من حياته مشتغلا بالقانون فى بلاد جنوب أفريقية وعاين بنفسه ظلم الانسان لأخيه الانسان

وتعجب إذ تعلم أن كثيراً من العمال من البيض كسالى يعوزهم النشاط فهم لايفترقون عن السود كثيراً ومع ذلك تجدهم ممتازين وقد قيل أن نزلاء الجنس الأبيض الذين حلوا جنوب أفريقية وجدوا العبيد فاتخذوهم رقيقاً لمدة قرنين فقد البيض خلالها نشاطهم وفضائلهم الخلقية — وتلك من سيئات

نظام الرقيق حيثما وجد — وقد بدأ ذلك فى المائة عام التالية لإلغاء الرقيق تلك التى أظهرت فى البيض الخمول وكراهية العمل اليدوى فلو أنهم بعثوا الى هناك أفواجاً ولم يزودوا بالعبيد لـكان اليوم منهم شعب نشيط

وحيث طال أمد الرق فى جهات من الـكاب تضاءل عـدد البيض أكثر من ذى قبل ولقد كثر عدد العاطلين من العمال البيض قليلى الخبرة فأضحت مشكلتهم معقدة لأن مزاحمة السود لهم خفضت مستوى أجورهم جداً ولذلك صعب على البيض اللاجئين من القرى إلى المدن أن يجـدوا عملا ، إلى ذلك فكثير من البيض وبخاصة فى الترنسفال كانوا يعيشون على صيد الحيوان والاتجار فى لحمه وجلوده لـكن عدد الحيوان البرى ندر اليوم فقلت مواردهم ، كذلك كان فريق منهم يعيش على أجور النقل فى عرباتهم التى يجرها الثيران فى قطارات طويلة واليوم أضاعت سكة الحديد عليهم موردهم هذا فلجأت الحـكومة إلى تشجيع استغلال المزارع واحلال البيض محل السود فيها وفى السكك الحديدية وكذلك فى الأعمال ذات الأجور الممتازة فى المناجم فهناك يبلغ متوسط أجر العامل الأبيض ٣٦٠ جنيهاً فى العام وهذه من أغلى الأجور العالمية ولقد كان أمام السود مجال فى الأعمال الـكتابية وفى الوظائف فى المحال التجارية لـكن قانون (الحاجز اللوني) الغريب قد حدد ذلك لا بل وكاد يحرمهم منه بتاتاً ولقد أدركت الحكومة هناك مدى الأحجاف فى هذا التشريع فبدأت تقصر تنفيذه على المدن دون الريف .

وعجيب أن الحـكومة تجبى ضرائب على الراشدين من السود فـكل



(تسعة اخوة من زوجات عدة ـ قبائل البانتو)

واحد يدفع جنيها فى العام ونصف جنيه آخر عن كل زوجة من زوجاته وقد شجعت تلك الضريبة على العمل اليدوى وان عاكست تعدد الزوجات كثيراً ، وفيما يختص بالاسيويين سنت قوانين بعدم دخولهم فى الاتحاد بتاتا وهم يغرون من يميل الى العودة الى بلادهم بالسفر حتى على حساب الحكومة على ألا يعودوا وهم يحرمون على الموجودين هناك دخول المدن وقد قصرت اقامتهم على الارياف ، والبيض قلقون جداً بسبب الزيادة المطردة فى عدد السود بنسبة تتلاشى أمامها زيادة البيض ويخشون أن يجتاحهم السود اجتماعيا واقتصاديا ومن الاحتياطات التى يتخذونها لمنع ذلك تشجيع الحكومات الوطنية فى الريف تحت حاكم أبيض وتشجيع



(جمهرة من أكواخ البانتو ـ كرال)

الملكية واهمال فكرة الشيوع فى الارض والتمسك بذلك القانون الظالم الذى يخصص العمل الممتاز للبيض دون السود ذلك التصرف الذى ينقده الكثير لمنافاته للانسانية ولأنه يجعل البلاد عاجزة عن منافسة العالم اقتصاديا بسبب علو أجور البيض لكنهم يعترفون بانهم مضحون فى ذلك مقابل ضرورة تحويل البلاد جميعها الى مواطن للجنس الابيض دون الاسود الذى يرمقه البيض بنظرات الحنق والاحتقار فلا ينادونه إلا بنغمة الآمر ولا يتحدثون عنه إلا باسم (كافر) مما كنت أتألم له كثيرا ، على أن القلق وعدم الرضى من جانب السود آخذ فى الزيادة لأن احتكاكهم بالبيض علمهم أن يتمسكوا بحقوقهم وصوالحهم التى شعروا بأنها مهضومة ضائعة وقد أخذ يبدو ذلك فى حركات الاضراب حيثما يكثر العمال من السود هناك

جنوب أفريقية

كيف منعت من دخوله

تقدم المسافرون على الباخرة الى ضابط المهاجرة ولما أن جاء دورى فاجأنى الضابط قائلا : آسف أن أبلغك بأن حكومة الاتحاد لاتسمح لك بالنزول فى بلادنا ، كما يقضى قانون المهاجرة ، قلت ولكنى سائح ولست مهاجراً وجواز سفرى يؤيد ذلك وهاهى أوراقى الرسمية التى تثبت بأنى موظف فى الحكومة المصرية وانى جئت فى رحلة علمية ، قال هذا أمر المنع ولا طائل فى المناقشة ، قلت ولكن الباخرة سائرة بعد الكاب الى انجلترا رأسا وليس ذاك طريقى فهل يسمح لى بالنزول حتى آخذ أول باخرة عائدة إلى شرق أفريقية ، قال لا يكون ذلك الا بأن تزج فى معسكر المهاجرة حتى تجىء الباخرة قلت ألا أستطيع أن آوى الى نزل تحت رقابتكم بعد أن أدفع التأمين الذى تطلبون قال هذا لايكون وتركنى

موقف قلق لم أخبره طوال حياتى ! أقوم برحلة كبدتنى كثيراً من الجهد والمال قصد البحث العلمى الخالص فأودع السجن ! أية عدالة فى الدنيا تسيغ ذلك ؟ لبثت ليلتى أتردد فوق ظهر الباخرة من مقعد لآخر ورجل البوليس يراقبنى ويسير خلفى أنى سرت ، وركبان الباخرة يرمقوننى بنظراتهم التى كنت أقرأ فى بعضها العطف وفى البعض سوء الظن بأنى مجرم أثيم ،

ثم آويت الى مضجعى ولـكن كيف ينام الحائر القلق الاعزل . وفى صباح اليوم التالى علمت أن باخرة العودة ستجىء بعد ثلاثة أيام فآثرت السجن لـكى أنقذ رحلتى بعد أن أكدوا لى أن المـكان مريح وأنى سأكون ممتعا داخله بكل ما أريد وسأدفع نفقات الحجز والرقابة والحرس وحمل المتاع ، ولقد استكتبونى صكا بقبول السجن ودفع ما أطالب به من نفقات ولم يكن يدور بخلدى أن فى الأمر شيئا خفيا

جىء بى إلى معسكر كبير وما أن دخلته حتى بدأت الغلظة الألمية والمعاملة التى تنكرها النفوس الأبية وبخاصة من رئيسهم المسمى (هلاول .) الذى بدرنى فى نغمة الأمر بقوله : أمعك نقود ؟ اسرع واظهرها ، ثم نظر الى شذراً وصاح : مالك تضرب فى مشارق الأرض ومغاربها هكذا ! ادفع ثمن هذا غاليا الآن ! قلت وما شأنك فى هذا ؟ انى مستعد أن أدفع ما تطلبون ، ثم هم يفتشنى بشكل قبيح وهو يقول : نحن لا نحب أن نرى وجوه المصريين هنا

قلت ألا يصح أن أعامل معاملة هى خـير من تلك كما وعدتمونى قال لا تعارض فتلك أوامر يجب ألا تناقش بعد أن وكزنى ووجهه مقطب كئيب ، ثم التفت إلى الحقائب وقال افتح هـذه لنرى ما فيها ثم أمرنى أن أخرج منها ما أريده داخل السجن ، وكلما أخرجت شـيأ قذفنى بنكاته القارصة ، من ذلك أنه رأى زجاجة (صبغة اليود) فقال حذار أن تشربها الليـلة ! ورأى المشط فقال : وكذلك الشعر لا بد أن تمشطه ! ورأى بعض

الكتب فقال وما تلك ؟ قلت بعض مؤلفاتى فى الجغرافيا والرحلات فقال : إذن فأنت الرجل الذى أبغضه منذ الصغر ! وما إلى ذلك من هراء القول . فثارت ثائرتى وقلت أنا لا أطيق هذه الاهانات وخير لى أن أعود إلى الباخرة ، قال لا فقد انتهى الأمر .

حملت متاعى والسجان أمامى يصيح فى خشونة (أدخل هنا !) وإذا بى أجوز باباً حديدياً مصمتاً فى أعلاه أعواد الحديد إلى ردهة صغيرة سماوية إلى يسارها صف من القاعات المختنقة المظلمة فاسدة الهواء إذ ليس بها سوى فتحات عالية مختنقة بها شباك الحديد والسلك ، أما الباب فحديد مصمت حاولت أن أحركه حول مفاصله لتتسع فتحة مدخله فلم أستطع لثقله ، وليس بهسوى ثقب مقبى يغشاه الزجاج وهذا ليطل خلاله السجان فيرى ما أنا فاعل داخل ذاك الجب ، أما الأرض فالأسفلت القاتم الأغبر والسقف ألواح الحديد ويلاصق الجدران لوحتان من خشب للجلوس أمامهما ثلاثة أسرة هى أعواد ثقيلة من خشب متباعد عليها قطعة من لباد أغبر وبطانيتان رقيقتان باليتان أقذر من أن تسيغ لك نفسك لمسهما ، تلك هى مقرى داخل السجن ، وفى الجانب الآخر من الردهة مقصورة للمياه تعاف النفس دخولها وصادف ان كنت فى كل هذا السجن وحيدا وقد ترك معى عبد أسود ضخم الجثة غائر العينين يراقبنى آنا ويتهادى مشيا على مرآى منى آنا آخر وكلما مضت فترة سمعت صليل أبواب وحدائد مزعجة واذا به حارس آخر

يدخل ليرمقنى ثم ينصرف ، وكان كلما دخل واحـد بدرنى قائلا (أمعك نقود ؟) . صور نفسك فى هذا الموقف ، وقد أرخى الليـل سدوله وساد السكون الا فى وطء أقدام ثقيلة لذاك الزنجى خلال فترات متقطعة . وكلما أقبل ميعاد الطعام وفد الغلام (بصينية) من حديد أسود صدىء بها بعض أطباق من الزنك والى جانبها (براد) من زنك قديم قذر به شاى مازجه اللبن ومنطال (كوز) لأتناول فيـه الشاى وأقسم لو وجدته فى مرحاض لما مسسته ، وهذا هو الطعام الممتاز الأوروبى الذى سأدفع عنه أ كثر من سبعين قرشاً كل يوم .

..جن الليل واشتد البرد ونوافذ الطاقات مفتحة ليس بها أبواب والفصل هناك شتاء قارس يعادل برد يناير فى مصر تماما ، ومفروض أنى سأنام ملء جفونى لأنى لم أنم الليلة الفائتة الا غرارا ! مفرش قذر يابس وغطاء منتن خفيف لا وسائد ولا تكآت والقاعة واطئة مرطوبة نز الماء يلمس فى جدرانها على انى لا أغمط القوم فضلهم فقد كان من وسائل الترف فى تلك الغرفة مصباح كهربائى ضئيل وقطيلة (فوطة) خيل إلى من شدة قذارتها أن الزنجى مسح لونه فيها . هكذا افترض أن أقضى ثلاث ليال كنت أسرح فى مداها اللانهائى واذا بالغلام يتحدث الى فيقول : متى تسافر ؟ قلت يوم السبت فى أول باخرة قال : ومن يدرى ! فطالما كان المسجونون أمثالك يقولون أننا سنسافر بعد يومين فيقيمون عشرات لا بل وشهورا ، قلت ولماذا قال لأن القوم هنا يستفيدون بطول المكث نفقات من المسجونين فيفوتون

عليهم باخرة وثانية وثالثة بحجة أنها ممتلئة وليس بها أماكن خالية . وأنا أعلم أن لو أفلتتني الباخرة المقبلة انتظرت بعدها ثمانى ليال أخرى حتى تجى الثانية !

قلت يالله أهكذا يعامل الأبرياء فى بلاد تدعى المدنية وتنتحل لها جنسية أوروبية نفورا مما تسميه بالهمجية الافريقية ، وهل بعد ذلك وحشية وتجرد عن الانسانية ! أهكذا يكافأ البحث العلمى الخالص فينقلب الثواب عقابا قاسيا ممضاً !

فى السابعة والنصف مساء أقبل الحارس وأخذ يحادثنى عن سبب سجنى ولما عرفنى قال : ولكن كيف يتصرفون مع رجل مثلك هذا التصرف المشين ، وأخذ يطعن على العقول المدبرة لتلك البلاد بشكل دلنى على أن الفساد شائع ، وهذا عين ماقاله لى الحارس فى الباخرة بالأمس ، وفى نهاية الحديث أبدى أسفه ولما أخذ ينصرف قال هذا (الجردل) لقضاء الحاجة ، ثم أغلق على الباب بمفاتيحه الثقيلة . أظنك تقدر مدى جولات الفكر فى عزلة القلق الأعزل ، أخذت الساعات تتلو بعضها البعض والسكون يزداد وحشة إلى منتصف الليل حين أضطجعت واذا بطفيليات البق وغيره تتسابق الى وتترامى على من كل جانب فقمت فزعاً عيوفا ، فكم من مجرم أثيم ملوث الدم موبوء الجسد لامست تلكم الحشرات ! لم يسعنى إلا المكث على مرارة الخشب بعيدا عن هذا الفراش الموبوء حتى الصباح ، وأخذت تمر الساعات وأنا كلما أسمع جلبة أخال الحارس أقبل ليفتح الباب فتزول بعض

الوحشة حتى الساعة الثامنة والنصف صباحاً حين فتح الباب وقدم طعام الافطار فى صمت وتقطيب ولبثت أتوقع أن يحمل الزنجى الفراش (والجردل) واذا بى أنا المكاف بذلك فلم تسغ لى النفس عمله وتركت الاشياء مكانها

كتبت للرئيس أقابله شاكيا شارحا ما لقيت فرفض طلبى وكم كنت أخشى أن يطول بى المكث ويفوتنى هؤلاء الأنذال الباخرة فأظل فى هذا الجب ما شاء الله وكم كنت أرى من نقوش على الجدران خطها من أصابهم سوء الحظ أمثالى فزجوا فى ذاك الجب وكلها تدل على الايلام الممض منها من يصف تلك البلاد التى تدعى المدنية بأنها أظلم ما على سطح الارض ، والبعض يشبه المكان بجهنم والبعض يكتب : سأبرح هذا الجحيم غدا بعد أن قضيت فيه شهرا ونصفا !

وفى الصباح كتبت أرجو مقابلة الرئيس للمرة الثانية فجاءنى الضابط البغيض (هالاول) وأخذ يتهكم فى قحة زائدة ولم يسمح لى بمقابلة الرئيس وقال إن كان لديك شكاية فها أنا ، فقلت له أيليق هذا المكان برجل مسئول مثلى سيدفع عنه جنيها فى اليوم ، قال : وأى مسئول أنت ! قلت موظف فى حكومة لاتقل احتراما عن حكومتكم ومدرس ومشتغل بالعلم والتأليف ، فأخذ يتهكم ويقول : نعم المكان لاعيب فيه فهل تظن أننا سنقيمه لك من جديد !

اقبلت الليلة الثالثة وأمضيتها على مضض انتظارا لما عساه يجىء به الغد وعند الفجر شعرت بألم مبرح فى أحد جنبى من أثر برد المكان

ورطو بته وحاولت أن أقاومه ولـكن ليس فى الوسع شىء ولو ناديت حتى اختنقت فلن يسمعنى أحد ، أخيرا أقبل الغلام بالافطار وهو يقول : أنت ستذهب الى الباخرة اليوم لأنى رأيتها على الميناء أمس ولأنى أخبرت المطعم ألا يجهز لك طعام الظهر فاستبشرت ، وفى العاشرة جاء الضابط الذى ابتلانى الله به ونادانى فى سوء أدب وخشونة قائلا : محمد ! محمد ! استعد للخروج فرمقته شذرا ولم أجبه فقال ستخرج بعد نصف ساعة وحاول أن يكون متظرفاً ، ولما خرجت وصعدت الى الطابق العلوى لأتسلم نقودى طلبت أن أقابل الرئيس ، فقال لماذا ؟ قلت أريد التحدث اليه ، قال ولـكنه خرج ولن يعود إلا يوم الاثنين بعد باكر فهل تنتظره ! فأسرعت وقلبي يسابقنى إلى الباخرة ، وأخذ بعض أتباعه يتألم لما حل به وقال بأن هؤلاء الضباط جميعاً أنذال تلك طبيعتهم هم يشوهون سمعة البلاد دائما ونحن الموظفون تحتهم لا نستطيع الـكلام نتألم لما يجرى أمامنا ونحن صامتون وهنا أقبل ذلك النذل وجلس الى جانبى وقال :

أظنك غاضبا ! قلت وأية نقمة وغضب وبخاصة لما لاقيته على يديك أنت شخصيا ! قال ولم ! قلت لأنك عاملتنى معاملة الـكلاب قال لم يحصل شىء من ذلك ، قلت فى صوت جهورى ألست أنت الذى قلت كيت وكيت وذكرت بعض اهاناته لى ولما رأى جموع المسافرين منصتين لقولى ، قال : بل كنت أمزح لأنى رأيتك فى موقف حرج فأردت أن أسرى عنك قلت هل تبادلنا الاخلاص والتعارف من قبل وهل تقاطيع وجهك كانت تدل

على المزاح ، وهل قولك بانكم لا تحبون المصريين قول المازح ؟ قال إذن ستشكونى خاصة قلت نعم إلى كافة النواحى المسئولة فى مصر وانجلترا بل وفى كل بلد أتصل به ، فبدت عليه علائم الارتباك وقال لكن حذار أن تقول غير الصدق فأنا خادم الحكومة أنفذ قوانينها فحسب ، قلت نعم لكم أن تمنعونى من الدخول فى بلادكم ولكن ليس لكم أن تلحقوا بالناس مثل تلك الاهانات فليس ذلك من القانون فى شىء ، فتركنى وأقلعت الباخرة والناس من حولى أقص عليهم أمرى فيذهلون ويستنكرون ويرمون القوم بكل خسة وتوحش

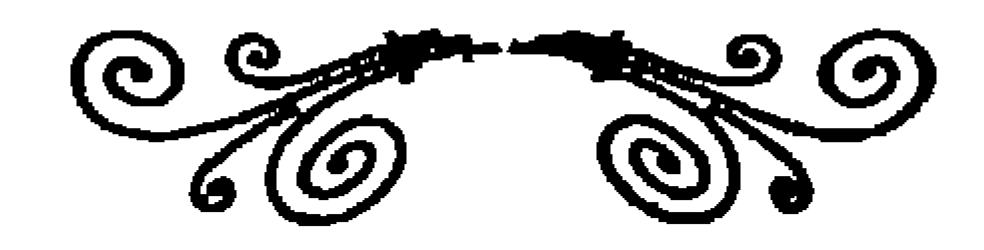
هنا باغتنى شاب نمساوى قائلا : لقد أخطأت التصرف فلقد حل بى مثل ذلك يوم حللت البلاد منذ ثلاثة شهور لكنى كنت أحسن حظا منك إذ لجأت إلى تصرف مالى مهد لى سبيل الدخول ولقد أيد ذلك كثير من المسافرين ومن بينهم بعض العائدين من الانجليز !

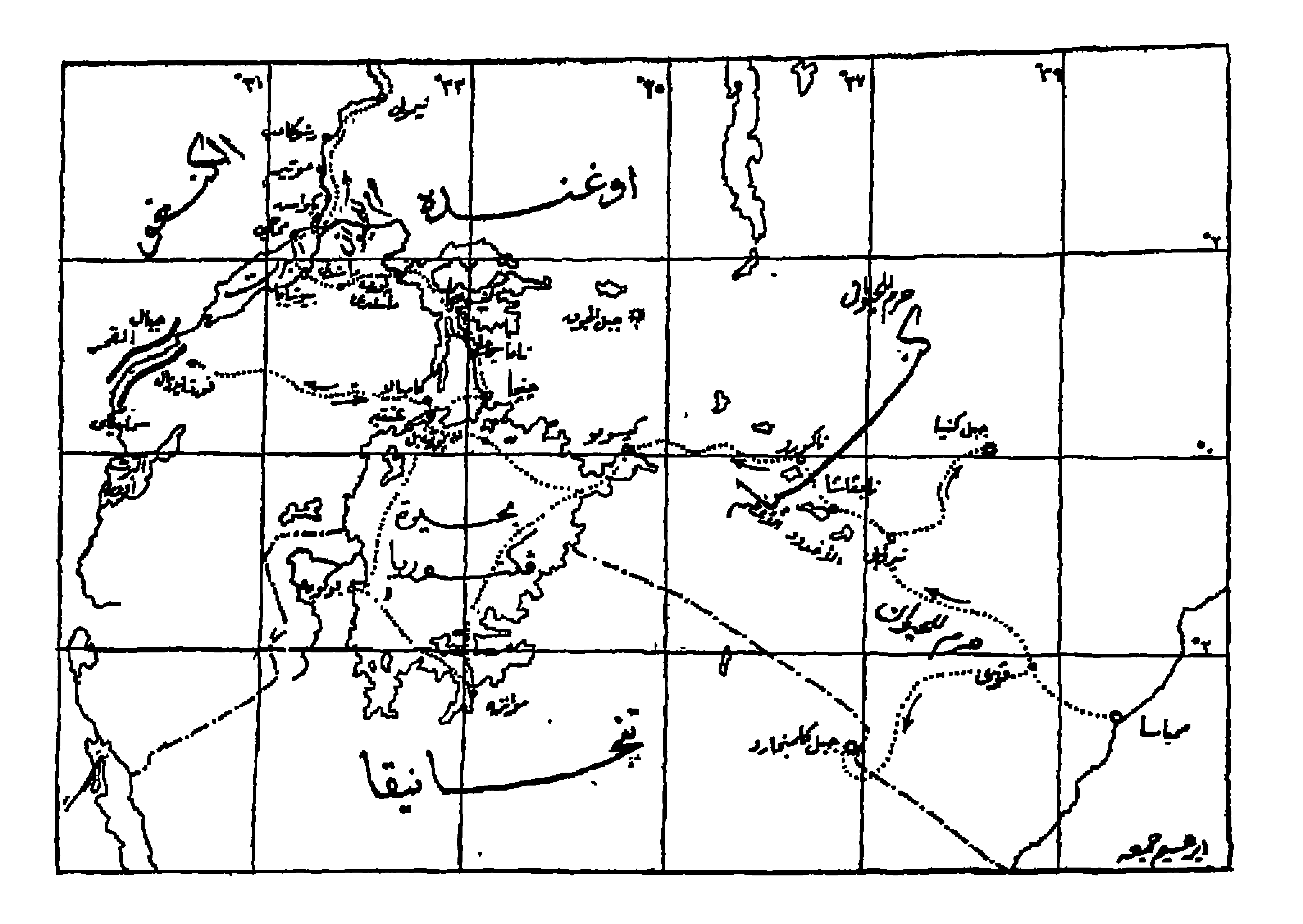
وقد شرعت أكتب احتجاجى لرجالاتهم وكبريات جرائدهم من ظهر الباخرة ، فجاءنى رد جريدة (ناتال مركورى) بأنها عاينت مكان السجن فاذا به حوشى مشين ، ورد وزير داخليهم فى شبه اعتذار بأن القانون قضى بذلك ويؤكد فى آخر خطابه بأنى (على الأقل لاقيت أحسن معاملة على أيدى رجاله !) فعجبت لتلك المغالطة اذ كيف تعد تلك الشتائم وذاك السجن المرزى من حسن المعاملة .

غابت عن ناظري تلك البلاد التى سأظل أحمل لها أسوأ الذكريات ، بلاد لم

ترع للعلم حرمة ولا للمجاملات الودية عهدا ، ولكن كيف تفعل ذلك وهى تعد مصر والمصريين — بنص قوانينها — من الأمم المنحطة التى هى دون بنيها مقاما . ولقد علمت لما أن عرضت شكواى على القنصلية البريطانية فى القاهرة أنهم يضعون مصر فى زمرة الشعوب الملونة (Coloured) المنحطة فى زعمهم ولو أنى علمت ذلك وأنا هناك لكان لى معهم ازاء تلك الاهانة الكبرى شأن آخر . والعجب أنا نظل سكوتا فلا نطالب بمحو تلك الوصمة أو على الأقل بمقابلة المثل بالمثل ، فلم لا يمتنع أبناؤهم من الدخول إلى بلادنا على نحو ما يفعلون معنا ؟ هل غفلوا عن أصولهم فعدوا أنفسهم من السادة وهم من نعرف من أصولهم ما نعرف ؟

ولكن حسبنا أن نتغنى بأننا كرماء لضيوفنا وهم بنا مزدرون ولحقوقنا غامطون !




اوغندة
بحيرة فكتوريا
تنجانيقا
جبل كينيا
ممباسا
ابراهيم جمعة

بلاد كنيا

عود الى ممباسا : ركبت البحر عائداً من حيث جئت ومررت ثانية ببلاد افريقية الشرقية البرتغالية ثم بلاد تانجانيقا ثم بلاد كنيا ولما ان حللت ممباسا قمت بقطار (البضاعة) أخترق قلب بلاد كنيا ، ولم يوافق



(تبدو هضبة كنيا موسم الجفاف شبه صحراوية)

يومى يوم قطار المسافرين (mail)وذلك يقوم مرتين فى كل أسبوع ، وفى كل يوم عدا هذين قطار للبضاعة تلحق به عربة أو اثنتان للمسافرين .

أخذ القطار يسير بنا وسط جنة من النبت الوفير والشجر الكثيف وكان أظهره النرجيل والمانجو و بعد مسيرة خمسة عشر ميلا وهى عرض السهل الشرقى الساحلى الوطىء أخذنا فى الصعود السريع فى ليات عجيبة

وبين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد مغضنة وفيرة النبت عديدة النقائع مشعبة المسايل فى مشاهد خلابة حتى أقبل الليل ، وكان كلما تقدم القطار قل النبت فصار عشبا ، وفى الصباح كنا نسير فوق هضبةشبه مجدبة شتان بينها و بين المنحدر الساحلى الذى كان بالأمس غنيا بالشجر ، وكاد الشجر ينعدم فى تلك البرية شبه الصحراوية ألا فى شجيرات نصف شائكة والارض يكسوها كلأ جاف لذلك يسميها الأهلون (Nyika) ومعناها البرارى وأجف جهاتها قطعة وسطها تسمى تارو (Taru) ، وزاد الاقليم جفافا أنا كنا نجوزه أبان موسم الجفاف الذى يكاد ينعدم مطره ، والمحاط صغيرة ونائية عن بعضها والجهة تكاد تخلو من الاهلين اللهم ألا جمهرة من السود كانوا يفدون الينا كلما وقف القطار من أكواخهم المنثورة وكانوا فرحين كأنهم وجدوا بعض الانس فى ضوضاء القطار ، ويختلط بهم كثير من الهنود الذين يكونون السواد الأعظم من موظفى المحاط والقطر ، والكل يتكلم السواحلية التى يفهمها الجميع وان كان لكل قبيلة لهجة خاصة لا تفهما جارتها فالسواحلية أصبحت لغة التفاهم (Lingua Franca) وهنا فاجأتنا سحابة كثيفة من الجراد الذى يغير على الاقليم منذ ست سنين ويهدد المزارع وطالما فتك بأنتاجها ، وكثير من الاهلين عرايا إلا فى أزار فضفاض من الجلد و بيدهم القسى والسهام والى جانبهم الخناجر الكبيرة على فطرتهم الاولى ، أما الجو فكان أميل الى البرودة و بخاصة فى الليل و با كورة الصباح اذ حا كى شتاء مصر تماما — رغم أنا نقارب خط الاستواء بقلب المنطقة



قمة جبل كلمنجارو أعلى ذرى أفريقية وأصلها كأس لبركان خامد تبدو كالطبق المقلوب

الحارة . وذلك من أثر الارتفاع الذى كان يناهز خمسة آلاف قدم وكانت السماء صافية مكنتنا أن نمتع البصر بمشهد :

جبل كلمانجارو : أعلى ذرى أفريقية جميعا يشمخ فى السماء الى ١٩٧١٠ قدم تتوجه عمامة من الثلج الوضاء علوها ٧٠٠٠ قدم وحدها ولذلك لم أعجب لما علمت أن معنى كلمان جارو الجبل الأبيض وأصله بركان خامد تكسو جوانبه الغابات من علو ٦٠٠٠ الى ١٠٫٠٠٠ قدم تحتها شجيرات وأعشاب ومزارع تعم مدرجاته الهادئة وفوقها عشب قصير الى ارتفاع

١٣٫٠٠٠ قدم حيث تبدأ الثلوج ، تلك التي تبعث بألسن من الثلاجات عديدة تنزل إلى علو ١٢٫٥٠٠ قد في جنوبه الغربي وإلى ١٨٫٧٠٠ فقط في الشمال ويسمي شعوب المساي ذروته الغربية المسماة (كيبو) ببيت الله (نجاحي نجاى Ngaji Ngai) ويعلل البعض ندرة ثلوجه على سفوحه الشمالية والشرقية التي كنا نراها الى تيار هوائي دفيء يمر في سماء تلك الجهة ، وقد حدثنا بعض القوم بأنه يرى في أعلاه وكأنه الأناء المقلوب وهو أسهل جبال أفريقية جميعاً لمن أراد تسلقه ، وان تلك الغابات التي نراها ملتفة كثيفة الى حد مخيف يليها علوا أقليم شبيه بجبال الالب في عشبه وزهوره ثم يعرى أديم الجبل في صخر بركاني قاتم مسافة طويلة تؤدى بنا الى الثلوج الوضاءة وهناك يخف ضغط الهواء لدرجة تجعل نبرات القلب تدق سراعا حتى لتكاد تسمعها فيمن يجاورك من الصاعدين ولا تقوى على احتمالها إلا القلوب الراسخة القوية وسكة الحديد يخرج منها فرع عند محطة (فوى) الى حجر ذلك الجبل العتيد ، وكانت أخص المزارع أسفله من البن والموز تتصاعد أعمدة الدخان من آلاف الاخصاص المختبئة فيها .

واصل القطار بنا سيره في قلب كنيا وما لبث أن وقع البصر على جماهير من الحيوان البرى في أنواع مختلفة وقطعان لا تدخل تحت حصر ذات اليمين وذات الشمال تعرفت من بينها الزبرا والزراف والتياتل والنعام . هنا علمت أنا نجانب أكبر حرم للحيوان في الدنيا (Game Reserve) لا بل أكبر حديقة طبيعية للحيوان يحرم القانون



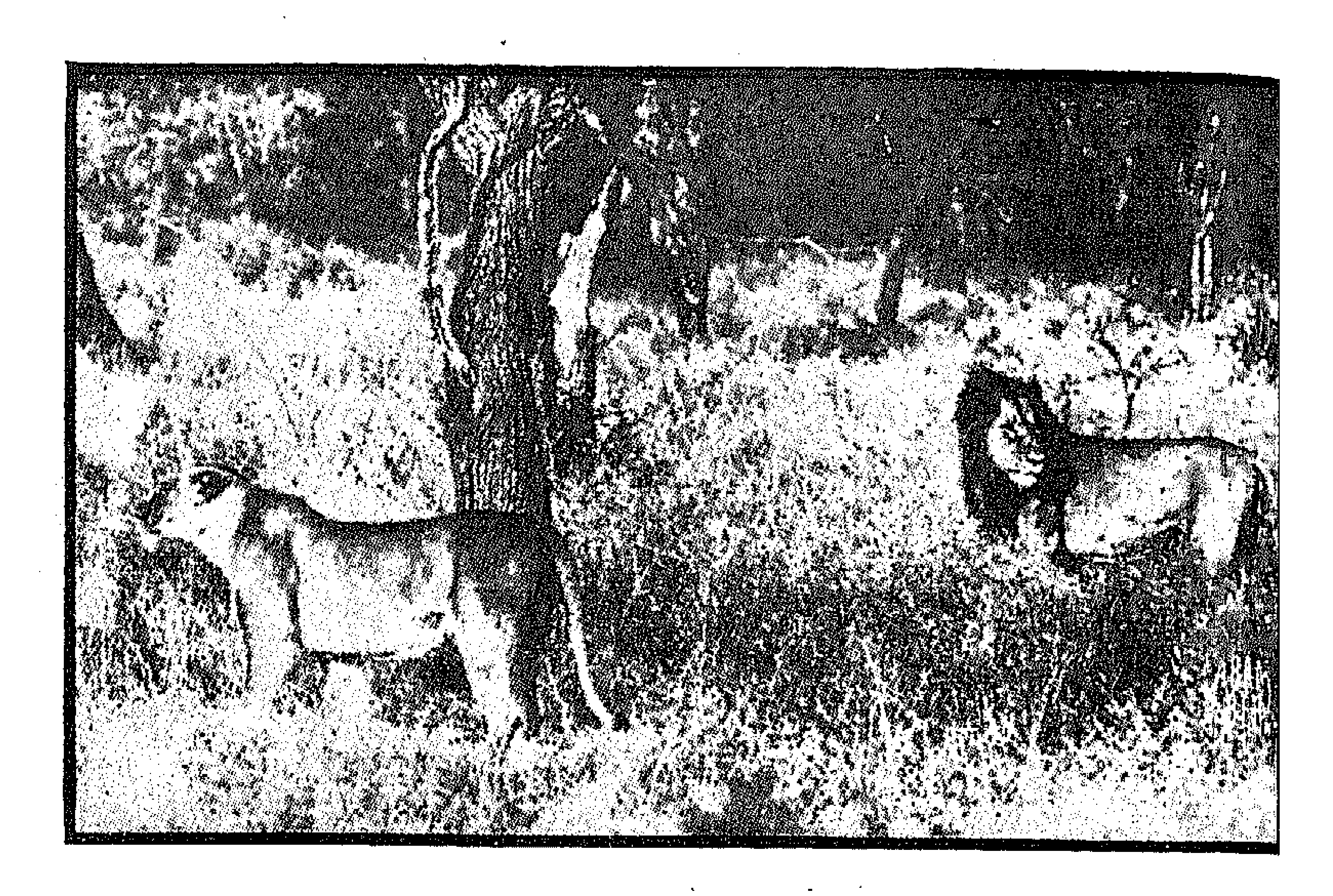
(قطيع من وايلدبيست فى حرم الحيوان)

صيد الحيوان أو قتله داخل حدوده ، ولقد كان شريط سكة الحديد هو الحد بين الحرم إلى اليسار والصيد المباح إلى اليمين ولبث كذلك زهاء ثلث الطريق بين ممباسا ونيروبى عاصمة كنيا وجموع الحيوان تبدو قريبة منا فى كثرة هائلة و بعضها كان يسير وراء رئيس كأنه القائد وكأن الحيوان قد عرف حرمه فأذا ما أحس قرب القطار وكان إلى جانبنا الايمن خارج الحرم عدا سراعا إلى عبور الخط إلى يسارنا وهناك أبطأ السير ثم وقف يرمقنا بنظراته وكأنه أمن شرنا واحتمى فى القانون متحديا أيانا ونحن نشير إليه بايدينا فلا يعيرها أهمية،وليلة الأمس دهم قطارنا زرافة وهى تتخطى القضبان فقتلها ، ووقف لذلك برهة فكنا نرى الجمع الباقى من الزراف يقف آمناً مستأنسا وقد حاولت أخذ صورة شمسية لتلك القطعان لكن كانت تعوزنى

(العدسة المقربة) التى يستخدمها هواة الحيوان وقد خبرنى القوم أنهم كثيرا ماراأوا جمعا من الحيوان يجفل و يولى الأدبار فى ذعر شديد لأنه أبصر بأسد كاسر على بعد منه ، ومن أنواع الحيوان التى لم أرها من قبل : الجاموس والبقر البرى ويسمون نوعا منه جنو ، وآخر اوريبى والهارتبيست والويلدبيست و كثير غيرها

حرم الحيوان ومسرحه : لبث الانسان زمانا يبرر قتل الحيوان البرى لأسباب منها الاستفادة باستغلال الاراضى الزراعية والأشجار فيما يصيد من الحيوان إلى ذلك مايستفيده صحيا من وراء مطاردته ومن اتقاء الاوبئة التى يحملها هذا الحيوان لكن الفكرة السائدة اليوم حماية الحيوان فى مساحات من الارض تعتبر إما ملكا عاما أبد الدهر ويطلقون عليها مسارح الحيوان (National Park) وأما حرما يمنع القانون صيد الحيوان فيه حتى ينسخ ذاك القانون بقرار برلمانى ويسمونه (G. Reserve) ويراعى فى تلك البقاع أن تلائم الحيوان الذى يراد حمايته وأن تكون شاسعة غنية بالاعشاب والمياه وأن تنأى عن البقاع التى يراد ترقيتها وأن يسهل على الزوار دخولها وأن يندر سكانها ومعادنها لذلك تنتقى غنية بالمناظر الجذابة والجو المغرى الجميل .

ولقد بدأت تتغير وجهة نظر هواة الصيد فبعد أن كان يلذ للانسان صيد الحيوان والاسراف فى قتله ذاك الاسراف الذى خشى معه انقراض كثير من فصائل الحيوان — آثر اليوم استخدام آلة التصوير ذات



(سباع مجاهل كنيا طالما تفتك بالكثير من الاهلين)

العدسات المقربة بحيث يمكن تصوير الحيوان وجموعه وهى فى حالتها الطبيعية الى ذلك فان تلك المسارح أصبحت خير الوسائل لدراسة الحيوان خصوصا وأن الحكومات أقامت بها جواسق يستأجرها الرواد بثمن زهيد ومن أشهرها مسرح (كروجر) فى شرق ترنسفال فى جنوب أفريقية ومسرح البرت شمال شرق الكنغو البلجيكية بين بحيرتى ادورد وكيفو ويؤمها من العلماء ما يقرب من ١٥ ألفا كل عام . أما حرم الحيوان فتتعدد خصوصا فى كنيا واوغنده والسودان

والحيوان لاشك متأثر بالعشب حوله ففى مرتفعات شرق أفريقية حيث يكثر الغذاء طوال العام لا يرغم الحيوان على التجول بعيداً كما هى الحال فى رودسيا ونياسالاند والعادة أن حيوان المناطق التى تكثر بها الشجيرات

أكثر تجوالا وسفراً من ساكن السهول ، الى ذلك الألوان الواقية للحيوان التى تجعله يحكى الوسط من حوله فان لم تكن واضحة استعيضت بقوة الحواس الشم والبصر والسمع ، وقد قيل أن القرون من أكبر العوامل فى ارهاف السمع الى ذلك خفة الحركة والرائحة الكريهة التى تنبعث من بعض الحيوان واللحم كريه المذاق ، وعجبت من بعض الغزلان فى أفريقية لأن أنثاه تفقد رائحتها تماما اذا ما قاربت الوضع لكيلا يهتدى عدوها الى مكانها وفى يومين أو ثلاثة من ميلاد صغارها تعدو فى سرعة الأم تماماً ، وبعض الحيوان يشتم رائحة عدوه على بعد ثلاثة أميال والبعض كالنسر مثلا يرى بقع الدم على الأرض من علو عشرة آلاف قدم ولعل للحيوان أحساسا لاسلكيا لم يتوصل اليه ماركونى إلا هذه الايام يهديه الى ما يحوطه من خطر حتى فى حلكة الليل . أليست الغريزة التى أوتيها الحيوان أبعد أثرا من العقل الذى وهبه الانسان !

ولقد كانت أفريقية غاصة بالحيوان فى بدء كشفها حتى أن الكاشفين كانوا يطلقون اسم الحيوان الشائع على الأنهار والجبال والبحيرات وما اليها لكن دخول الجنس الابيض طاردها الى المجاهل فالسباع مثلا كانت تجوب القارة كلها الى الكاب وكان كثير منها يوجد فى حدائق المنازل هناك أما قطعان الغزال — ذاك الذى فاق ٣٢ فصيلة — والزبرا فكانت تسد الآفاق لكن اسراف الناس فى قتلها أباد كثيرا من أعدادها لابل وفصائلها ولا تزال شرق أفريقية تغص بالحيوان على اختلافه . ولقد قص



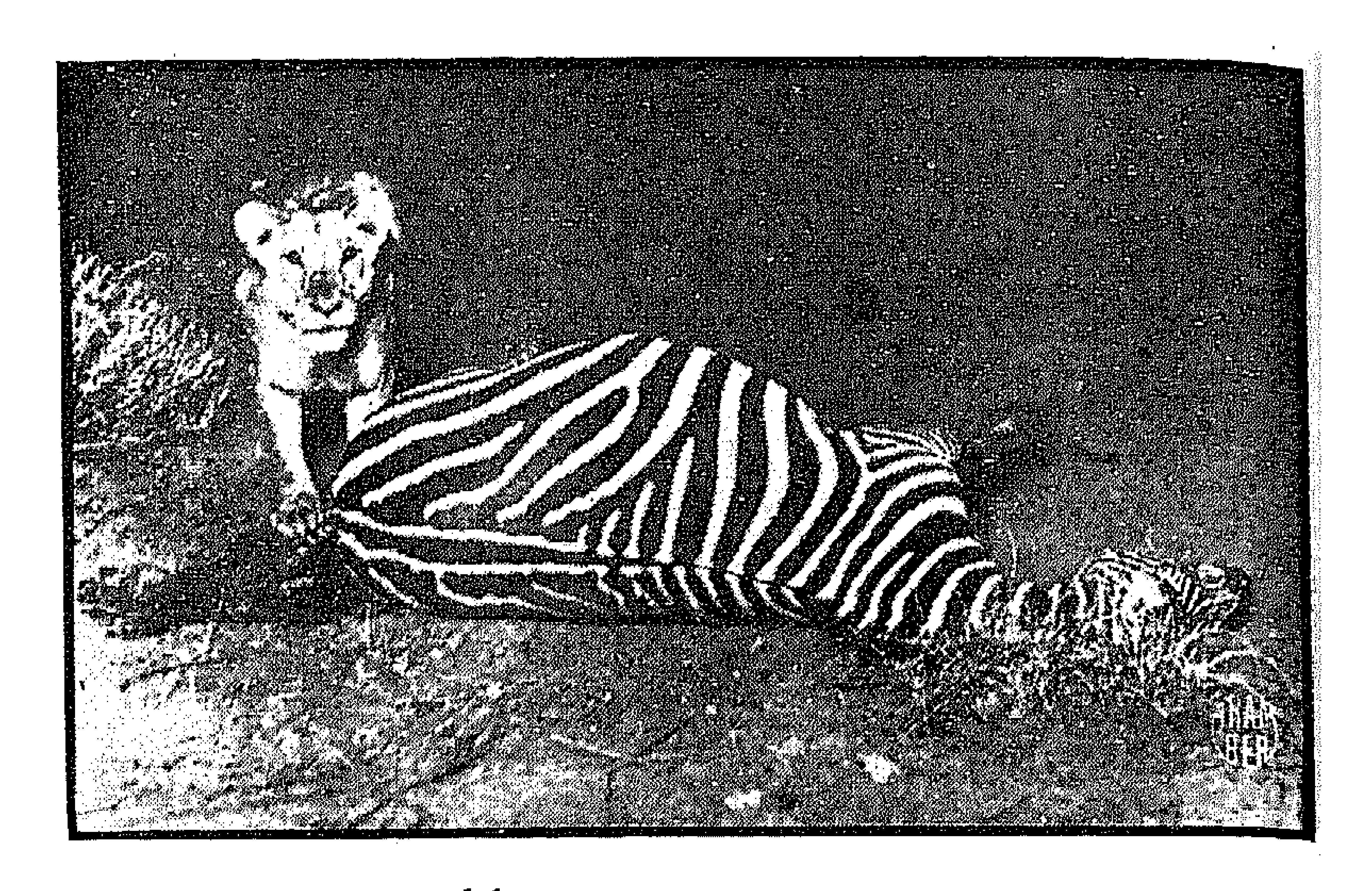
(ملك الغاب)

على القوم هناك من أنباء الحيوان وعاداته شيئاً كثيرا نروى هنا بعضها :

السبع : يعرفون منه فى أفريقية ثلاثة أنواع ذا الرقبة البيضاء والحمراء والسمراء وهذا أشرسها والنوع الذى يوجد شمال السودان لا معرفة له وهو أقل وحشية ومتوسط طول السبع من الذنب الى الانف ثلاث ياردات ووزنه بين ثلاثة قناطير وخمسة وينقص وزن الانثى عن الذكر بمقدار الربع ، والاسد يعمر بين عشرين سنة وثلاثين ، وهو حيوان يسير فى جماعات ويهاجم كذلك فى جماعات ، وهو يمتاز عن الشيتا — نمر أفريقية الارقط — بذنبه الذى يجره فى الارض وراءه إذا سار على عكس ما يفعل الشيتا ، وهو لايهاجم الانسان قط إلا اذا كان جائعاً والجروح التى يحدثها سامة ، وقوته لايصدقها العقل حتى قيل أن الأسد يستطيع قفز حائط مرتفع وفى فمه عجل وخير الطرق لقتله أن تصوب الرصاصة بحيث تخترق الحلق

الى الرئتين أو بين العينين ، واذا أصابت الكتف أعجزته عن السير لكنه يظل حيا ساعات وهنا الخطر الاكبر ، ومعرفة السبع تخف عادة اذا كان من سكان الشجيرات وزئيره نتيجة لذبذبة فى الحلق لا تصحبها حركة ظاهرة فى الفم ولذلك ينخدع السامع فى تحديد مصدر صوت السبع على بعد ، وهو يزأر ليلقى الرعب فى قلوب فرائسه ، واذا شبع لا يهتم أبدا بما يرى من صيد وحيوان ويعرف سائر الحيوان فيه ذلك فلا يعبأ به وهو شبعان وكثيراً ما يخترق السبع قطيعا من الزبرا أو الهارتبيست فى شرق أفريقية وهى لاتتحرك ، وكم فتك السبع فى كنيا بالجماهير من الناس أبان مد سكة الحديد بين ممباسا وفكتوريا حتى أن الأهلين كانوا يعتقدون أن أرواح زعمائهم تحل أجساد تلك السباع لتفتك بمن يشتغل فى مد الخط لأن ذلك كان فى زعمهم أهانة كبرى لهم ، ويظهر أن السبع يلعق جلد الانسان ليشرب دمه طازجا قبل أكل لحمه وقد ثبت ذلك من الجثث التى انقذت من براثن السباع قبل تمام أكلها اذ كانت ترى قطع من الجسد وقد أزيل عنها الجلد وبدا اللحم من تحتها جافاً خاليا من الدم

والسبع يتعقب فريسته فى سكون ثم يهاجم على أن الفرقعة تزعجه، حدث مرة أن هاجم سبع تاجراً على حمار فى محطة (فوى) وقبل أن يمسك به ذعر الحمار فدوى رنين بعض الآنية التى كان يحملها فخاف السبع وفر هاربا واذا فاجأ قوما وصاحوا فى وجهه ولى عنهم ، وعجيب أن يبدأ السبع أكل فريسته من الذنب متجها نحو الرأس فكلما أزعج وترك فريسته كان



(أحب اللحم للسباع حمار الوحش والسبع يبدأ أكل فريسته من ذنبها)

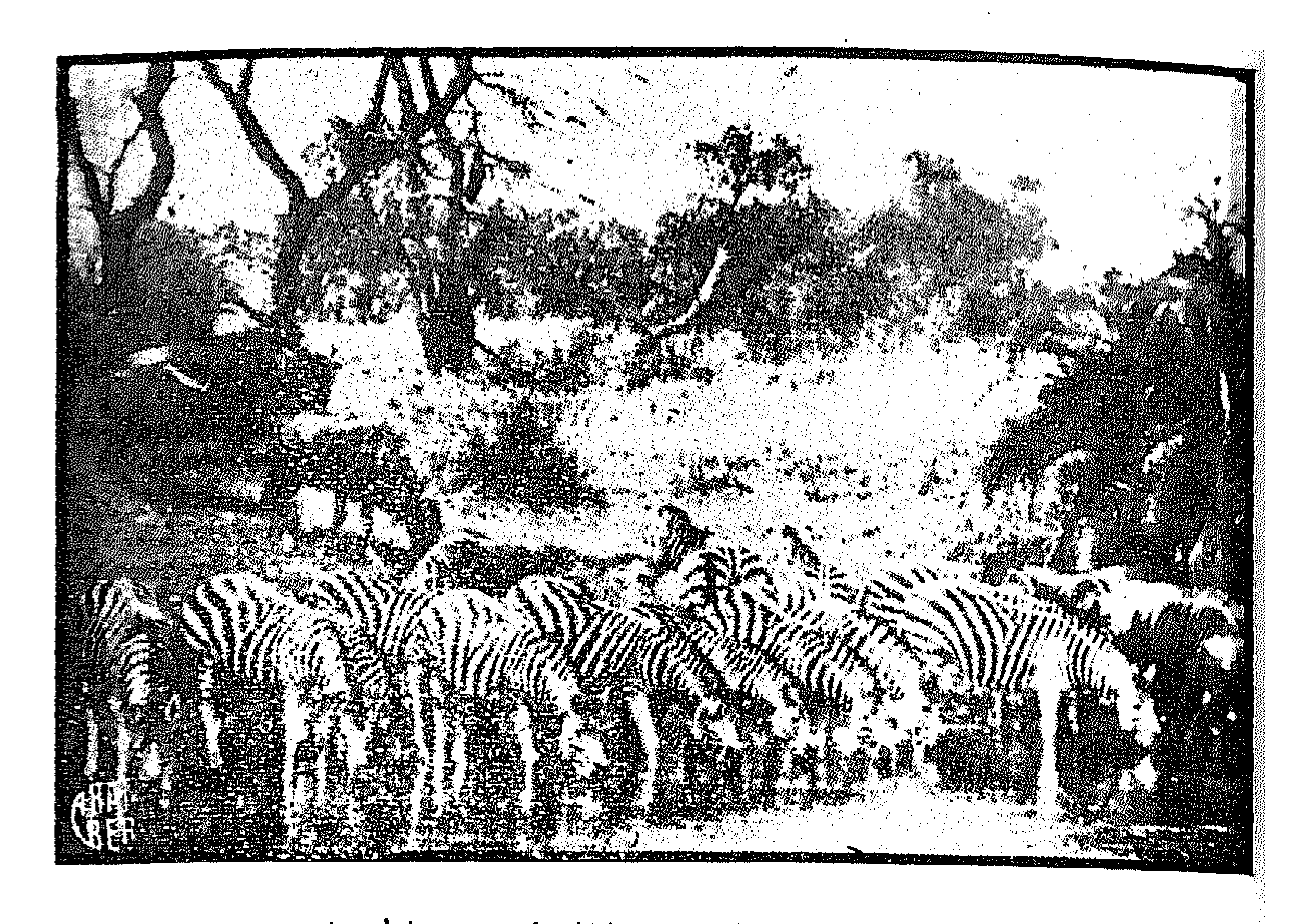
أسفلها منهوشا ، وقبائل (واكامبا) هناك تلتهم لحوم السباع والفهود نيئة بعد سلخ جلودها ، ويعتقد الهنود أن شحم الأسد خير علاج لمرض (الروماتزم) وأمراض أخرى واذا أكل السبع قصد مجرى للشرب وعندئذ يستلقى فى أول مكان ظليل يلاقيه دون أن يهتم بأحد ، فهو لا يخشى حيوانا قط سوى الانسان والى الآن لا يزال الانسان فى أفريقية بعيداً عنه ومن أحب اللحوم لديه لحم الزبرا ، والعجب أن يتبعه ابن آوى أو ضبع ويقترب منه وهو يأكل فريسته وكلما لمس اللحم نفر السبع فيه فتنحى قليلا ثم عاود الكرة وأخيرا يأكل ما تخلف من الاسد ، ويقول الاهلون ان السبع يأكل لحوم جميع فصائل الحيوان اذا دعته ضرورة الجوع حتى لحوم السباع نفسها لكنه يأنف من لحم الضبع وابن آوى ، فهو لا يأكلها ولو أشرف

على الهلاك جوعا وذلك احتقاراً لشأنهما .

ولا يزال السبع يكثر جداً فى أوغندا وشرق السودان إلى حدود الحبشة وأجمل أنواعه فى بلاد كنيا ، وقد خبرنى ناظر احدي المحاط وهو هندى أنه كثيراً ما كان يستيقظ ليفتح الطريق للقطار ، واذا بسبع أواثنين قد كمنا تحت مقاصير المحطة وزئيرهما يصم الآذان فلا يجسر أن يفتح الباب ويظل القطار واقفا وهو يصفر حتى تذعر الاسد وتفر ، وكثيرا ما تهاجم أرصفة المحاط فيختبىء العمال داخل المكاتب وفى مخازن الماء (الفناطيس)

ومن الحيوان المفترس كثير الوجود هناك الى جانب الأسد الفهد والشيتا : فالفهد أصغرمن النمر قليلا وزنه قنطار ونصف ولعله أخطر حيوان فى الوجود اذا جرح وهو من أصعب الوحوش مراساً وأشدها حذرا بحيث يتعذر قنصه أو ضربه وموطنه الشجر والغاب وطعامه من القردة والغزلان والدجاج والفيران واذا أعوزته تلك سطا على الخراف ولخطره يطارده الناس ويقتلونه أنى وجد ولذلك ندر جدا .

والشيتا : يصعب تمييزه من الفهد ولا خطر منه الا اذا جرح وحتى وهو جريح لا ينكص راجعاً على صياده ولونه جميل أصفر أو أحمر تزينه بقع سوداء وبطنه أبيض وذنبه طويل لكن يظل مرفوعا وهو يترنح فى مشيته وهو أسرع الحيوانات طرا وقيل أنه يجرى بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولسهولة صيده كاد ينقرض والشيتا هو نمر أفريقية الارقط إذ لا يوجد نمر المخطط فى تلك القارة أبدا .



(قطيع من « الزبرا » يرد الماء فى حرم الحيوان)

الزراف: كم كان يروقنا منظر أسراب الزراف وهى تتهادى فى مشيتها ورقابها الطويلة تترنح وأعجب ما ترى الزرافة وهى راكضة أو رابضة على الارض بجوار شجيرة ورأسها يشمخ وكأنه جذع له شعاب واذا قاربتها ألفيتها وديعة اليفة ، علوها وهى واقفة فى مسقط رأسى من طرف قرنها الى الارض قد يقارب ستة أمتار ولها قرنان قصيران يغطيهما الجلد ونتوء من عظم يطول كلما تقدم الحيوان فى السن حتى يرى أحيانا وكأنه قرن ثالث وخلف الدماغ قرنان صغيران جدا ، وقوة البصر لديه حادة ولحمه لذيذ وجلده قيم فى صنع السياط الطويلة فقد تتخذ منه سيور فى طول يفوق ستة أمتار اذا شق الجلد بطول الرقبة ، والزراف يكثر فى السهول الجافة كثيرة الشجيرات

والاعشاب الشوكية على أنه آخذ فى الانقراض ولذلك حرم قتله بتاتا ، وكثيرا ما تشتبك رقاب الزراف بأسلاك البرق فتقطها وهى تجرى فى الظلام وشعر ذنبها سميك تتخذ منه بعض الاساور أحيانا .

النعام : ومن أكثر الحيوان ذيوعا هناك النعام بين أغبر رمادى وأسود — وغالب الذكور كذلك — وقد استأنس القوم منه الكثير — خصوصاً فى جنوب أفريقية — وأول أفراخ استؤنست منه فى سنة ١٨٥٧ ثم أخذ ذلك فى الانتشار حتى داهم التجار انحطاط ثمن الريش اليوم الى حد أخذ يهدد تربية النعام بالانقراض وقد أرسلت حكومة جنوب افريقية بعثة سنة ١٩١١ لجلب نعام شمال افريقية وغربها وهو أجود لأن ريشه أقصر وأكثف ومتوسط ما ينتجه الطائر بين ٢٠ — ٢٦ أوقية من الريش و ٦٠ — ٦٢ ريشة طويلة بيضاء و ٦٠ — ٧٠ ريشة سوداء هذا خلاف الريش القصير، والظليم (ذكر النعام) يزيد انتاجه الثلث على انتاج الأنثى ويربى النعام بالتفريخ عادة فتوضع الطيور الكبيرة فى زرائب مساحتها عشرة أفدنة حيث يعنى باطعامها يومياً ويجب ألا تزعج بأية حال ثم تؤخذ صغار الأفراخ الى زرائب مساحتها حوالى مائة فدان حيث يعنى بها وباطعامها بقصوص العشب وهشيم العظام والحصى وما شاكلها ، وأكبر عدو لها ابن آوى ، ويتقى القوم شره بوضع الأفراخ داخل حظائر تغلق ليلا ، ولما كانت الذكور كلفة بالنزال وضرب أندادها فصل بينها بسياج من شوك ويفرخ زوج النعام ثلاث مرات فى السنة وتفقس كل مرة بين ١٦ و ١٧



(الشيتا أسرع الوحوش قاطبة)

بيضة و يؤتى الفرخ نتاجه من الريش فى الشهر السادس من سنه وذلك بأن تقص أطراف الريش وتترك خوافيها ثلاثة أشهر حتى تذبل ثم تنتزع دون أن تسبب للحيوان ألما ، و بعد ذلك بستة شهور أخرى يبدأ المحصول الثانى بالنظام نفسه وخير أنواع الريش ما نمت فى الربيع والخريف ولقد هم القوم سنة ١٨٨٠ بتربيته و بنوا عليه آمالا تبشر بالأرباح الطائلة فبلغ الثمن لزوج النعام ٢٠٠ جنيهاً واذا كان من نوع ممتاز بيع الزوج بألف جنيه ، ولما نزل سعر الريش عقب سنة ١٨٨٦ أفلس الكثير من التجار ، ثم عاد الثمن الى الصعود حتى بدء الحرب الكبرى حين هوى الثمن من ثلاثة جنيهات للرطل الى جنيه ونصف فكان ذلك ضربة قاضية يضاف اليه الجفاف الذي

ـ توالى هـذه السنوات وكذلك التغير الذى حدث فى أزياء الناس وأذواقهم مما نزل بعدد النعام الى العشر فى جنوب افريقية فعدد المستأنس منه اليوم ١٠٤ ألفاً تغل سنويا ٨٦½ ألف رطل ثمن الرطل نصف جنيه ، وتفرض الحكومة غرامة مائة جنيه على من يصدر النعام وخمسة جنيهات على من يصدر بيضه ، وفى سنة ١٩٣٠ بدأ يدخل الريش فى النسيج بنسبة ٧½ ٪ ويمكن أن يزاد الى ٢٥ ٪ كذلك بدأ القوم يدبغون جلد النعام الذى يساوى الواحد منه ربع جنيه ويباع لحمه بخمسة قروش للرطل مما جعل قتل الحيوان أربح من تربيته فأخذ هذا يهدد بانقراضه ، وجلده هذا متين جداً مخطط تخطيطا غريبا يلائم القفازات والحقائب (المحافظ) والفُرُش ، وغالبه يصدر الى أمريكا ، ويلاحظ نقص شديد هذه الأيام فى الصادر من منتجات النعام فى شمال أفريقية وغربها والريش الافريقى يفضل ريش استراليا وارجنتيا بأمريكا كثيراً فى جودته ، والنعام أكبر الطيور حجماً ومن أشدها حذرا وأقواها بصرا لكن مخ النعامة لايزيد على مخ الغراب ولحمها لذيذ الطعم جداً والسباع تحب لحمها ويغتبط الأهالى إذا رأوا أسدا يفترس نعامة لأنهم يسرعون الى المكان لأخذ الريش الثمين ، والنعامة تأكل أوراق الشجر والحشرات كالعقارب والجعلان وكذلك الحصى ان دعتها الضرورة

نيروبى : فى ثمانى عشرة ساعة بعد قيامنا من ممباسا وصلنا نيروبى عاصمة مستعمرة كنيا البريطانية . وهى تقوم فى وهدة تنغض من حولها التلال ، وهى على علو ٥٤٩٠ قدم لذلك كان الجو بها باردا وبخاصة لما جن



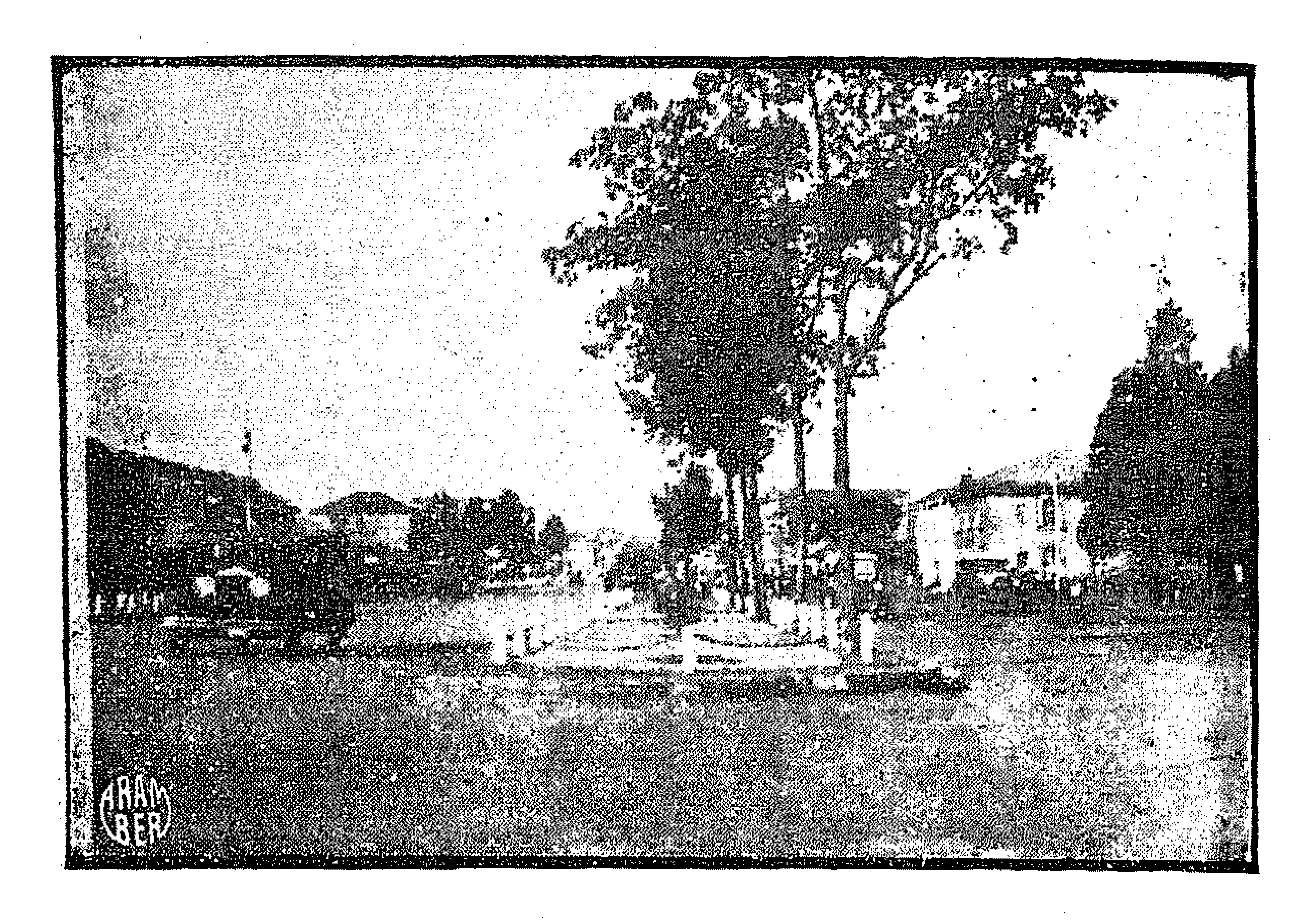
(قطيع من الزراف)

الليل حين كنت أشعر برعشة شتاء مصر القارس وأنا فى غرفتى مساء ، وهنا أدركت حقا أثر الارتفاع فى زيادة الفرق بين حرارتى الليل والنهار وأن الليل هو شتاء تلك الاقاليم الاستوائية المرتفعة والمدينة لم تكن شيئا منذ ربع قرن حين كانت مجموعة من أكواخ بائسة أما اليوم فهى مدينة ذات مبان فاخرة وطرق معبدة فسيحة تتوسطها المزارع ويجانبها الشجر فى تشذيب جميل على أن اختيار موقعها لم يكن موفقا لانها عرضة لسيل المطر الذى يهوى إليها من النجاد حولها أبان المطر وموسمه هنا مرتان من مايو الى يوليه ، من اكتوبر الى ديسمبر فتصبح رطبة نزة ، وقيل أن سبب اختياره أن عاملا زنجيا ممن كانوا يشتغلون فى بناء سكة الحديد كان يحمل قضيبا من حديد

ولما وصل تلك البقعة أجهده الحر والتراب فألقى به هنا ولما جاءه المهندس قال لا بأس باتخاذ هذا المكان قاعدة لأعمال الشركة ومن ثم نشأت المدينة مع ان هناك من المرتفعات حولها ما كان أجدر بها وأولى

قمت بجولة فى أطراف المدينة فأخذت السيارة تعلو فى طرق متلوية تحتها المزارع والاشجار وبخاصة شجر (وتل Wattle) الذى ينزع القوم قشوره وعند ما تجف تقطع شظايا ثم تصدر فى غرائر لاستخراج الاصباغ الحمراء منها ، ثم شجيرات البن التى تغطى مساحات هائلة فى ارتفاع قصير وتنمو فى صفوف مسطرة فى دقة وتنسيق فائق وحبوب البن تنمو متجاورة واحدة فواحدة على طول الفروع فى حجم النبق وفى لون أخضر فاذا ما احمرت جمعت باليد وكل ثمرة فى داخلها حبتان متلاصقان بناحيتيهما المشقوقتين ، وتتوسط أغلب المزارع مصانع تعده للتصدير وكلها فى أيدى الأوروبيين وبخاصة الانجليز ويمتاز بن شرق أفريقية برائحته الزكية القوية وهو يزكو فى كنيا على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم وقد صدر منه سنة ١٩٣٠ فوق ٣١٠ ألف قنطار ومتوسط الصادر بمليون جنيه وشجرته تثمر فى سنتين ومرتين كل عام ويجنى من كل شجرة بين رطل وثلاثة فى المرة الواحدة والشجرة تعمر طويلا ففى نيكاراجوه بأمريكا الوسطى تثمر الى سن الستين وعلى سفوح كلمنجارو يزكو البن العربى الشهير

وكنا نمر بمساحات شاسعة من الأرض الخصبة ذات التربة الحمراء السميكة وهى وقف على الأهلين لا يباح لغيرهم امتلاكها (Native



(الشارع الرئيسى فى نيرونى عاصمة كنيا)

reserve) شأن كثير من أراضى كنيا وكنا نرى أكواخهم المستديرة تتناثر خلالها وهم يزرعون فيها كل مايحتاجون وبخاصة الذرة وهم لايهتمون بالزراعة للبيع والاستغلال لأنهم لا يكادون يعرفون للنقود قيمة اذ كانت حاجياتهم فطيرة محدودة والعادة أن تقطعهم الحكومة تلك الأراضى مجاناً مقابل دفع ضريبة بسيطة لاعلى الفدان بل على الكوخ الواحد بمعدل جنيه ونصف فى العام ولما كان الرجل منهم يتزوج أكثر من واحدة — اذ الغالب لا يقل عن خمس نسوة — اضطر أن يدفع الضرائب مضاعفة بقدر ما يمتلك من بيوت وهذا ما يدفع أولادهم الى العمل لكى يحصلوا على ما يسدون به تلك الضرائب وعلى أمهار زوجاتهم وفيما عدا ذلك لاحاجة لهم

بالمال وقبائل تلك المنطقة يسمون : السكيكويو : يسيرون عرايا نساء ورجالا الا فى أزار من جلد يتدلى من أمام ومن خلاف الى الركبتين وهو مفتوح الجوانب غير منتظم الأطراف ولا يرون عيبا فى ظهور كل أجزاء الجسد عارية فكأنه أمر طبيعى وترى النسوة يلبسن فى السوق الحجال من النحاس أو الفضة فى أساور أو ثمانين قد تبلغ العشرين تحت بعضها أسفل الركبة وعند العرقوبين لغير المتزوجات وفى الأذرع دون الأرجل للمتزوجات ويعلقن حلقات ملونة كبيرة من الخرز تحت الأذن ولثقلها ترفع الأذن بشريط من خرز يلف على الجبهة ويربط فى قوف الأذن ليساعدها على حمل تلك الأوزان وشحمة الأذن تخرق وتشحذ فتتسع لحلقة فى حجم الريال الكبير تعلوها أخرى وثالثة أصغر منها ثم تخترقها قطع من خشب اسطوانية الشكل ألى ذلك عقود الخرز العدة وكثير من الرجال يفعل ذلك أيضا أما الرءوس فتحلق ناعمة وترى النسوة يسرن طوال الطريق وهن يعلقن وراء ظهورهن أحمالا من الحطب أو المتاع أو الأطفال فى قطعة من جلد يرفعها سير يمر بأعلى الجبهة والى جانبها يتدلى اناء من جلد به مزيج الذرة وجذور التابيوكا كأنها البطاطا فى طعم لزج كالعجين والرجال يحملون الحراب والدروع وسلاحهم الرئيسى القسى والسهام المسمومة وهم يبردون الأسنان الأمامية لتبدو مدببة حادة ويتخذون أخصاصهم فى أعماق الغابات حتى انه ليصعب الوصول اليها وان وصلتها تعذر عليك دخولها الا حبوا وهى مجدولة جدلا جميلا يدل على شىء كثير من حسن الذوق والاستعداد للرقى على انها



وسط مزارع البن (كنيا)

قذرة جدا يعيش داخلها الناس والقطعان وهم زراع لحد كبير و يعرفون بين جيرانهم بالغدر والجبن والمكر على أنهم مسالمون نشيطون وهم يخافون آلة التصوير خصوصاً نساءهم خشية أن يؤثر فيهن سحرها أثرا سيئاً وكنت كلما رأيت جمعاً منهن أعرض (الفتوغرافية) لهن مداعبة فكن يصحن و يولولن و يضطربن فى مرأى مضحك ، وهم كلما شعروا بضعف فى انتاج أرضهم للذرة والبطاطا لجأوا الى غابة جديدة فأحرقوها واستنبتوا مكانها حتى أتلفوا مساحات شاسعة من الغابات هناك لذلك بدأت تمنع الحكومة ذلك وتعمل على اعادة استنبات الأشجار والكيكويو وثنيون فى عقائدهم كثيرة الخرافات ومن عاداتهم ختان الفتيات دون الذكور وقد سرت منهم تلك

العادة الى الكثير من السود من حدود السودان وهم فى الختان لا يكتفون بقطع الزائدتين (الشفرتين) فحسب بل وما حولهما ثم يربط الفخذان أياماً فيلتحم طرفا الجرح ويسد المكان كله عدا موضع غابة رفيعة توضع وسط الجرح وتحرك قليلا فى كل يوم فاذا اندمل الجرح لم يترك الا ثقباً ضئيلا هو موضع تلك الغابة وعندالزواج يحاول الزوج فضها فتحمل اليه الزوجة فى بيته وأهلها من حولها ويحاول الزوج ذلك فان صاحت أخذوها منه الى بيتهم على أن تعاد فى الليلة التالية ويعاد ذلك حتى يستطيع فضها ولا يزال القوم خاضعين لنظام القبيلة وزعماؤهم يقومون بالفصل فى الخصومات بينهم فان عجزوا وهذا نادر تدخلت الحكومة فى الأمر

لبثنا نسير فى تلك الجنة صعدا ومن حولنا المروج والغابات فى أراض مغضنة رائعة المناظر ومن بين تلك المنحدرات ما كان يزرع شايا على انه لا يصادف هناك من النجاح كثيرا وأخيراً أدى بنا السير الى نزل منعزل فوق ربوة تعلو سبعة آلاف قدم هى جنة ساحرة لولا ما كان يحوطها من برد زمهرير يقصدها الكثير للراحة أياماً محدودة فان طال المكث أضر بالقلب بسبب خفة ضغط الهواء الذى يعجل بالاجهاد لذلك كنا نشعر بالتعب عاجلا كلما سرنا على الأقدام قليلا ومن تلك الربوة بدا على بعد جبل :

كنيا : الذى يشمخ فى السماء ١٧٫٠٤٠ قدما وهو ثانى ذرى أفريقية وأول من بلغ قمته السير ماكندر سنة ١٨٩٩ والقمة تتدلى منها خمس عشرة ثلاجة وهى بقايا لبركان خامد قديم هشمت التعرية من ارتفاعه

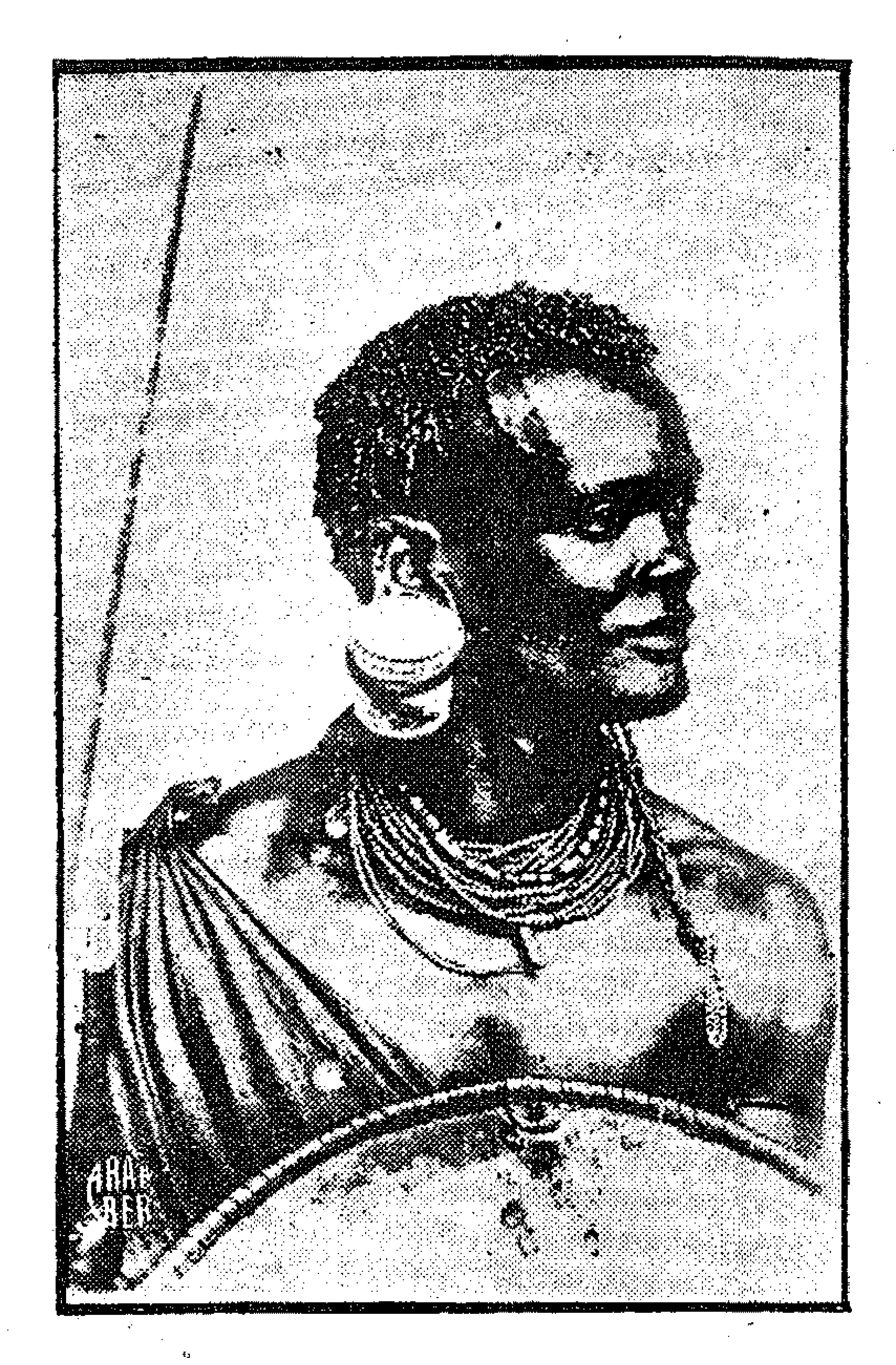


(سيدات الكيكويو يلبسن ازارا من جلد)

مالا يقل عن ٣٠٠٠ قدم ، لذلك لا نرى الفوهة اليوم واضحة وتكسوه بين ارتفاع ٥٥٠٠ ، ١٢٠٠٠ قدم غابات من الارز (cedar) والكافور والخيزران (البامبو) وعلى جوانبه تتدرج النباتات من الاستوائية الكثيفة الى أعشاب جبال الألب وزهورها فى جلاء تام والاقليم الذى حوله أخصب بقاع كنيا جميعا وأكثرها ملاءمة لسكنى الجنس الابيض ومن أغناها بالقنص بما فى ذلك الفيلة وأخص قبائل الاهلين حوله :

المساى : أولئك الذين كانوا نذير الفزع وسادة الحرب لجميع أهل أفريقية من فكتوريا نيانزا ألى ممباسا حياتهم حياة قتال وحرب على أن عديدهم تضاءل بسبب توالى الحروب وفتك الجدرى بهم وأول ما يسترعى نظر السائح نظامهم العسكرى المحكم ، فالصبية رعاة مسلحون الى سن ١٦

حين يصبحون من المقاتلة Elmorani الذين يخضبون حرابهم بدم الغير ويخلصون لوطنهم ويمتنعون عن الزواج والتدخين والمسكرات ويعيشون عيشة زهد وتقشف حتى تنقضى مدة خدمتهم والى جانب الحراب ذات الحدين والدروع يحملون سيفاً تراه معلقا من حزام من جلد غفل ومنظرهم وهم فى أردية الحرب يلقى الرعب فى القلوب وبخاصة غطاء الرأس الذى يطوق الوجه كله فى شعور نافشة وكلما هاجموا محلة kraal قتلوا الرجال المدافعين جميعا بالحراب ، أما النساء فيقتلون فى المساء بالهراوات وهم يفاخرون أنهم لا يتخذون من بعضهم أسرى ولا مسجونين بل يقولون حيثما تمر جنودنا لا تعقب من الاحياء نفرا ، وقد لايقتلون النساء أريحية منهم ولكى يتخذوا منهن خدما ، وغرضهم الأول من تلك الغارات الاستيلاء على قطعان الغير لأن الماساى رعاة لازراع تقدر ثروتهم بحسب قطعانهم ، وعجيب أنهم لا يصيدون الحيوان الذى تغص به بلادهم احتقاراً اللهم إلا السباع، غذاؤهم الرئيسى لحم البقر واللبن والدم الطازج الذى يتخذ من الحيوان وهو حى والنساء يقمن بالتبادل التجارى البسيط ، وقد تكون القبيلتان فى قتال مستعر والنساء على الحدود يتبادلن تلك المتاجر ، وهم يعبدون الها اسمه (نجاى N'gai) ويطلقون هذا الاسم على كل ما لاتفقهه أفهامهم ومن عاداتهم الغريبة اقتلاع السنين الأماميين من الفك الأسفل وتلك أخص ما تميزهم عن جيرانهم ويخال البعض انها عادة شاعت اتقاء مرض تصلب الفك الذى كان منتشرا لديهم ، حدث مرة أن تابعى فى

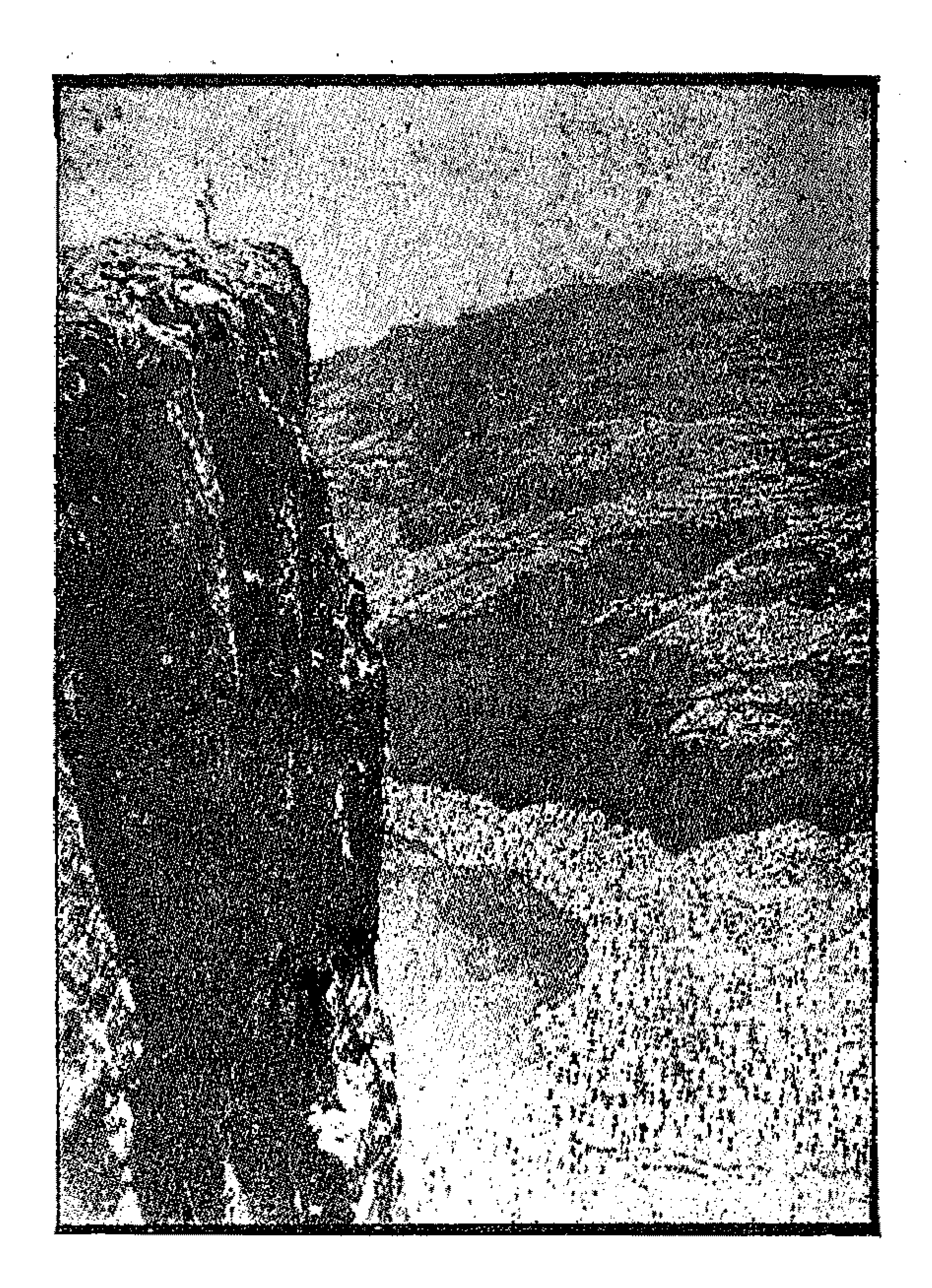


(أحد المقاتلة عند الكيكويو ويرتدى قرطا وكأنه الكوب الكبير)

ضواحى نيروبى وكان من المساى صادف جمجمة فى الأرض فأسرع إليها ورفعها باحترام وقد عرف أنها لمساى مثله لنقص السنين الامامين ثم عكف على بعض العشب — وهم يقدسون العشب لأنه سر نمو قطعانهم — و بصق عليه وحشا به تجاويف الجمجمة والتفت إلى وقال : ذلك لكى نزيل الشر

عنا ودهشت لما صادفنا صديق له فى الطريق فبصق هو فى وجهه وتلك عادتهم فى التحية ، ويسترعى النظر آذانهم وما فيها من الحلى فهم يشحذون شحمتها طويلا ثم يثقبونها وتتدلى منها أكواب وصفائح وقطع من خشب فى احجام مخيفة ، والرجال يلبسون جلود السباع وأذناب القردة على رجولهم وريش النعام فوق رءوسهم ، وعند العرقو بين يضع الرجال أجراسا لتدل الناس على اقترابهم ، والنساء يغطين أجسادهن بأطواق النحاس فى البطن والخصر والسوق والسواعد والرقاب فى أوزان مبهظة ولا تعد السيدة من النبيلات إلا بكثرة تلك الاطواق ، وهم لايدفنون موتاهم خشية تدنيس الارض بل يحملون الجثث فى العراء وتترك لتلتهمها جارحات الطير والوحوش ولايدفن سوى الزعماء فوق تلال تقوم مشرفة عليهم والمساى أنبل المتوحشين وأكثرهم استقامة وهم يتخذون من القبائل الاخرى خدما ورقا ، خصوصا قبائل (اندروبو) واذا جاءك مسالما مد ذراعه الايمن بمحاذاة كتفه وشد أصابعه الى أعلى بحيث تواجد راحة اليد من أراد مسالمته

ولقد كان نظامهم العسكرى المحكم من أكبر العقبات والمشاكل أمام الحكومة التى أخذت تقاومه وتصرفهم عنه بمنع المران العسكرى وتحريم حمل الحراب والدروع لكن سرعان ما حدا بهم هذا إلى التدهور والفناء وتحاول الحكومة صرف مجهودهم الى استثمار منتجات الالبان وهى تقيم لهم المصانع والمدارس لذلك ويساعد الحكومة فى ذلك زعماؤهم رغم احتقارهم للعمل اليدوى كذلك فهى تشجع تصاهرهم مع الكيكويو ، والمساى صحيحو الأجسام نحيلو السوق قريبون فى الشبه من المصريين الاصفياء لونهم نحاسى ولغتهم قريبة من



(جبل كنيا الرائع)

لغات أعالى النيل وهم يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية فى أفريقية يؤيد ذلك مظهرهم الوقور وبسالتهم وكبرياؤهم واستقلالهم وذكاؤهم وهم ضعيفو الايمان بالسحر وزعماء الدين لديهم (laibons) يقصر عملهم على الدواء والعلاج واستنزال المطر ، والحالة الصحية حولهم رديئة فمنازلهم تطلى بروث البقر وتقام فى دوائر كى تقى البقر داخلها فينتج من هـذا انتشار التراب

والذباب بكثرة مخيفة ، نساؤهم يعيشون عيشة هى أسهل من نساء القبائل الزراعية ، وتهددهم الوحوش التى تجرى وراء قطعانهم ، وقديما كان جل مرانهم على صيد السباع بالحراب والدروع كخطوة للمران الحربى فلما قاومت الحكومة هذا الروح تشجع الحيوان الوحشى وأضحى لا يخشى الناس فأباحت الحكومة لعدد محدود منهم حمل الحراب لوقاية قطعانهم ، ومن أسوأ عاداتهم تخضيب حراب المقاتل الحديث بدماء الغير ولا يزال بعضهم يهاجم الغرباء ويقتلهم رغم تحريم القانون لذلك والنساء هن اللاتى يشجعنهم على ذلك لأنهن يسخرن جماعات من كل مقاتل لم تخضب حربته ومن حفلاتهم قبل التخضيب أن يصارع الفتى ثورا أسود يظل يوما كاملا يطعمه القوم اللبن ويسقونه الخمر ويتبارى الكل فى حفل ويحاول كل فتى أن يمسك بالثور الثمل السكران من قرنه الأيمن ، وسرعان ما يلقى الثور على الأرض ويسلخه حيا ويقطع الجلد الى سيور يتزين بها الفتيان جميعا حول العرقوبين والرسغ ولتقديسهم للبقر لا يذبحونه لاخذ اللحم لذلك كان جل غذائهم مزيجا من اللبن والدم ويستخرج الدم بطريقة مدهشة إذ يربط الثور ويضرب الرجل بسهمه فى وريد الرقبة فيسيل دم الحيوان ويجمع فى أناء لحد لا يميت الحيوان ثم يضمد جرحه ويترك الحيوان ليستعيد قواه ودمه ثم تعاد العملية مرارا ، ويقال أن وباء فتك بماشيتهم سنة ١٨٩٠ فأباد قطعانهم ولوثت عفوناتها أرجاء الهواء ومياه الأنهار فمات من المساى جماهير عدة ولم يستعيدوا عديدهم وسلطانهم بعد تلك الصدمة فكان هذا من حظ النزلاء البيض من الانجليز فى تلك الجهات حيث لم تكن مقاومة المساى لهم كما كان القوم يتوقعون.

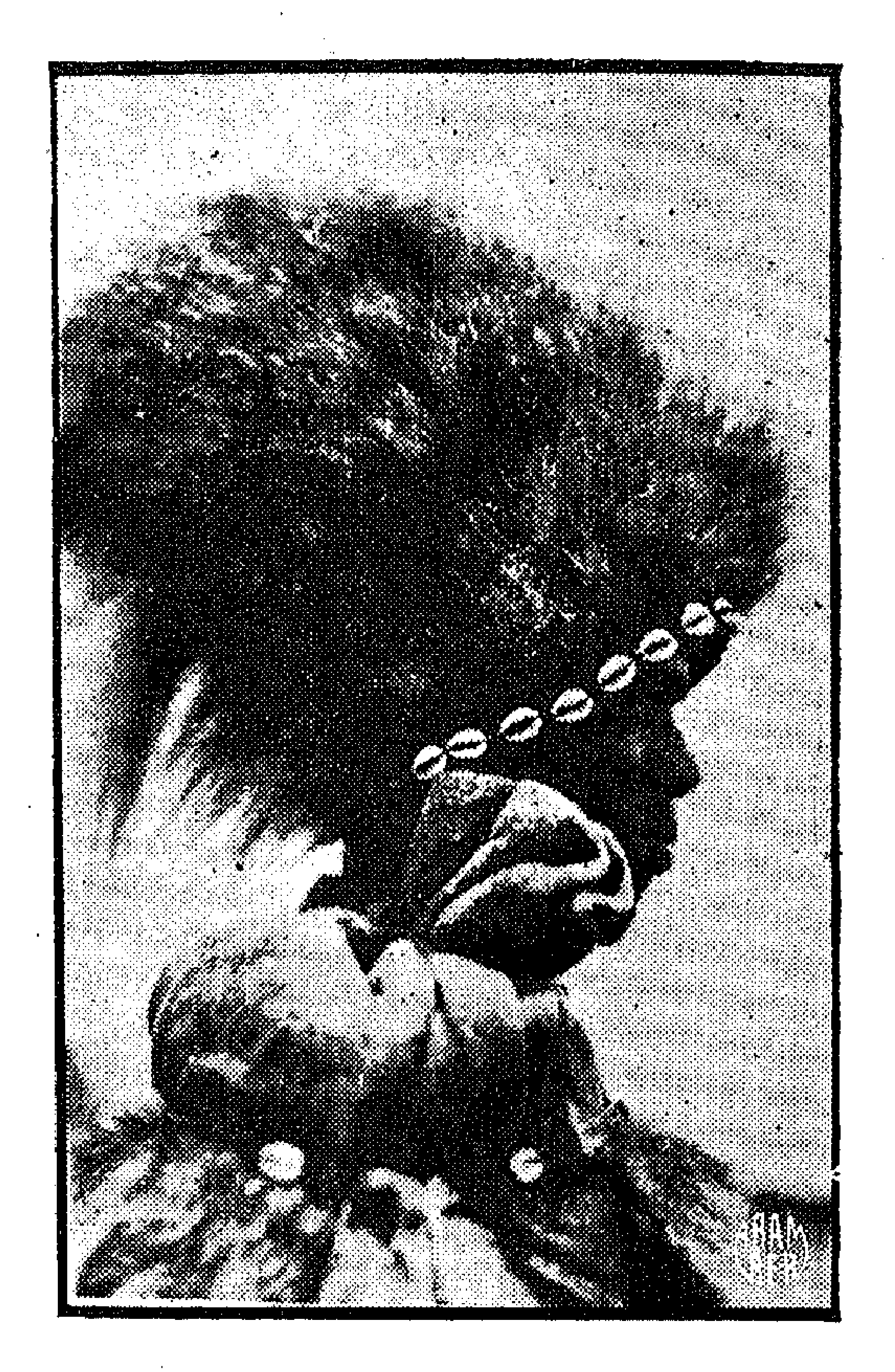


(المساى فى كامل ردائهم الحربى)

عدت الى ناحية أخرى من نيروبى هى مسكن الطبقة الارستقراطية من الهنود والهنود هنا كثيرون و بينهم المفرطون فى الغنى و بيدهم غالب المتاجر والوظائف المتوسطة فى مصالح الحكومة وفى الانزال وهم المشرفون على الخدم من السود فى كل مكان وأن الانسان ليعجب لنشاط الهنود وسعيهم بعيدا وراء كسب المال وكأنهم اليهود فى الحرص على المال أو جماعة

الاغريق فى ريف مصر ، وكلهم مكتنزون للمال لا يكادون ينفقون منه شيئاً لبساطة معيشتهم وغالبهم هناك من المسلمين ولذلك أقاموا لهم مسجدا على نظام تاج محل هو آية فى الهندسة والجمال والشيعة منهم أقاموا بناء ضخما صفت به المقاعد ، وكأنه المدرسة يفد اليه السبية كل يوم بين السادسة ومنتصف الثامنة مساء وهم يرتلون بعض أدعية ويصلون ثم ينصرفون ، أما مساكن الاوروبيين ففى ضاحية تسمى التل تطل على المطار الفسيح والى جانبها مباشرة حرم الحيوان وقد كنت أرى به آلاف الغزلان والتياتل (هارتبيست ووبلدبيست) وغيرها .

المتحف : زرت متحف المدينة وهو على صغره قيم فى محتوياته راقنى به مجموعة من الحيوان المحنط وأعجبه دب النمل Ant bear وكأنه القنفر شكلا وحجما والسمك ذو الرئة فى طول مترين وكأنه كلب البحر (shark) ثم مخلفات الانسان من جماجم أسنانها بالغة الضخامة وجباهها متحدرة ، ومقاعد وآلات وآنية من خوص وخشب وزينة من أقراط وأساور من نحاس وخرز وأسلحة من حراب وتروس وآلات موسيقية منها طبول منقورة فى جذوع الشجر وقيثارة ذات أوتار بعضها طولى و بعضها عرضى (وقانون) من غاب غليظ أجوف يرص متجاورا وتعلوه سيور الجلد بدل الأوتار ورباب ومزمار كذلك ألخاخ للأرجل من جديلة من خوص تتوسطها عصى مدببة تكاد تتلاقى فى وسط الدائرة فتخز جلد المجرم المعاقب وخزات مستمرة أليمة ، وسفن شراعها من جدائل الخوص ، وثم قسم جيولوجى وآخر نباتى به نماذج من ألواح الخشب على اختلاف صنوفه ، وقرن هو ثمرة شجرة Entada طوله

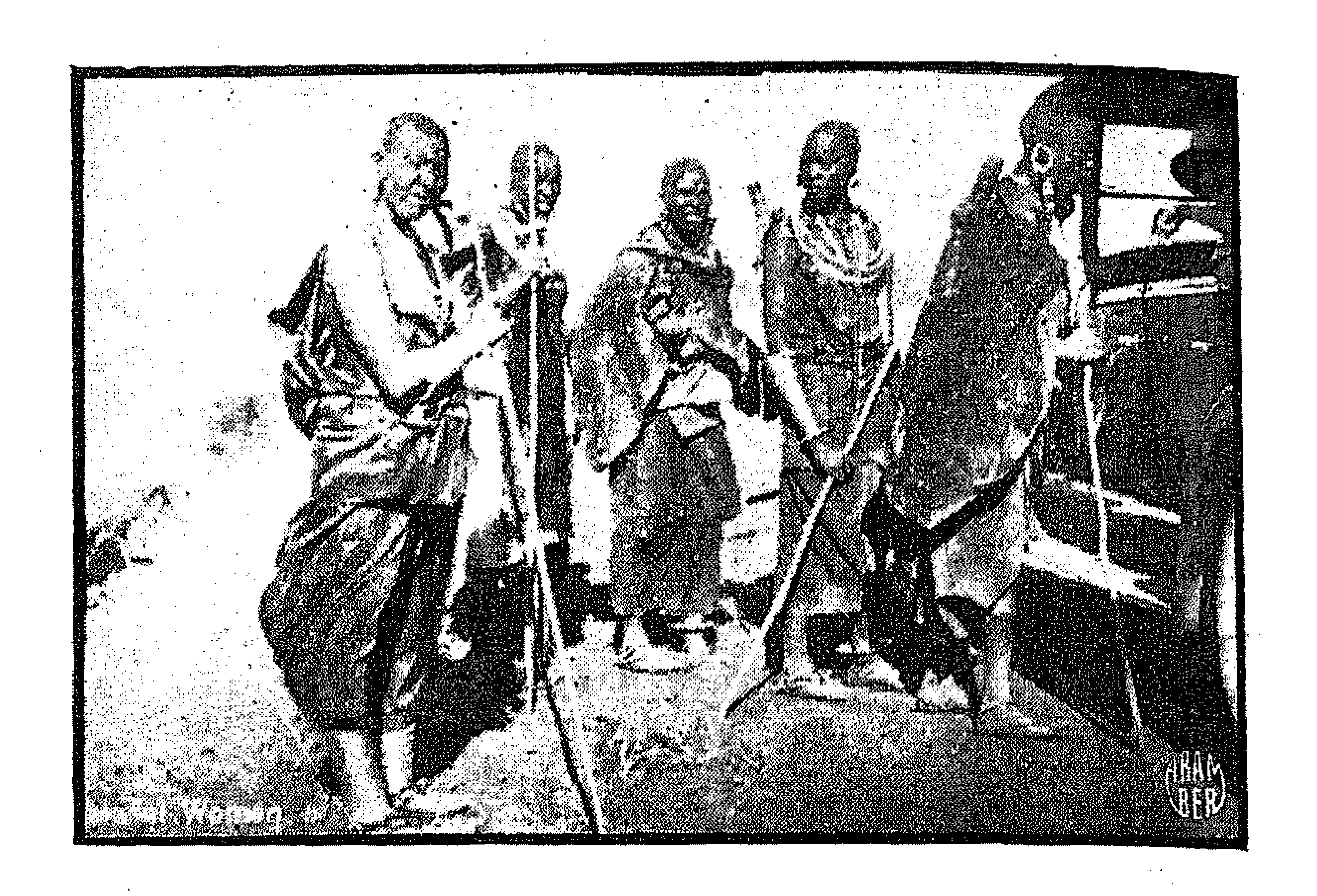


(يلبس المساى جلد السبع الذى يصيده بحربته ليدل على رجولته)

متر ونصف و به أربع عشرة فولة الواحدة فى حجم قطعة الصابون الكبيرة ينمو قرب السواحل الحارة ، وأعجب الكل ثمرة سوداء كأنها خشب الأبنوس فى فلقتين متجاورتين كأنهما قربتان بيضيتان متلاصقتان لونا وحجما ، وشجرتها تنمو فى الشواطىء و بخاصة فى جزائر سيشل وتسمى

جوز البحر Coco de mer والنخلة تصـل مائة قدم وأوراقها عشرين والثمرة تكاد تكون أكبر ثمار الدنيا حجما تنضج فى عشر سـنين ، عثر عليها الكاشفون أولا طافية فى البحر والثمرة تؤكل وتصلح لعمـل بعض الأدوية . وثم قسم للحشرات من بينها حشرة العصى stick فى طول شبرين وكأنها العصى تماما والحشرة المصلية (praying) تحكى(فرس النبى)تأكل لحوم غيرها وسميت كذلك لأنها ترفع رجليها الاماميتين وكأنها تصلى دائما ومجموعة من فراش بديع ، والمتحف رغم صغره قيم جدير بالزيارة .

الى الاخدود الاعظم : غادرت نيروبى فأخذ القطار يعلو فى صفحة غنية بالمزارع أظهرها البن ، وكلما توغلنا زادت وعورة المنحدر وتعقدت ليات السكة ويمكنك تقدير ذلك إذا علمت أننا علونا فى الأميال الخمسة والثلاثين الاولى الفى قدم ، والقاطرة هنا من ذات المحركين كى تستطيع مغالبة ذاك الصعود ، وكان الخط يجانب سلسلة ملتوية تهوى من جوانبها الوديان المختنقة الى قرار الوهاد المغضنة من دوننا والمناظر من حولنا رائعة ، لبثنا نعلو والوهاد تنكشف حتى مررنا بمحطة(كيكويو) نسبة إلى حافة الهضبة التى تعلوها ومن يقطنها من قبائل الكيكويو ، هنا بدا الانسان على فطرته عارى الجسد فى غير ازار كلا ولاستار للعورة نساء ورجالا اللهم الا الاغنياء منهم وهؤلاء يلبسون أزارا من جلد ليس تحته شىء ، وفى تلك المرتفعات متسع للرعاية وبخاصة للبقر والماعز التى كنا نرى منها القطعان الكثيفة



(سيدات المساى)

والبقر يلفت النظر بلونه القاتم ذى البقع البيضاء و بما يعلو كتفه من سنام ناتىء غليظ ، ولما قار بنا الذروة زادت غابات شجر واتل (Wattle) فى ورقه القاتم المثقب المهفهف وزهره الذهبى العطر ذاك الذى تستغل قشوره للاصباغ وخشبه للوقود وكثير من قاطرات سكة الحديد تحرقه بدل الفحم ويقولون أن الاقليم كانت تسده الغابات والاحراش منذ نصف قرن فقطعت وزرع هذا الشجر مكانها ، وحيث تبدو التربة الحمراء السميكة تقوم منابت الذرة . أخيرا وصلنا الى الذوره فى محطة (Upland) على علو ثمانية آلاف قدم ، وما كاد القطار يبرحها حتى شعرنا بأنه ينزل ذاك المرتفع عاجلا ، وهنا باغتنا منظر أذهل الفؤاد بروعته اذ تكشف من دوننا :

الاخدود الاعظم : (Great Rift Valley) فى مشهد سيظل يشغل من الفكر حيزا لا تمحوه السنون فلعله أروع مشاهد أفريقية على الاطلاق ، هنا بدا الوادى المغضن الفسيح فى هوة لا تكاد تدرك العين قرارها ذاك القرار الذى كان ينأى من دوننا بالفى قدم فكانت تبدو وديانه المختنقة اللانهائية تتلوى وسط الربى المخروطية الى قصارى مسارح النظر منظر دونه المناظر التى رأيتها فى سويسرا واسكندناوه وجبال الهملايا ، وقد زاد المكان جمالا أبناؤه الأبرار الذين لم تمسسهم مساوىء المدنية من الانسان الهمجى عارى البدن وطوائف الحيوان الوحشى التى كنا نمر جوارها وبخاصة أسراب النعام والتيتل والزبرا حمار الوحش بديع النقش ذاك الذى كانت جموعه تسير فى مئات ترعى وجميع رءوسها فى اتجاه واحد وفق عادتها . ظل القطار يهوى فتستبين تلك الربى الناتئة وما جاورها من أكواخ مكورة ساذجة ، وكل تلك الربى مخاريط لبراكين خامدة كانت ثائرة غاضبة يوم أن التوى سطح الارض وانفطر فخلف ذلك الأخدود الهائل الذى يمتد من موزمبيق وبحيرة نياسا جنوبا الى البحر الاحمر فالبحر الميت فى فلسطين شمالا أعنى مسافة ذرعها خمسة آلاف ميل وهو يبدو واضحا بين الحافتين المشرفتين : كيكويو الى الشرق وماو الى الغرب وسعة ما بينهما ١٢٨ ميلا ويقولون أن سبيلنا هذا خلاله بواسطة سكة حديد كنيا هى خير بقاع الاخدود روعة وجمالا ، أخيراً أدى بنا الهبوط الى مشهد سلسلة من البحيرات تطوقها حافات المخاريط البركانية القديمة ومن أسمائها



(بعض أردية الحرب عند المساى)

مكانا (لونجونوت) الذى يعلو ٩٠٠٠ قدم وتتسع فتحته الى ميلين ونصف وهى غائرة العمق تكاد تسدها الغابات وتتخللها شقوق تصعد غازات سامة ومن ورائه تبدو سلسلة من بحيرات أهمهاماجادا ، نايفاشا ، ناترون ، المنتايتا ونا كورو وبارنجو

وبعد أن جزنا محطة (ننبرنوت) وبحيرتها وبركانها بدت نايڤاشا (١٢½ × ١٥ ميلا) فى شكل هلال تتوسطه جزيرة هلالية هى ناحية من شفة ذاك المخروط البركانى الهابط ، وهنا كثر الطير والزبرا وافراس الماء بشكل استرعى أنظارنا ، وكانت منحدراتها تكسى بمزارع السيسال وفى سبع ساعات دخلنا بلدة ناكورو فى قرار الاخدود الاعظم ، هنا استرحت يوما كاملا فى بطن ذاك الوادى الفذ الأوحد ، والمدينة بجوها المنعش البارد الصحى مزار لطلاب الراحة والاستشفاء ، إذ يبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم أو يزيد قليلا وهى قرية صغيرة بها طريقان رئيسيان متقاطعان تصف عليهما الحوانيت والمساكن الوطنية ذات الطابق الواحد والسقوف المنحدرة وكلها من صفائح الزنك وحول نصف أهلها وتجارها من الهنود ، وأحد هذين الطريقين يؤدى بنا هبوطا الى بحيرة آسنة صغيرة تحوطها عدة ربى بركانية ويحف بمدرجاتها الرملية كثيف الدغل وبعض الشجر المنثور ، وفيها كثير من الطير ودابة الماء ، وقد تسلقت بعض تلك الربى فبدا منظر البحيرة فيها رائعا على أن البعوض مختلف الحجم كان يحوطنى أينما سرت فى سحائب مخيفة والمدينة تطوقها حافة بركان Menengai قطر فوهته ٨½ ميلا ، ومن ورائها يمتد بطن الاخدود الاعظم شمالا وجنوبا فى سهول مترامية تعوزها الفلاحة ووسائل الرى كى تغل نتاجا وفيرا

الى فكتوريا نيانزا : برح القطار ناكورو وأخذ يصعد الجانب الغربى للأخدود وكان الصعود سريعاً إذ بلغنا القمة بعد ٤٣ ميلا علونا

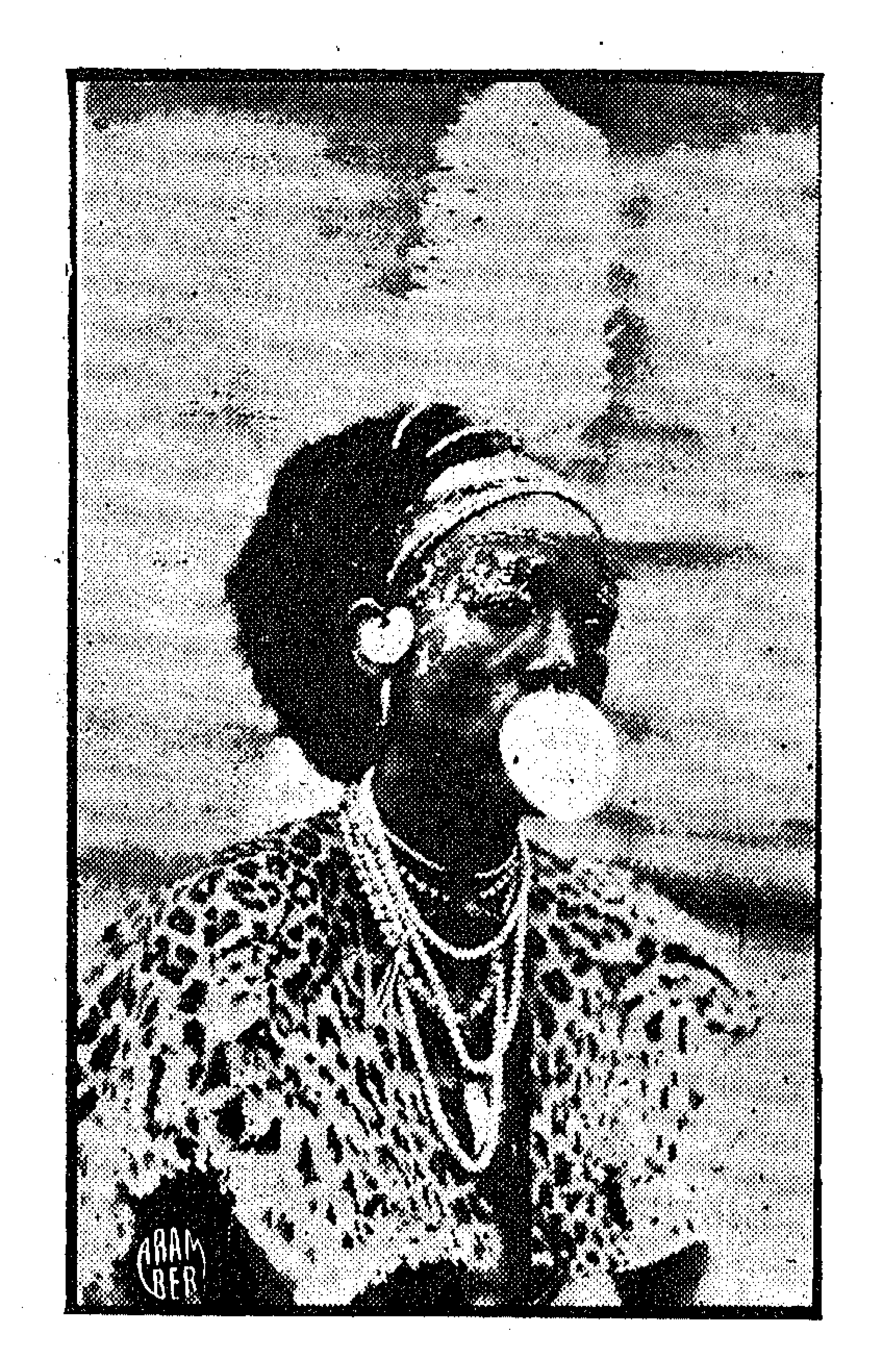


(بعض زينة الشعر عند أهل كنيا)

خلالها ٢٢٥١ قدم فوق نا كورو ، وكانت ليات السكة متعددة والربى المنثورة يعلو بعضها البعض تكسوها الغابات القاتمة وهنا وهناك كنا نرى بقاعا شاسعة زرعها ذووها على أن هذا الجانب رغم ثروته بالنبت وكثرة المسايل المائية التي تسيل بالماء أبان المطر ، أندر سكانًا والمناظر أقل روعة ، ومعابر سكة الحديد هنا بلغت ٢٧ فى قناطر ملتوية شاهقة تشهد لاولئك الجبابرة الذين أقاموا الخط مغالبين الطبيعة ووعورتها ، وهنا شعبة لسكة الحديد تعبر خط الاستواء ثلاث مرات فى طيات متعاقبة . عبرنا (حافة ماو) ثم أخذنا نهوى سراعا الى السهول المؤدية الى فكتوريا نيانزا وفى خمسين ميلا هبطنا ٣٧٠٠ قدم ولن أنسى زمهرير البرد خصوصاً لما أقبل المساء فقد كادت قدماى تجمدان ، وكان البرد يفوق أقسى ليالى شتاء مصر

والعجب أننا كنا فوق خط الاستواء تماما لكن هو الارتفاع الذى هبط بالحرارة الى ذاك المدى البعيد ، على أنا شعرنا بزيادة الدفء عاجلا لما أن أخذنا فى ذاك الهبوط ، ولقد انتقلنا الى جو حار تماما لما بلغنا كيسومو على البحيرة وأخذت السهول تنفسح وتنأى الربى كلما هبطنا وغالبها برى يكسوه العشب والشجر الا فى بقع نادرة من نبات الذرة تجانبها جمهرة من مساكن القوم وفى ظنى أن مستقبل تلك المتسعات وقف على الفلاحة والزراعة إذا مازودت بوسائل الرى والأيدى العاملة ، واقليم كنيا رغم غناه المفرط فى خصب التربة ووفرة المطر وكثافة النبت نادر السكان ولعل أغنى بقاعه بالنبت والخصب الاخدود الاعظم لذلك كنا نرى كثيرا من المساكن تجاور المحاط على خلاف الهضبة بين ممباسا ونيروبى التى كانت موحشة خالية من الاهلين وكان نصيبنا من الحيوان الوحشى هنا قليلا .

دخلنا كيسومو : فتجلت مياه فكتوريا على بعد فى لونها الفضى وامتدادها الرهيب ، ووقف القطار الى جانب السفينة (Clement hill) والمدينة قرية صغيرة بها طريقان واضحان عليهما الدور والحوانيت وغالب أزقتها تطل على البحيرة فى انحدار لأنها تقع على احدى ربى خليج (كافروندو) وهو شعبة من البحيرة كأنه رأس الحيوان تحف به من جميع نواحيه نجاد مغضنة ، والمدينة قد فقدت اليوم شيئا من شهرتها التجارية لما أن فتح الطريق الحديدى الى جنجا وكامبالا رأسا على أنها لا تزال المرسى الرئيسى لبواخر البحيرة تلك التى نقلت قطعها بسكة الحديد وركبت



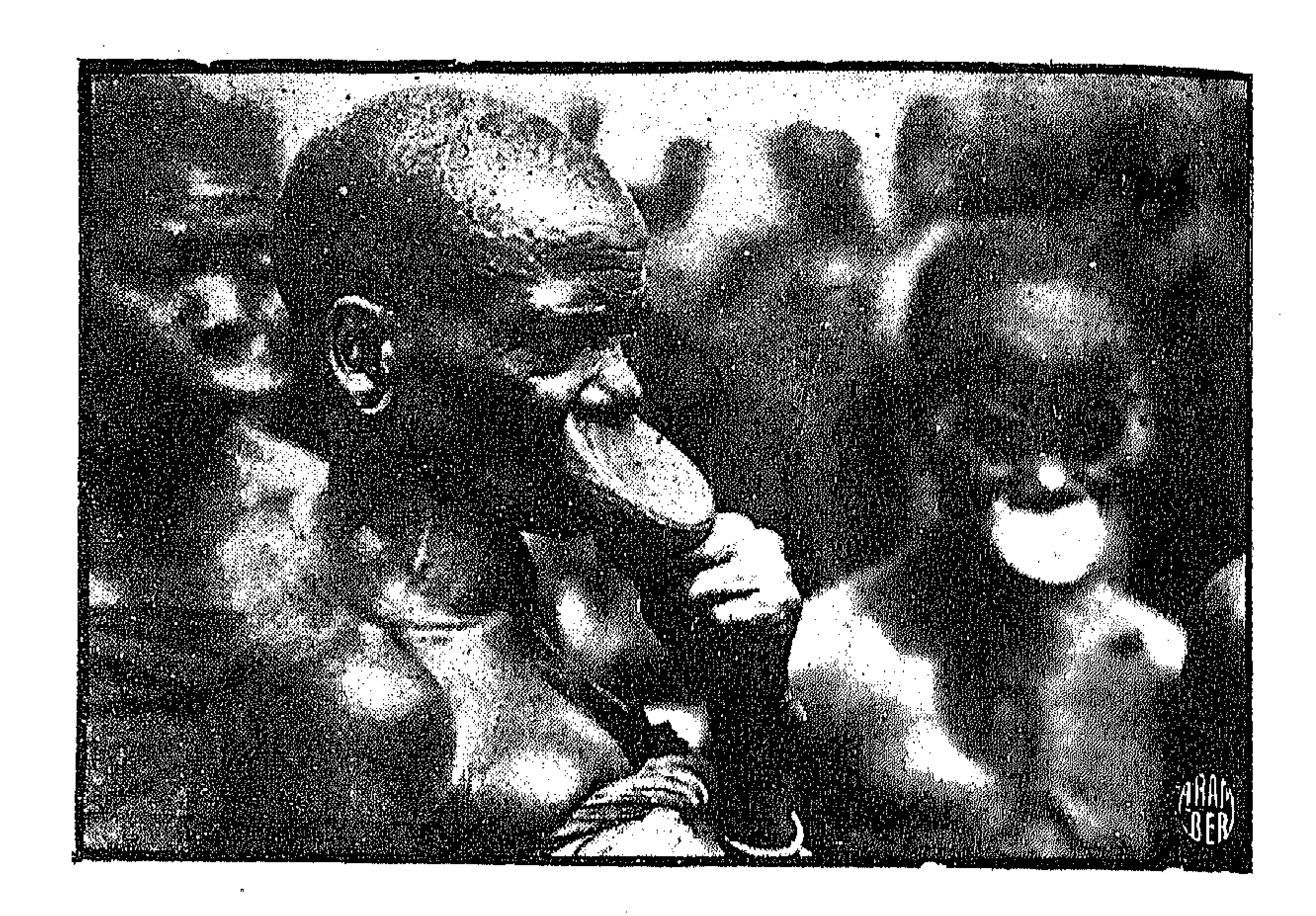
(زينة الآذان والأنوف عند قبائل توركانا)

فى حظائرها التى تعد أعلى مراسى للسفن فى الدنيا ، وأول باخرة وصلت فكتوريا أرسلت قطعا لا يزيد وزن الواحدة على قنطار نقلت كلها على كواهل الناس من ممباسا مسافة ٦٠٠ ميل ، وكانت حمولتها ٦٨ طنا فتصور مبلغ المشقة والنفقات إلى هذا الأخطار التى تعرضت لها القافلة من الوحوش والقحط ونضوب الغذاء .

وقد كانت السفينة تحمل وسقها من الأغنام والخنازير ومنتجات الألبان ، والمدينة تموج فى المساء بأسراب حيوان اسمه (Impala) كالغزال الصغير تسير قطعانه بجانب المارة كأنها مستأنسة ويواسى بعضها البعض وحدث مرة أن ضرب واحد منها فجرح وفر وعدا معه اثنان الى جانبه ليعاوناه على السير . هنا بدا الاهالون من قبائل كافرندو أبعد عن الهمجية التى لمسناها فى سكان الأخدود ، يلبسون الأردية فى جلابيب فضفاضة من قطن ولا يكثرون من التزين بالمعادن والخرز وهم أقوياء بواسل ومستمد رئيسى للعمال وهم من أكثر الهمج عفة يحكمهم زعماء أشداء وعديدهم يناهز المليون والضباط والبوليس يلبسون الطربوش الاحمر تتدلى منه خصلته الثقيلة .

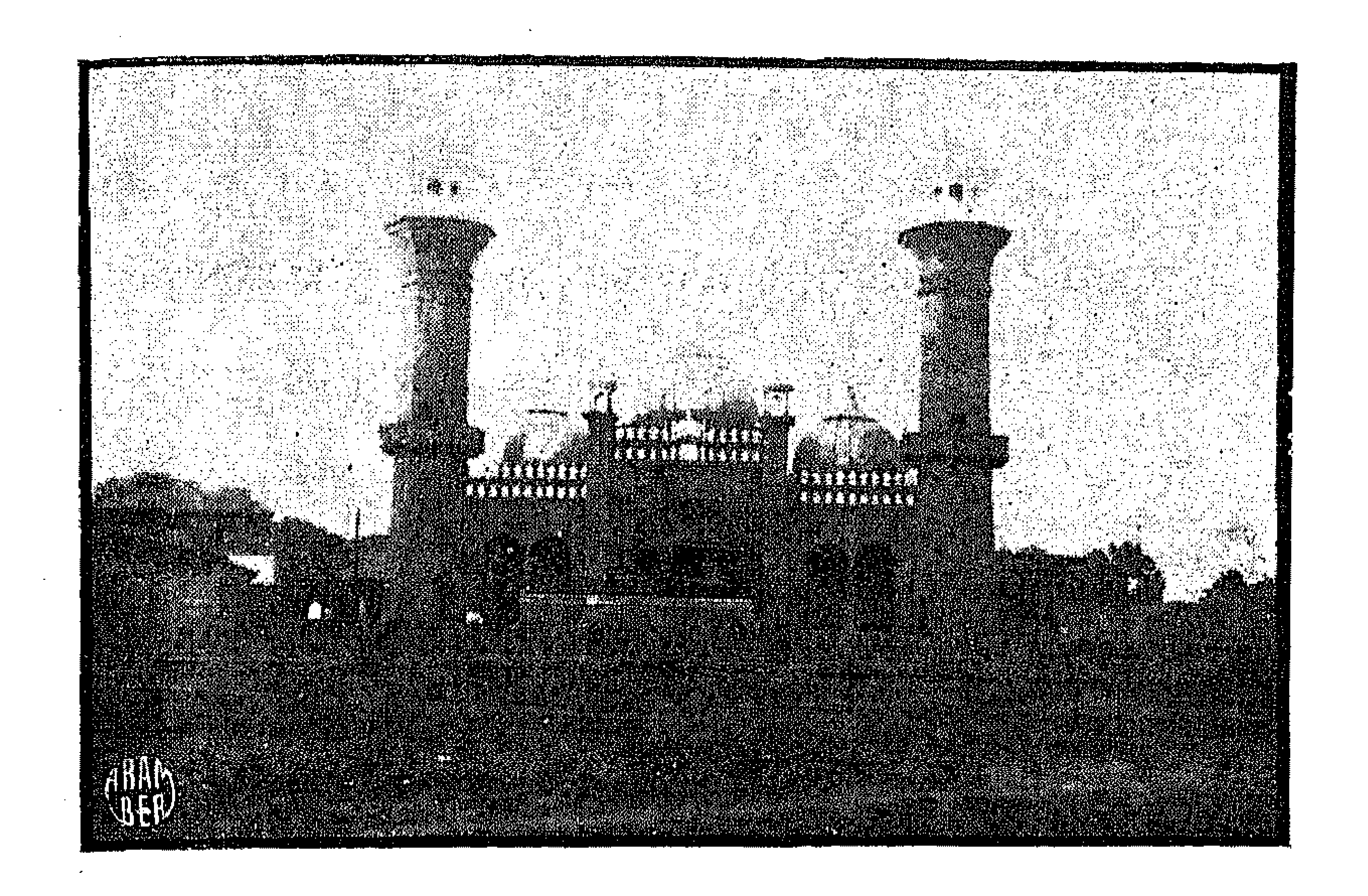
فكتوريا : قمنا الى أوغندا نشق عباب مياه خليج كافرندو الذى ظلت شواطئه تبدو فى سلاسل جبلية وطيئة تكسوها خضرة خفيفة ، وكان لون الماء عكرا زيتيا تشوبه حمرة خفيفة كأنه ماء النيل أبان الفيض .

ولقد كان الجو صحواً والشمس محرقة والحر قائظاً ولما ان تحركت الباخرة أنعشنا نسيم البحيرة البليل ولبثنا نشق خليج كافرندو زهاء خمس ساعات (٥٠ ميلا) وقبيل المنفذ أخذت المخاريط الخامدة الصغيرة تتقارب حتى خيل الينا أن البحر مغلق لا منفذ له لكن ما لبثت تلك المخاريط تنشق الى جزائر جرانيتية صغيرة يتلوى الماء خلالها وهى جميعها تكسوها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود وقد بدا للخليج منفذان رئيسيان مختنقان سلكنا سبيلنا الى الأيمن بين منثور الجزيرات الساحرة وما كدنا نجوز آخرتها حتى



(ما أقسى ما يعانيه القوم فى تجميل شفاههم هكذا)

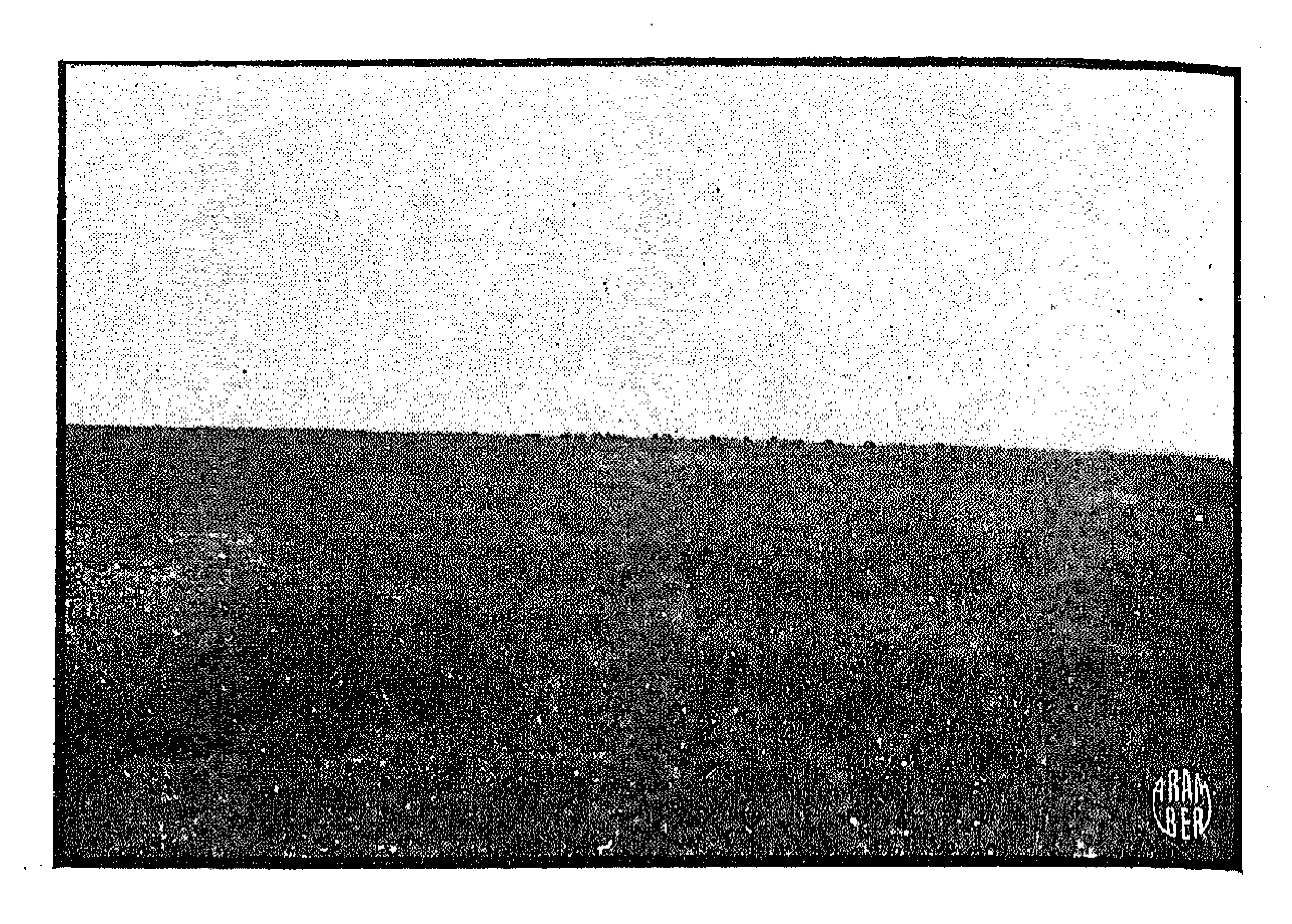
دخلنا بحر (النيانزا) المائج الخضم الذى غابت عنا شواطئه وصفاماؤه فى خضرة زيتية مستملحة وهنا فقط كان الفرق بينه و بين المحيط بمائه صافى الزرقة . وقفت أجيل النظر فى تلك العظمة وشعرت بالغبطة الكاملة حيث تحقق حلم كنت أحسبه خيالا بعيد النوال هو أن أرى فكتوريا نيانزا التى ندين لها بروحنا وحياتنا لأنها المنبع الثابت لنيلنا الخالد العتيد وما كان أحلى مغرب الشمس وقد صوبت الينا رياشها الذهبية من خلال كومات السحب وقبل أن تنفذ الى الصميم منا دفعتها صفحة الماء عاكسة اياها فى توهج يسحر اللب وما كادت تغرب الشمس حتى انطفأت تلك الألوان الجذابة وخيم الظلام



(مسجد هندى على نمط تاج محل فى نيروبى)

الرهيب شأن سائر البلاد الاستوائية التى ينطفىء فيها ضوء الشفق عاجلا واقد أنصف القوم فى تسميتها (نيانزا) ومعناها البحر فهى ٢٥٠ × ١٥٠ ميلا أو ٦٨٠٠٠ ك م٢ تطوفها الباخرة فى خمسة أيام كاملة وهى تغاير سائر البحيرات فى ان شواطئها مدرجـة وليست مشرفة تكسوها الخضرة التى تعرفنا من نباتها البردى والبشنين واذا ما هاجت وغضب ماؤها اقتلع منها كتلا كنا نراها طافية

استقبلنا مشرق الشمس بألوانه القاتمة الجميلة (وپورت بل) قبالتنا وهى ثغر صغير أقيم على البحيرة ليصلها بمدينـة (كامپالا) العاصمة التجارية لأوغندا وهى ليست مدينة بل مجموعة مراسى وأرصفة عليها أشرطة سكة

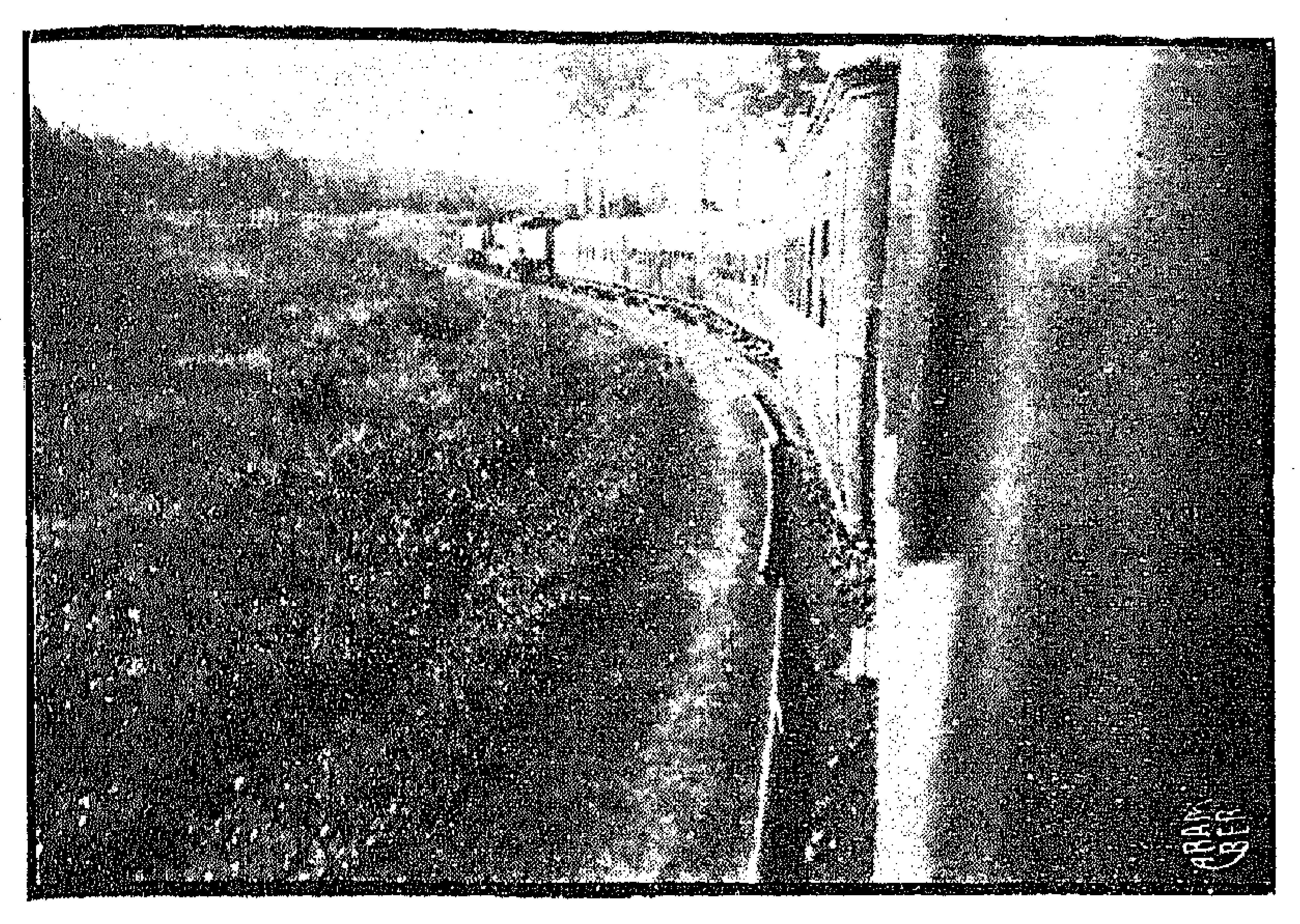


(قطعان الحيوان عند الافق فى حرم الحيوان)

الحديد التى تمتد سبعة أميال الى كامپالا

هنا انتقلنا الى القطار فسار بنا وسط مدرجات فكتوريا التى كان يكسوها البردى والغاب والقصب الكثيف و يغطى أجوان البحيرة العديدة أطباق البشنين ونوره الكبير وكنا بين آونة وأخرى نبصر بجمهرة من الأكواخ زرع القوم حولها بعض الخضر وأشجار الموز حتى وصلنا محطة كامپالا

كامپالا : أخذت أصعد فى طريق متلوية أدت بى الى النزل فنظرت من حوله واذا الوهاد والنجاد لا حصر لها تكسوها جميعاً الغابات والأحراش وتتناثر عليها المبانى الحديثة فى سقوفها المتحدرة من صفائح الزنك



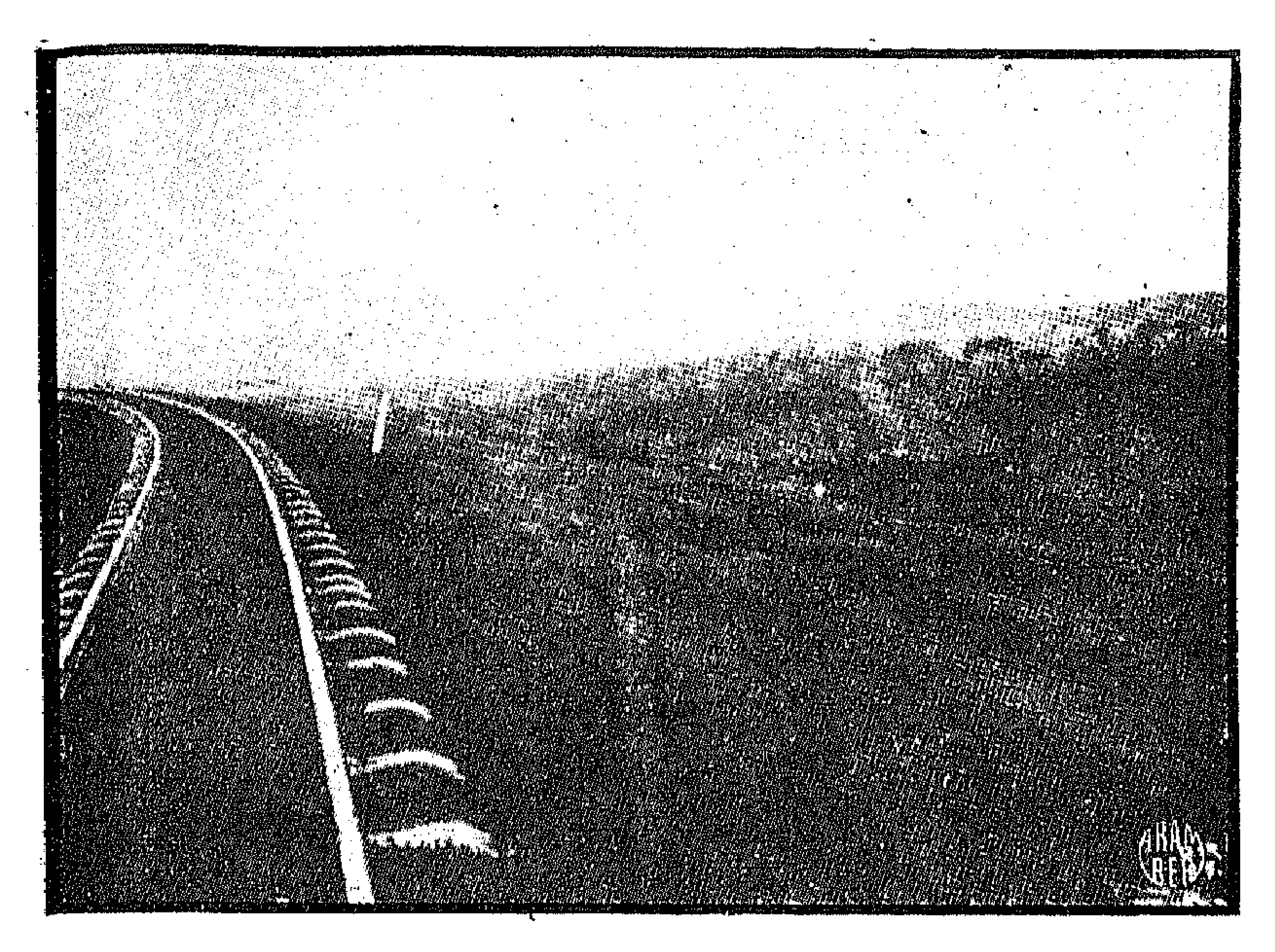
(القطار ينزل بنا الى الاخدود الاعظم)

والكل فى طابق واحد وفوق ذروة كل ربوة بناء شامخ ، والمنظر حول كامبالا ينم عن مناظر أوغندا كلها تلك التى أطلق عليها ستانلى (لؤلؤة أفريقيه) فهى مجموعة من تلال محدبة ذراها مسطحة بينها وديان تسدها الخضرة وتفاجئك المياه بكثرة وعلى غير انتظار ، والمدينة مقامة على سبعة تلال كما بنيت روما لكنها أبعد جمالا وأغنى روعة تتصل كلها بطرق متلوية تهوى تارة وتصعد أخرى الى مئات الأميال فى رصف بديع وهى تشق جزءاً من افريقية كان الى أمد قريب مجهولا مغلقا ، أرتقيت أعلى تلك التلال واسمه تل ناميرمبى (Namirembi) ومعناه تل السلام تتوجه الكاتدرائية الانجليزية وفيها أقيمت أول صلاة مسيحية هناك سنة ١٨٧٧ ودمرت تماماً



(بحيرة ناكورو وسط الاخدود الاعظم)

بعاصفة سنة ١٨٩٤ ثم جددت بعد عام لكن السماء الغاضبة نسفتها بعاصفة سنة ١٩٠٠ والكنيسة الفاخرة الحالية أتمت سنة ١٩١٩ والى مقربة من المكان (تل كاسوبى) تتوجه المدافن الملكية وأروع ما رأيت منها مقبرة الملك (موتيزا Mutesa) وابنه الماجن (موانجا Mwanga) والد الملك الحالى وبجوار المدفن الطبل الأعظم (موجا جازو) الذى كان يدقه رئيس الجلادين (موتا مانياج) كلما أرادت آلهة القبيلة (لوبارى) الفظيعة بعض الذبائح البشرية (كيوندا Kiwenda) طوع عادتها الدموية القاسية والمدخل قبو يحوطه سور من جدل الغاب الأنيق تتوسطه ردهة مستديرة تقوم حولها مساكن الحراس وفى المقدمة المدفن وهو كوخ فاخر مستدير يقوم



سكة الحديد الى فكتوريا وهى هنا تعبر خط الاستواء ثلاث مرات
بانياتها العجيبة

على عدة عمد مزركشة ومن جذوع الشجر وفى قراره المقبرة تصف عليها الحراب البراقة والى يمينه مدفن ابنه موانجا والى جوار حظائر المدفن مسكن أخت (موتيزا) وحاشيتها فى أكواخ كبيرة تحوطها أسرار الغاب ، وكم خضبت أرجاء هذا التل دماء الأبرياء من بنى الانسان وكانوا يقدمون زرافات كقرابين فى عهد ذاك الطاغية

نبذة عن تاريخ أوغندا والطاغية موتيزا : أول من رأى أوغندا من الأوربيين (سبيك) لكن تجار العرب كانوا



(الشوارع فى كيسومو تنحدر كلها الى بحيرة فكتوريا)

يعرفون البلاد حق المعرفة قبل ذلك بزمان بعيد ولقد دهش سبيك لأنه بعد أن سار من الساحل عند زنجبار بين أقوام من العرايا الهمج رأى أهل أوغندا يلبسون الأنسجة المختلفة حتى انهم استنكروا أن يروا حمار سبيك يبدو عاريا ، وقد لاقاه الملك موتيزا وأكرمه وكان طاغية قاسياً له سبعمائة زوجة ومائة وخمسون من الأبناء ، وقد رحب بالأجانب ظناً منه أنهم سيزيدون البلاد علما وقوة واعتنق المسيحية وطلب أن توفد إلى بلاده البعوث الدينية ، ولما مات موتيزا سنة ١٨٨٤ قيل انهم قدموا على مقبرته خمسمائة من الضحايا البشرية ، وقد كره ابنه موانجا المسيحية وشجعه العرب على ذلك ، وكان شيع المسيحيين هناك فى شقاق مستمر فأخذ موانجا فى



كامبالا تقام على سبعة تلال
وهاك جندى البوليس وسط شوارعها المنحدرة

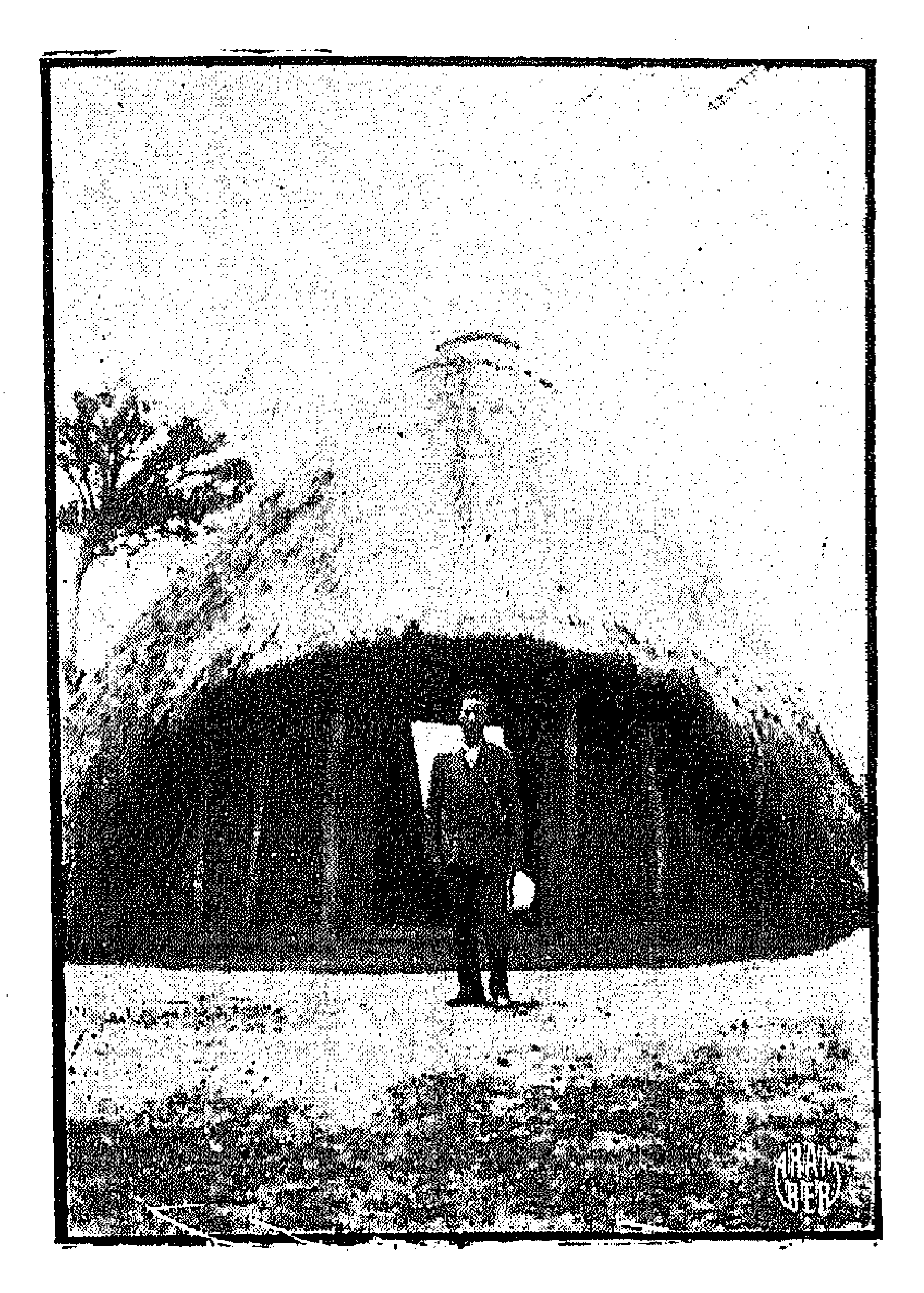
احراق كل من يعتنق المسيحية أو يلقيه طعاماً للتماسيح لكن بعض قومه ثاروا عليه فهرب وأيد العرب أخاه ملكا لنشر الاسلام لكن أسرع المسيحيون واستنجدوا بموانجا الذى حارب العرب وخذلهم وأيده المبشرون بالمال والرجال حتى كانت سنة ١٨٩٠ فأمضيت معاهدة بين انجلترا والمانيا ضمت بها أوغندا لانجلترا ودخلها (لوجارد) حاكما فاتحا بجيش من السودانيين وأهل زنجبار وهزم العرب على مقربة من (كوار) سنة ١٨٩١ فى مقاطعة أنكولى ، ولما أمن المسيحيون خطر العرب اقتتلوا ثانية (الكاثوليك الروم ضد البروستانت) وكان لوجارد يتعقب فلول جنود أمين باشا السودانيين فقتل بعض البروستانت بيد الكاثوليك الذين ساعدهم موانجا فقامت الحرب بين الفريقين طويلا وأخيرا رفع العلم البريطانى لأول مرة هناك ومنح المسيحيون من الفريقين امتيازات كثيرة ثم طالبت الشركة التجارية البريطانية فى



(الزى القديم والحديث فى كامبالا)

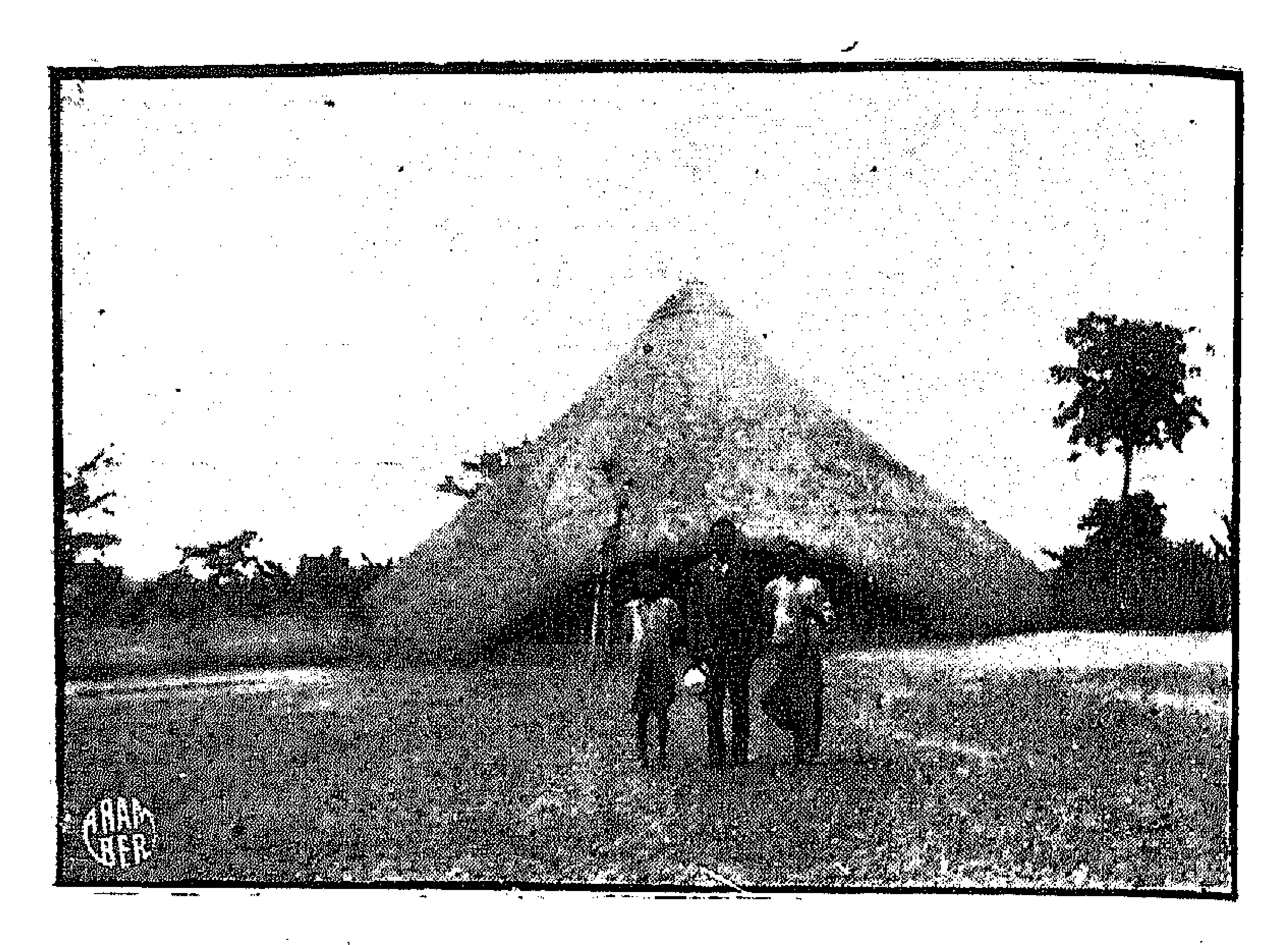
شرق أفريقية بامتلاك البلاد وقرر البرلمان البريطانى اخلاءها لكن عاد فعدل عن ذلك .

وفى ١٨٩٤ أعلنت الحماية على أوغندا ، وأطلق أيدى الكاثوليك والبروستانت معاً ليقوموا بشئون التعليم وتحويل الوثنيين الى المسيحية ما استطاعوا ، وأخذت الحماية توسع أملاكها غربا وشمالا وفى ١٨٩٧ ثار موانجا ثانية بمعاونة المسلمين وجنود السودان وكادت انجلترا تخسر البلاد كلها لولا انتصارها سنة ١٨٩٩ وفيه أسر موانجا ونفى الى سيشل حيث مات سنة ١٩٠٣ وأمضيت معاهدة (منجو) سنة ١٩٠٠ ونصب ابن موانجا (دودى تشوا) ملكا تحت أوصياء من أهله لأنه كان طفلا فى سن الرابعة



(أمام مقصورة موتيزا حيث كانت تقدم الضحايا البشرية)

ودفعت له بريطانيا راتبا كبيراً وتعهده مدرس انجليزى خاص . والطاغية موتيزا كان يقدسه رعاياه وكان يحكم حكم اقطاع معقد وكانت تقلبات أهوائه قاسية مدهشة فطالما بتر رأس زوجة لأنها نسيت أن تغلق الباب وراءه وكان ماجنا ، فكلما سمع عن فتاة جميلة حملها اليه أتباعه قهراً عنها والتعذيب لأقل هفوة كان شائعاً كقطع الآذان واللسان وقلع العيون وما إليها



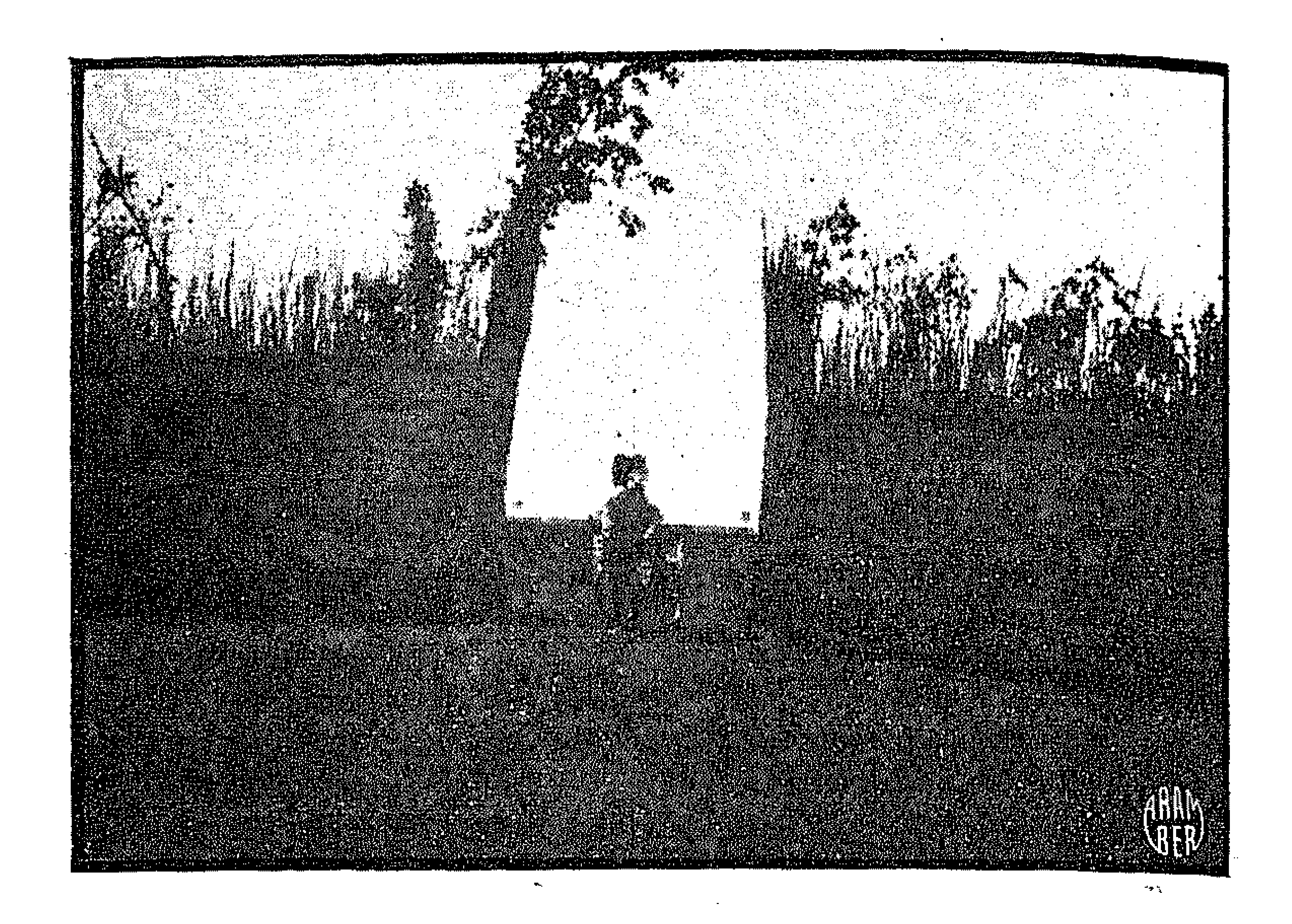
أمام مدفن موتيزا الطاغية وابنه الماجن (موانجا)

وكان كلما خرج جيشه دفن أمامه طفل حى إرضاء للعفاريت ولايزال الباجندا أهل البلاد الى اليوم يستهينون بالحياة ولا يستنكرون كثيرا من أعمال القسوة التى تقع تحت حسهم ، وكثيرا ما كان يجلس موانجا ويجىء الرجل أمامه فيقطع ذراعه ثم يشوى فى النار ثم ساقه وأخيرا يلقى كله فى النار على مرأى منه وهو ثمل سكران

ومن تلال كامپالا السبعة تل (منجو Mengo) مقر الحكومة الوطنية وموطن الـكاباكا (الملك) وكان الطريق الرئيسى المؤدى الى القصر يتدرج علوا الى المدخل الرئيسى تجانبه الخضرة والاشجار المشذبة ويطوق التل كله سور شاهق من جدائل الغاب والقصب متقن الصنع أيما اتقان

-وعلى الباب يقف الجندى (أسكرى) والى داخله تقوم المبانى يمينا وشمالا بعضها حديث النظام والبعض أقبية وأخصاص عادية وتلك دور الحكومة وفى الوسط يقوم القصر الملكى وهو قصر حديث البناء ، وأمام بابه توقد نار لايخمد أوارها إلا يوم يموت الملك وكانت تزجيها الذبائح البشرية منذ نصف قرن ، والى جوارها رأينا طبولا تدق على الدوام اعلانا وارهابا ، ويقطن القصر الملك الوطنى السير دودى تشوا (Daudi Chwa) سليل ملوك باجندا وخلف القصر بركة تغص بالتماسيح التى كان غذاؤها لحوم المجرمين الذين كانوا يلقون فيها أحياء ، وعلى ربوة من تل كامپالا نفسها زرت متحفا صغيرا أقيم فى مكان الحصن الذى بناه (لوجارد) ورفع عليه العلم البريطانى لأول مرة سنة ١٨٩٠، هنا ذهب خيالى الى عهد أمين باشا والعلم المصرى الذى ظل يرفرف فوق المكان طويلا ولولا غدر الزمان للبث هناك الى يومنا هذا ، أما المتحف فصغير يحوى بعض مخلفات أوغندا من دروع وتروس من الخوص والجلد وأسلحة من حراب وقسى وطبول وأدوات موسيقية ساذجة و بعض زينة المحار بين وما اليها ، و بجوار السجن تقيم عجوز شمطاء هى ساحرة شهيرة اسمها مورواموزا كانت فى مقاطعة كيجيزى قرب حدود الكنغو ولكثرة ما سببت من شغب و إرهاب نفتها الحكومة الى هنا وهى تخصص لها ولخدمها وأتباعها من حولها رواتب شهرية بها تعيش فى رخاء وذلك اتقاء شرها وسيطرتها على اذهان السذج من دهماء العبيد

وكامپالا هى العاصمة التجارية لأوغندا ، أما العاصمة السياسية فهى :

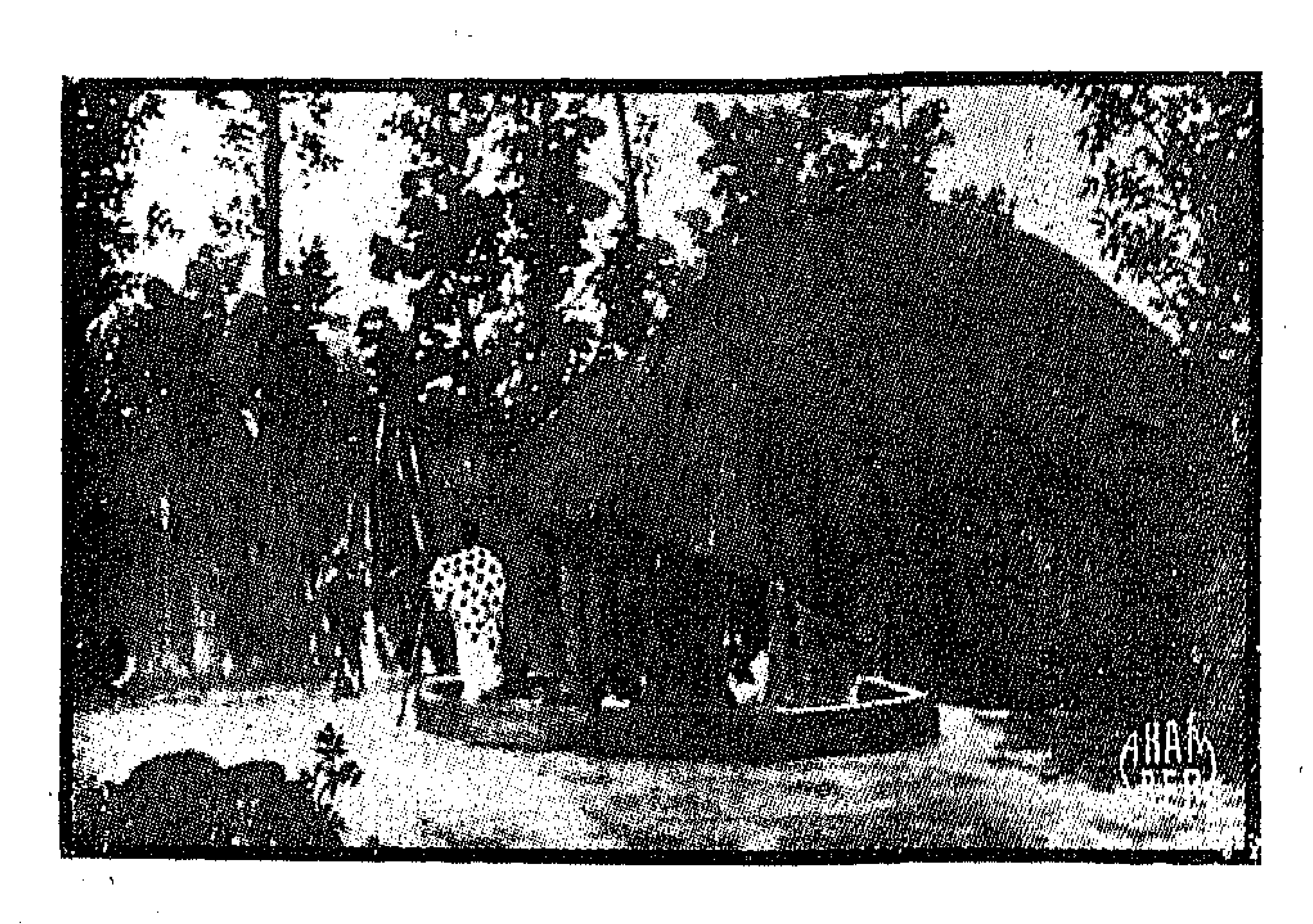


(مدخل البيت الملكي (كاباكا) في كامبالا)

عنتبة (ومعنى الكلمة الكرسي) فهي تشرف على البحيرة بثلاث شعاب كأنها الكرسي وهي مدينة فاخرة آية في التأنق على أنها صغيرة جدا ويكاد يكون كل قاطنيها من كبار الموظفين الأجانب وتسترعى النظر بها متنزهاتها اللانهائية وحديقة للنبات هائلة بها جل فصائل الشجر والزهر وبخاصة الاستوائي وقد وصلناها بالسيارات من كامپالا في أقل من ساعتين وكامپالا تعلو البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم والجو فيها جميل جداً أميل الى البرودة والسماء صافية في العادة قبل الظهر أما بعده فتكاد تحجبها الغيوم التي كثيرا ماتهمى وابلا أذكر منها عاصفة عاتية ظلت ساعة كاملة والماء يتهاطل كأنه من أفواه القرب وكان ضجيجه الى جانب قصف الرعد مرعبا مزعجاً مما جعلني أفهم

معنى الامطار الاستوائية مع انى كنت هناك فى غير موسم المطر والأقليم يشعرك بعظمة الغابات أينما طوحت ببصرك أما الطيور بديعة اللون فلاتحصى ولا تخبو زقزقتها وتغريدها لا ليلا ولا نهاراً وفى المساء وسط ظلمة المدينة الحالكة ترى الخضرة تنتشر فيها نجيمات تتلألأ وتنطفىء فى كثرة هائلة وهى اليراعة الطائرة (fire fly) التى أزعجتنى أيما ازعاج لأول مرة رأيتها وكنت فى الطريق وحيداً حينما لاحظت عدداً منها فوق قمة أحد تلال النمل وما كدت أقاربها لأعرف ما هى حتى هبت منها عاصفة فى وجهى وكأنها نار قد انفجرت

والأهلون من السود يتجمع غالبهم حول تل منجو مقر الملك وغالبهم من شعوب (الباجندا) يلبس كثير منهم أردية بسيطة من قشر شجرة اسمها (Bark cloth tree) ينزعون قشرها الليفى بعناية ثم تنقع قطعه فى الماء وتنشر وتدق بالطارق حتى يصبح ناعما طريا خفيفاً والشجرة منتشرة فى كل أوغندا وأعجب ما فيها أنك اذا قطعت جزءا ودفنته فى الأرض ينمو شجرة بمجرد نزول المطرعليه واذاسلخ الجلد وجب تغطية الجذع بورق الموز وقاية له حتى يظهر الجلد من جديد وجلد المرة الثانية أدق أليافا وأكثر نعومة وجودة من جلد الدفعة الأولى وقد بدأوا يلبسون اليوم جلاليب القطن والباجندا هؤلاء أهل جد وذكاء وكبرياء يفاخرون بأن منشآتهم سابقة للانجليز الذين لم يزيدوا على نظمهم فى ادارة البلاد شيئاً وقد كانوا طعمة لتجار الرقيق قديماً أكثر من غيرهم ويمتاز الواحد منهم على أهل كنيا.



(المقصورة الملكية فى أوغندا)

بأنه منتج وانه سيد نفسه فى مزارعه و يرجى على يديه تقدم زراعى خصوصاً فى القطن وأوغندا تعد ثالثة بلاد الامبراطورية البريطانية فى انتاجه وهم أسرع من غيرهم فى التمدين بدأوا يلبسون الملابس الافرنجية ويعبدون الطرق و ينظفون المساكن و يركبون الدراجات التى كنت أراها مطية الجميع فى مزارعهم ، وأكواخهم من الخوص والغاب والطين بعضها مربع والبعض مستدير وغالبهم لا يدين بدين خاص الا أن أثر المبشرين المسيحيين واضح جدا فهم أول من حل البلاد من البيض دائبون على الدعاية الدينية وقد ضموا لهم طائفة كبرى من السود الذين كنت أراهم يسيرون والصليب الفضى يتدلى من صدورهم ومئات منهم يؤمون الكنائس يوم الآحاد ، أما المسلمون فقليلون الا من الهنود الذين يحتكرون المتاجر و يحلون أكبر احياء المدينة ، وللقوم لغتهم الخاصة على أن السواحلية لا تزال لغة التعارف

بين المتنورين من القبائل المختلفة . . . .

هذا وجمال الطبيعة حول كامپالا يأخذ باللب وطفقت أتجول كل يوم سيرا على الأقدام خلال تلك النجاد والوهاد تطربنى أصوات الطيور وتفرعينى بألوانها الى الآلاف المؤلفة من الزهور فوق الشجر ووسط الكلأ فى فصائل لا يحصيها العد وتطير حولها مجاميع الفراش كبير الحجم وعجيب أنى كنت أرى كل فراشة لا تحط الا فوق زهرة تحكيها لونا ، وقد كنت أقصد ازعاجها فتطير ثم تعود الى زهرها دون أن تخطىء ، وكان الطير يفعل ذلك إلى حد ما ، وكم كنت أحاول ترك الطريق المعبد لأشق الاحراش والغابات اختيالا فتخوننى لياتها وأظل أسير فلا اهتدى الى غاية كلا ولا أتعرف حتى المكان الذى طرقته ، أذكر ليلة أنى خرجت عصرا صوب تل الملاك فأوغلت فى الغاب ظنا منى أنى أستطيع تحكيم ملكة الاتجاه فما لبثت أن ضللت وسط تلك الغابات الرهيبة الموحشة الى الثانية صباحا أعنى الليل كله تقريبا حتى فاجأتنى ناعورة سيارة سلكت سبيلى جريا اليها وأذابى فى طريق شق خلال الغابات ، ولن أنسى مبلغ الذعر كلما سمعت حركة وأنا جالس أستريح فى وحشة الليل الرهيبة على أنى علمت بعد أن الوحوش والحشرات قد قلت هناك جداً لقرب الغابات من مواطن الانسان أما الاهلون فشديدو الملاحظة يتعرفون طريقهم حتى وسط الشجر الكثيف ، وكان النساء نشيطات فى الزراعة يتعهدن الموز والبطاطا والتابيوكا وكلهن يلبسن الملاءات الملونة تدثر الجسم كله من أسفل الصدر أما ما فوق ذلك فعار ويسترعى النظر الحزام الذى يلف من فوق العجز إلى ما تحت

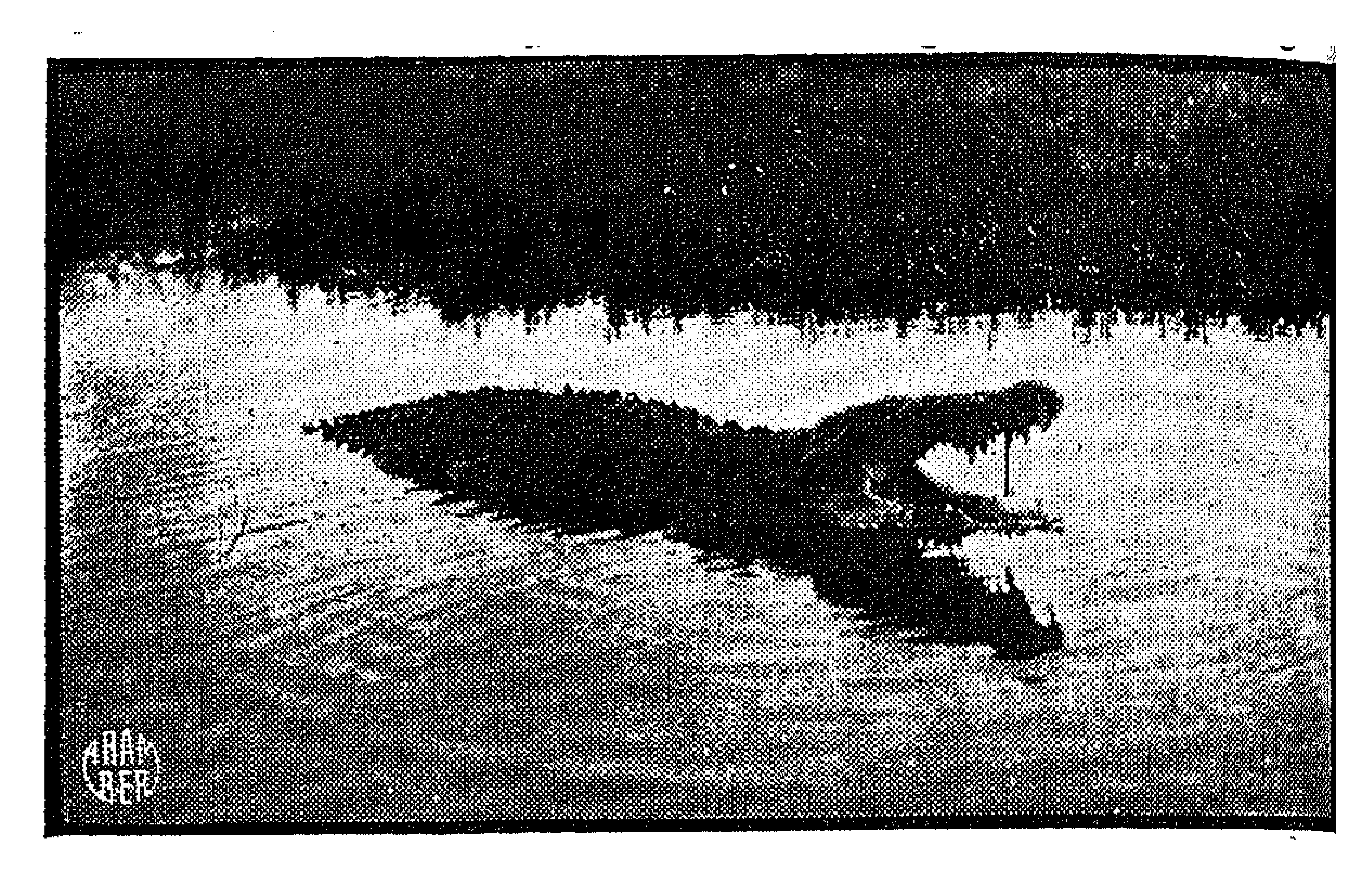


(عند مدخل القصر الملكى تدق هذه الطبول صباح مساء رهبة وإزعاجا)

السرة وهو مدلى من الامام فيساعد على انبعاج الصدر والبطن الى الامام وانتفاخ العجز الى الوراء فتبدو السيدة مضحكة فى مشيتها خصوصا اذا كانت من قبائل (باهيما) رعاة البقر المشهورين فى انكولى غرب البحيرة وآية التجمل لديهن السمن المفرط الذى تسعى اليه السيدة حتى لا تكاد تستطيع السير وهم يتخذون من شعر الفيل أساور وعقوداً رجالا ونساء يدهنون رؤسهم بروث البقر ، فاذا سألت أحدهم عن تلك العادة القذرة أجابوا بأنهم لو نظفوا أنفسهم نفر البقر منهم فهو لا يتبع إلا الجسوم الملطخة بفضلاته والعجيب انهم يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية المسودة على من حولهم ، وأعجب ما فى أبقارهم قرونها التى يهولك امتدادها

وكنت أرى آلاف المخاريط التى يسمونها (تلال النمل) يسكنها النمل الأسود والأبيض فى حجم بالغ وتراها من داخلها مثقبة فى سراديب متلوية والنمل هناك آفة خطيرة تفسد كل شىء فى الغابات والمساكن وهم يتركون النمل يبنى مخاريطه التى تراها تصف على جوانب الطرق ووسط الغابات فان تعرضوا لها لجأ النمل الى اقامتها تحت المساكن بعد نخرها فلا تلبث المساكن أن تنهار ، وهذا النمل أعمى لايبصر ويبنى له حواجز على جذوع الشجر فى الغابات ليأمن السقوط اذا تسلق وهـذه يقيمها من الطين الذى يحمله فوق رأسه ويلصقه بالجذع بمادة صمغية من أفرازه وينخر الشجر ويأكله

والكساد المالى كان يبدو مجسما فى أوغندا كما بدا من قبل فى كنيا وسائر بلاد جنوب أفريقية وشرقها فكثير من الدور والحوانيت خاوية الوفاض تعرض للايجار ومئات منها آخذ فى التصفية ودخل الحكومة آخذ فى النقص السريع خصوصاً دخل السكة الحديدية والبواخر لذلك اختصرت كثيرا من القطر والبواخر وتفكر فى الاستغناء عن بعض الموظفين كما استغنت عن كثيرين من قبل وأنقصت المرتبات جميعاً وهاهو نزل ساڤوى ثانى انزال المدينة يبيع متاعه وسيغلق أبوابه آخر الشهر ولم يكن به من النزلاء غيرى أنا ورجل آخر مما أفقدنا روح الاجتماع فكنا نتناول طعامنا ونأوى الى مضاجعنا خلسة كأننا نخجل مما نحن فيه من وحشة على ان الاهلين لايخشون ذاك الكساد لندرة حاجياتهم ولتوافر طعامهم الفطرى من منتجات الغابات التى لا ينضب معينها



(التمساح لوتمبي يجيب النداء)

وفى ناحية من كامپالا تبعد عنها بنحو أربعة عشر ميلا وتطل على البحيرة مكان يسمونه لوتمبي (Lutambe) أى التمساح قصدناه فكان الطريق اليه يهوى وسط المزارع والغابات الكثيفة المشتبكة المظلمة ومشهد البحيرة ساحر بجزائرها الصغيرة المنثورة وتغضن الساحل الذى يحفه نبات الماء فى كثافة مشتبكة وبخاصة البردى والبشنين والحلفاء وكثيرا من الأشجار والشجيرات وكان بعض الشاطئ مدرجاً والبعض صخريا مشرفا فى حمرة قاتمة من نسيج الجرانيت المحبب وعجيب أن كانت تنمو خلاله الأعشاب وبعض الشجر وهذا المكان يدين بشهرته الذائعة لتمساح ضخم عتيق من بين آلاف التماسيح التى تغص بها البحيرة .

وقف زنجى هناك على الشاطئ، وأخذ يناديه وهو يصيح بأعلى صوته



(يناديان التمساح لوتمبي على بحيرة فكتوريا)

قائلا : (لوتمبي ياد يالوتمبي يانجوكوو) مرات حتى سمع التمساح النداء على بعد شاسع وعمق سحيق ووفد الى الرجل وزحف بجواره ليأكل من يده بعض السمك ولبث الغلام يناديه يومنا زهاء الساعة والنصف وكدنا نيأس من ظهوره وأخيرا عند الغروب ظهر يشق الماء وأخذ يزحف بجوارنا كأنه أليف مستأنس يلتقط السمك الذى كنا نقدمه له وعلمنا أن متوسط ما يكفيه كل يوم مائة كيلو جرام من السمك

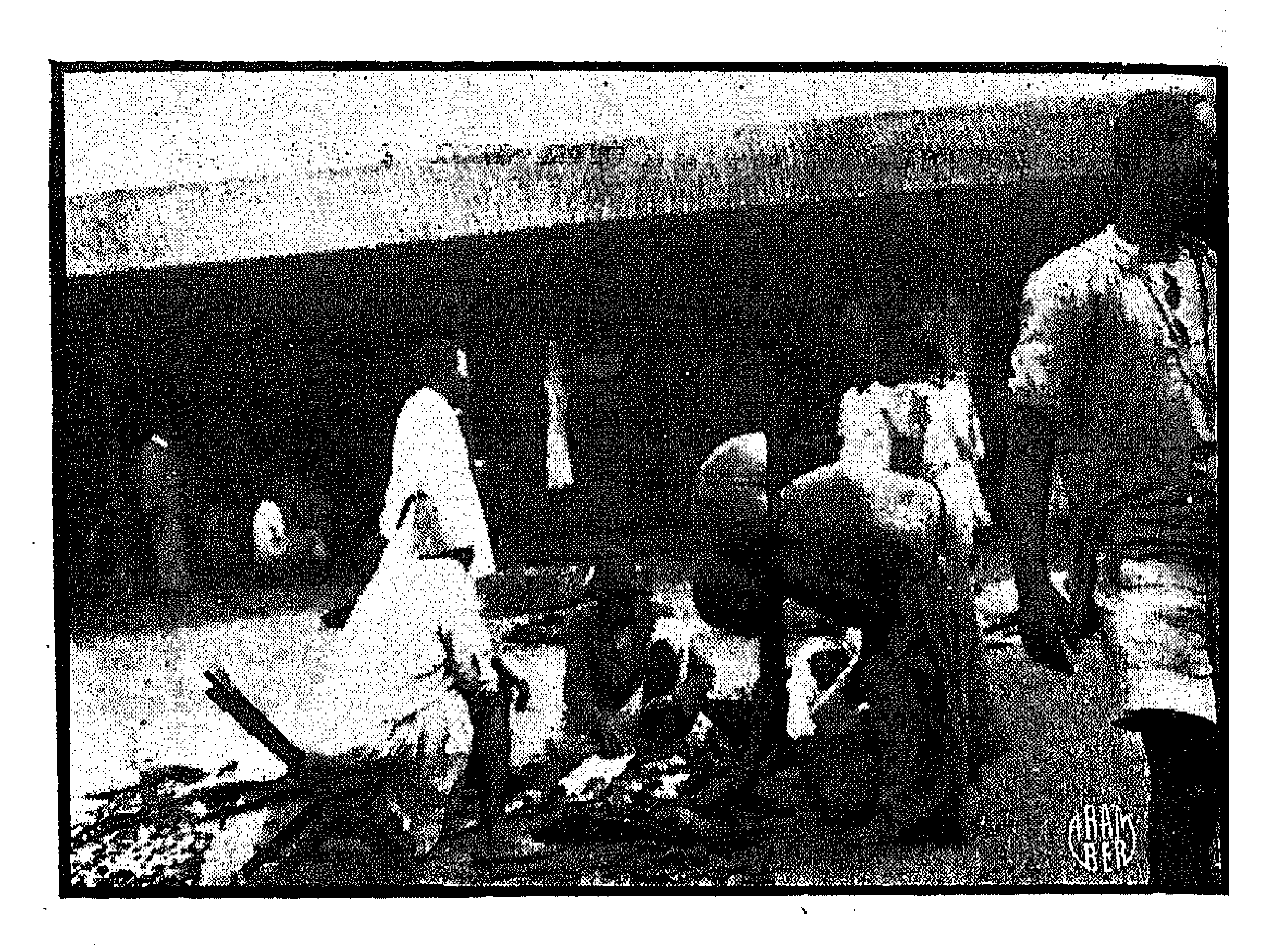
ويقول القوم فى أقاصيصهم أنه ظل حارس البحيرة الامين فوق مائتى عام ويقدسه الجميع وفى بعض الأحيان لا يسمع النداء فيصفق له الغلام



(على ضفاف بحيرة فكتوريا حيث يقطن التمساح المقدس لوتمبي)

بصفائح فى الماء فيجىء اليه ويؤيدون أنه عتيق بتثاقله الشديد عند مايظهر ويمشى على الشاطىء ، ويروون عنه أنه نهش ذراع رجل مرة ولقدسيته اتهموا الرجل بالسرقة فأخذوا الرجل الى الشاطىء ونادوا (لوتمبي) وطالبوه بقولهم (أرنا بحكمك الراجح ان كان الرجل لصا أم بريئا) وقدموا له الذراع الثانى فالتهمه التمساح وعندئذ اعترف الرجل بسرقته ورد ماسرق لصاحبه ومات بعد ذلك بزمن قليل ، وعادة تقديس التماسيح واستئناسها ومداعبتها هكذا مصرية قديمة

سوق كامبالا : يقوم فى بناءين متجاورين يقسمان الى مدرجات طولية مسقفة تعرض تحتها المبيعات أحدهما للخضر واللحوم وهو نظيف جدا كان القوم يبيعون فيه أنواعا شتى من الفول والجذور بعضها أخضر يؤكل طازجا ، والبعض مجفف كأنه قطع الحلوى يسحق ويباع دقيقا ، ثم الفاكهة وبخاصة الموز فى عراجين ضخمة ويليه كثرة (البوبوز) فى حجم (الشمام) إلا أنه مدبب من أحد طرفيه ولون لبه برتقالى وطعمه حلو لذيذ كان يقدم لنا فى النزل نأكله بالملعقة فى طعام الافطار ، أما البناء الآخر فقسم فيه للسمك المجفف فى شكل أغبر مقدد منفر المنظر كريه الرائحة ويعرض فى احجام مختلفة من تروس قطرها خمسة سنتيمترات الى سمك طوله المتر ، وقسم آخر مكشوف تعرض به من القنانى القديمة وعلب التبغ الفارغة وقطع من صفيح ونحاس للزينة وكلها من سقط المتاع تدل على سذاجة القوم وسخف عقولهم ، والزحام هنا بالغ أشده ، وكم كان يسترعى نظرى نظام التحية اذا تلاقى صديقان يبسط أحدهما كفيه متجاورين ويلمس الآخر بطنهما براحته ثم تظل اليد تتحرك بينهما ذهابا وجيئة مرات وخلال ذلك يفوه كل بكلمة تحية تتبعها زجرة لا بل وتأوهات عميقة طويلة ، ومن الغريب أن وجه كل منهما منصرف عن وجه أخيه ، والنسوة تمر وهى تتهادى متثاقلة لما تحمل فوق رأسها من متاع وفوق ظهرها من طفل كأنه القرد الصغير ، وغالبهم يبدون فى حرائر فاضحة اللون بين أزرق واصفر وأحمر ، وبعضهن لا يغطين الأكتاف الى الثديين ليظهرن زينة الوشم والتجريح الذى خلف



(سوق كامبالا)

فى الجسم صفوفا منظمة من أدران تتعرج يمنة و يسرة ، وقد جرنى الحديث
عن المستوى الخلقى هناك فعلمت أن العفة لاتكاد توجد بين الاهلين الذين
لاتزال نزعتهم الحيوانية سائدة هذا الى تذوقهم طرفا من المدنية التى جعلت
بعضهم يسعى وراء النقود من أى طريق ' وسواء أ كانت المرأة آنسة أم
متزوجة فانه يمكن استمالتها واستهواؤها عاجلا ، وكثيراً ما يرضى الآباء
والأمهات والازواج بذلك ، وقد أيد عندى ذلك زيارتى لمستشفى كامپالا
أ كبر مستشفيات تلك الاقاليم حيث كان غالب المرضى هناك يشكون
الأمراض السرية و بخاصة الزهرى وقد خبرنى بعض الاطباء هناك أن تلك
الأمراض منتشرة فى البلاد بكثرة مروعة ، وهى تودى بحياة الكثيرين

منهم ، ولحسن الحظ أن القوم لا يخفون المرض بل يقدمون أنفسهم للحقن بدون خجل

والزواج هناك من سن العاشرة والبنات يبلغن الحلم مبكرات والأب يؤثر الذرية من البنات لأنه يتقاضى عليهن مهورا عن زواجهن ثم يأخذ الزوج عروسه و يبقى المهر الذى دفعه للأب يتمتع به وأخص مهرجان يقام للزواج الرقص والطبول المزعجة

وليس فى المدينة من وسائل التسلية أو الملاهى شىء قط على كبرها حتى ولا المقاهى أو المراقص كلا ولا الاضواء فاذا أقبل الليل خيم الظلام وعم السكون وسادت الوحشة المدينة كلها ، ومصابيح الطرق متباعدة ضئيلة الضوء لأنها تنار بالبترول حتى أننى كنت أتلمس طريقى ليلا وكأنى الأعمى الضرير لذلك كان لزاما أن يحمل كل عابر سبيل مصباحه أو (بطاريته) كى يتعرف طريقه وسط تلك الظلمة الحالكة .

وبالمدينة مجموعة من شبه متنزهات فى متسعات تكسوها الخضرة ، وفى بعضها تنمو الاشجار وغالبها ملاعب (للجولف والتنس والهوكى) و يتوسط المدينة متنزه صغيرة يعرض به مدفع حديث بعيد المرمى لا يزال براقا انتزع من السفينة الالمانية التى كانت تحرس ثغر موانزا جنوب فكتوريا نيانزا لما سقطت فى أيدى الانجليز سنة ١٩١٦ وأقيم الى جواره نصب تذكارى لمن فقدوا أرواحهم فى الحرب العظمى من السود سكان البلاد ، ويخيل إلى أن كامبالا كلها متنزه جميل من أية بقعة نظرت أحاطت بك الخضرة

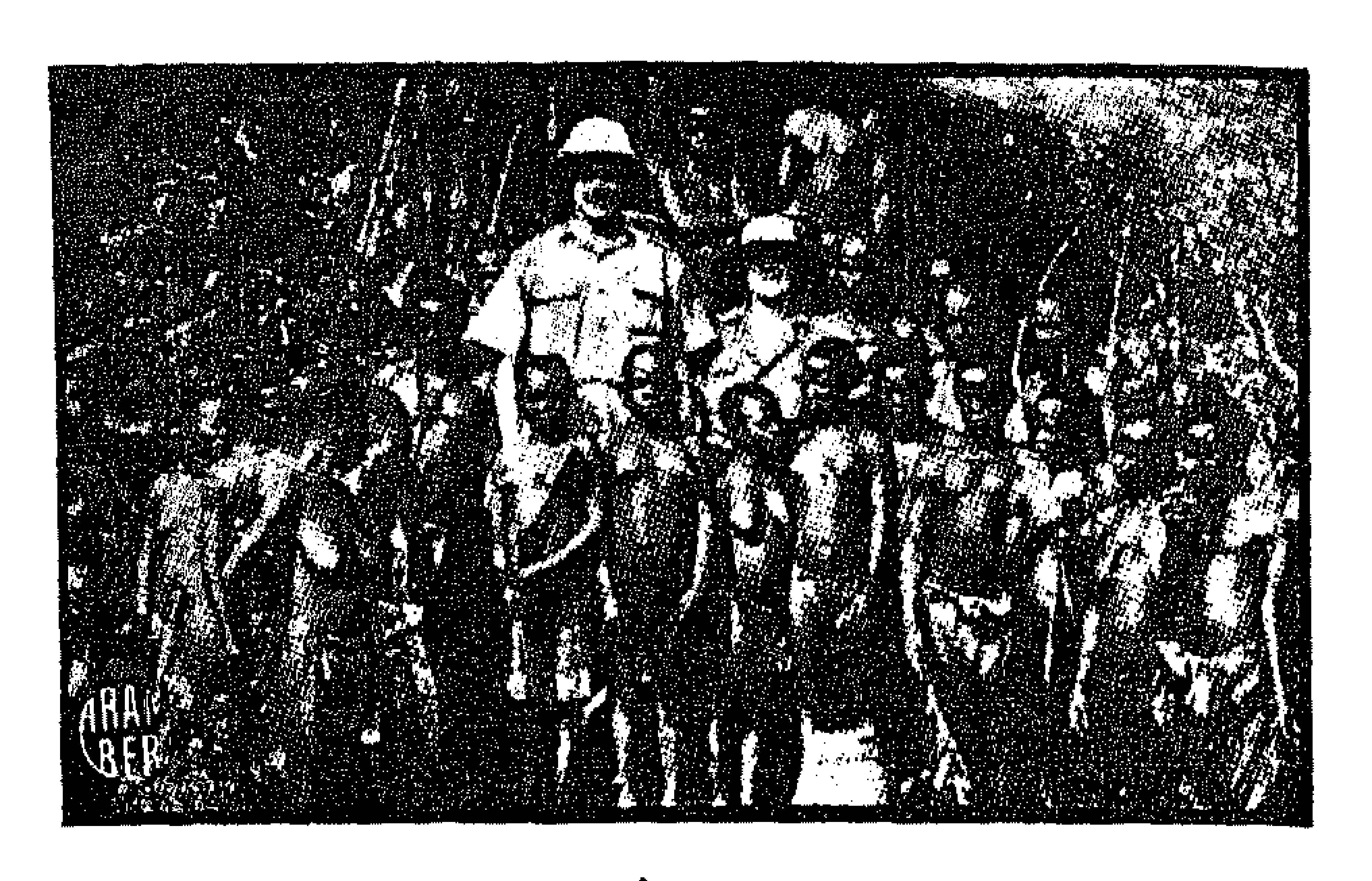


(لاتكاد تنقشع تلك السحائب عن جبال القمر أبدا)

النضرة فى أرض مغضنة الى الآفاق ومساكن الأهلين من الزنوج هنا نظيفة اذا قورنت بأكواخ القبائل الأخرى اذ ترى البيت وقد استؤصلت من حوله الاشجار والاعشاب البرية وأحيط بسياج يغلب أن يكون من النبت والزهر ويكنس الناس داخل البيوت ويحرقون القمامات عند الغروب فى أجحار وراء البيوت تلك الفكرة التى نقلتها فرق الكشافة عن أمثال أولئكم من سكان الغابات .

الى جبال القمر : (رونزورى) : طالما حننت إلى مشاهدة جبال القمر تلك التى تخيلها — بطليموس قبل الميلاد مستمد مياه أعظم أنهار الدنيا نيلنا المبارك — ولقد كان الاسكندر المقدونى يرى ذلك وقد سمع سبيك من العرب أن هناك جبلا رهيبا لا يكاد يستبين لكثرة ما يكسوه من المواد البيضاء

ولا يستطيع أحد ارتقاءه لوعورة منحدره وقد رآه بيكر فى زرقة فاترة لذلك أسماه (الجبل الازرق) وفى ١٨٧٥ تسلق ستانلى جانبا صغيرا من مرتفعه لـكنه لم يكن يدرى ما يعلوه من ارتفاع شاهق كذلك امين باشا الذى أقام على البرت، عشر سنين ولم ير قبسا منه ، ولقد تحقق لى مرآه بفضل رجل فرنسى لاقيته فى كامپالا علمت منه أن هناك طريقا معبدا طوله ٢٠٧ ميلا تشقه السيارات غربا الى فورت بورتال وهى قرية صغيرة فى أسفل تلك الجبال قطعناها فى ست ساعات خلال مناظر أوغندا المألوفة الساحرة ، نجاد تنكشف منها هوى تسدها الغابات وتباغتنا النقائع فى غير حصر تغص بالبردى والبشنين أكبرها بحيرة (وامالا) ثم جزنا تل (مو بندى) موطن السحرة ورسل الآلهة (نا كاهيما) وعليه تقوم بقايا الشجرة المقدسة التى تقدم تحتها الضحايا البشرية وعندما قاربنا (فورت بورتال) كثرت منابت البن التى تحفها من جميع نواحيها ، وهناك حللت استراحة خشبية لأمضى فيها ليلتى استأجرتها بجنيه اذ ليس بالمدينة فنادق قط لا بل وليس بهـا شىء الا بقايا حصن قديم ، هنا قام الى غربنا رونزورى يسامت السماء و يتصل بسحبها فى كثافة رهيبة أيدت فى ظنى خرافات القوم هناك أولئك الذين يعتقدونه مقر الجن ومحط الارواح التى انسلخت عنها أرواح أجدادهم من الحـكام الجبابرة لذلك فهم يرهبونها جميعا ، أما الغابات حوله فتسد الآفاق سدآ و يسمونها غابة (أتورى Eturi) مقر الاقزام من السود الذين رأيت بعض أفرادهم فى المدينة ولا يجاوز الواحد أربع أقدام فى الطول يعيشون على الصيد



(أقزام جبال القمر ويبدو الاوروبى وسطهم عملاقا)

بحرابهم وسهامهم المسمومة ، لم أشف من مشهد ذاك الجبل العاتى غلة فلقد طفقت أرقبه سبع ساعات متواليات فى وضح النهار لكن لم أدر أوله من آخره ضباب وسحاب ورذاذ ماء لا ينم عما فوقه ، ولقد قيل لى ان منحدراته وبخاصة الشمالية أكثر بقاع الدنيا رطوبة لأن مطرها يفوق ٢٠٠ بوصة ولأن نز الماء من جوانبها لا ينقطع أبدا ، ولا تكاد الجبال تبدو إلا بضعة أيام من السنة إذا ما صفا أديم الجو حولها ولا يكاد حينذاك يبدو فى لون قرنفلى شاحب تكسوه عمائم الثلج فى مساحة مائة ميل مربع وتتجلى أعلى الذرى (مرجريتا) على علو ١٦٧٩٤ قدم وهى أشد ذرى افريقية وعورة وأصعبها تسلقا وأحدث من حاولوا صعود الرونزورى (دوق أبروزى) الذى يقول فى كتاب رحلته عن وعورة الغابات هناك :

كنا لا نرى فى الأرض سوى جذوع وفروع تسد الآفاق يكسوها



(أقزام السود فى غابة أتورى على رونزورى جبال القمر)

الطحلب الذى يتدلى منها وكأنها اللحى الكثة المترنحة تشوه كل شىء ،
وما الادواح إلا لفائف لا يتعرف المرء أين تبدأ مطاويها والى أين تنتهى
ولا سبيل إلى الورق الأخضر إلا ان تلمسته فى الاغصان السماوية وأنت
لا ترى للضوء قبسا بسبب ما يحجبه من الجدائل الكثيفة والفروع المتعانقة

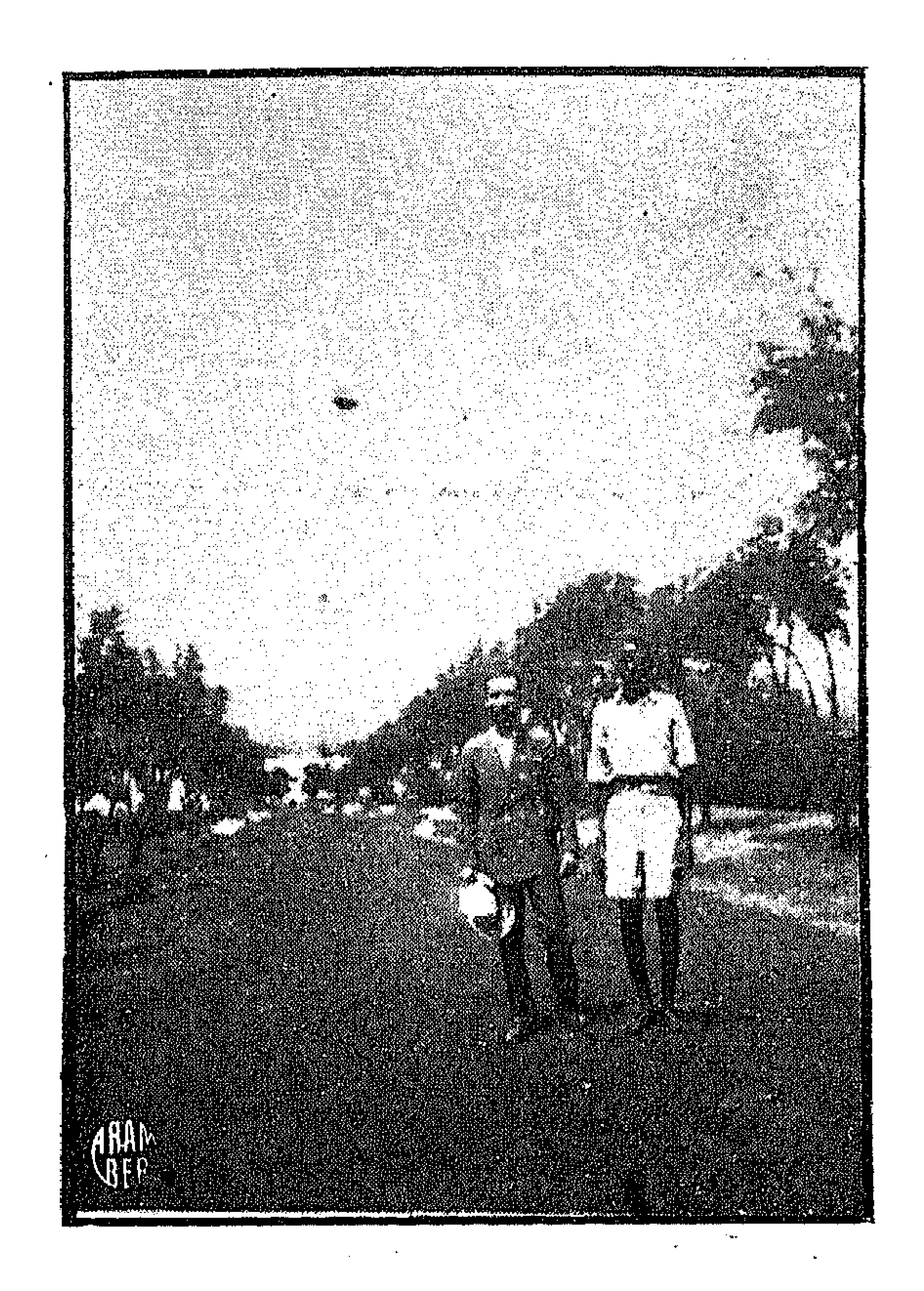


رعاة (انكولى) بأبقارهم ذوات القرون الشامخة (أوغندا)

فى كثرة تسد كل شىء أما الأرض فيخفيها خليع النبت ميته وتبطنه طبقات من الطحلب الزلق اللازج قذر فى مرآه نتن فى رائحته والمكان ساكن موحش رهيب .

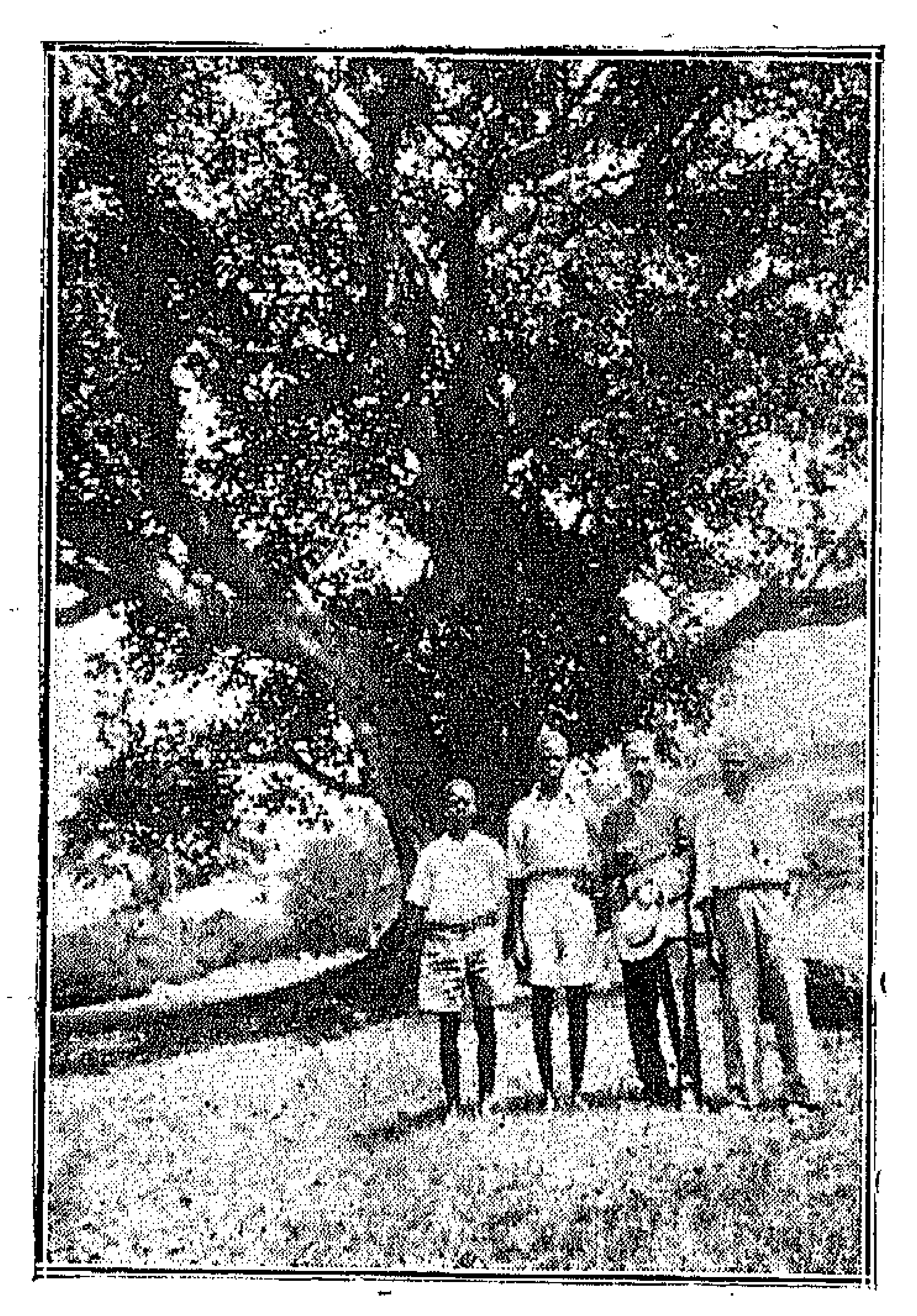
عدت الى كامبالا وفى نفسى حسرة لأنى كنت اخالنى أستطيع أن أرتقيه فأشرف على سمليكى فى هوته السحيقة لكن وابل المطر ووعورة المرتقى وكثيف الغاب كل ذلك حال دون تحقيق ماهويت على أن مارأيته يعوض ما كلفتنى تلك الجولة الفرعية من عناء ومال هو عشرون جنيها أو يزيد .

الى جنجا منفذ النيل : أخذ القطار يعلو بنا تدريجا وهو يتلوى ليباته العجيبة وسط اقاليم مموجة تكسوها الخضرة الكثيفة و بين آونة وأخرى كانت تبدو فجوات زرعت من الموز تمتد متسعاته الى الأفق كأنه الغابات وقد كان علو شجره يفوق أربعة أمتار وفى وسطها تقوم أكواخ



(شوارع جنجا تنحدر كلها الى بحيرة فكتوريا)

قليلة للأهلين ، وقد يزرعون بجوارهم بعض الذرة والبطاطا ، وفى بعض الجهات قصب السكر ومررنا بأحد مصانعه الكبيرة على أن القصب هناك من نوع قصير العقد صغير الأعواد ، وكانت تنكشف بعض النقائع ومسايل المياه وكلها تكاد تختنق بالنبت والبردى فى (شواشيه) الانيقة وكانت المحاط متباعدة جداً لندرة السكان هناك . وكان القطار يحمل وقوده من



(تحت شجرة موتيزا حيث كانت تقدم الضحايا البشرية فى جنجا)

أرمات الخشب المكدسة فى المحاط ، وقبيل جنجا فاجأنا منظر البحيرة فى لونها الفضى وامتدادها العظيم وسرعان ما انعطف القطار فبدا النيل وهو يتلوى فى مخرجه من البحيرة وكأنه طيات من الفضة يخرج من قمم متلألىء هو خليج نابليون ، وقبل أن يستقيم رأيته يهوى درجة هى شلال ريبون مفتاح النيل وتتوسط تلك الدرجة صخرتان متباعدتان ينساب الماء خلالها فى ثلاث فتحات أكبرها اليمنى وتلك الصخور بدت على بعد كأنها شعاب الزمرد الأخضر ، ولما دانيتها بعد حلولى المدينة كانت صخورا سوداء من الديوريت



(على حافة شلال ريبون منفذ النيل المبارك)

النارى القديم تكسوها الاعشاب الطويلة والشجيرات وأمام ذاك المسقط لذى يهوى بالنيل كله أربعة أمتار تكثر الشعاب الصخرية المنثورة فى غير نظام يتمايل الماء حولها ، وينزل عدة مساقط صغيرة هنا انثنى القطار وعبر النهر بقنطرة نحيلة يبدو مشهد الشلال والجنادل والصخور من فوقها رائعا ، وما كدت أحل غرفتى من نزل (أبيس Ibis) الانيق الصغير حتى تمثل أمامى منظر الشلال والنيل فأسرعت اليه سيرا على الأقدام مسيرة ربع ساعة وهناك تجلت العظمة وتوالت الذكريات نزلت الى حافة الشلال فلم يسعنى إلا أن أجلس معظم الوقت أنظر إلى مهوى الماء السحيق وأستمع لدويه الرهيب يظلنى رذاذه ويطربنى هزيمه . كان يتجلى ماء فكتوريا



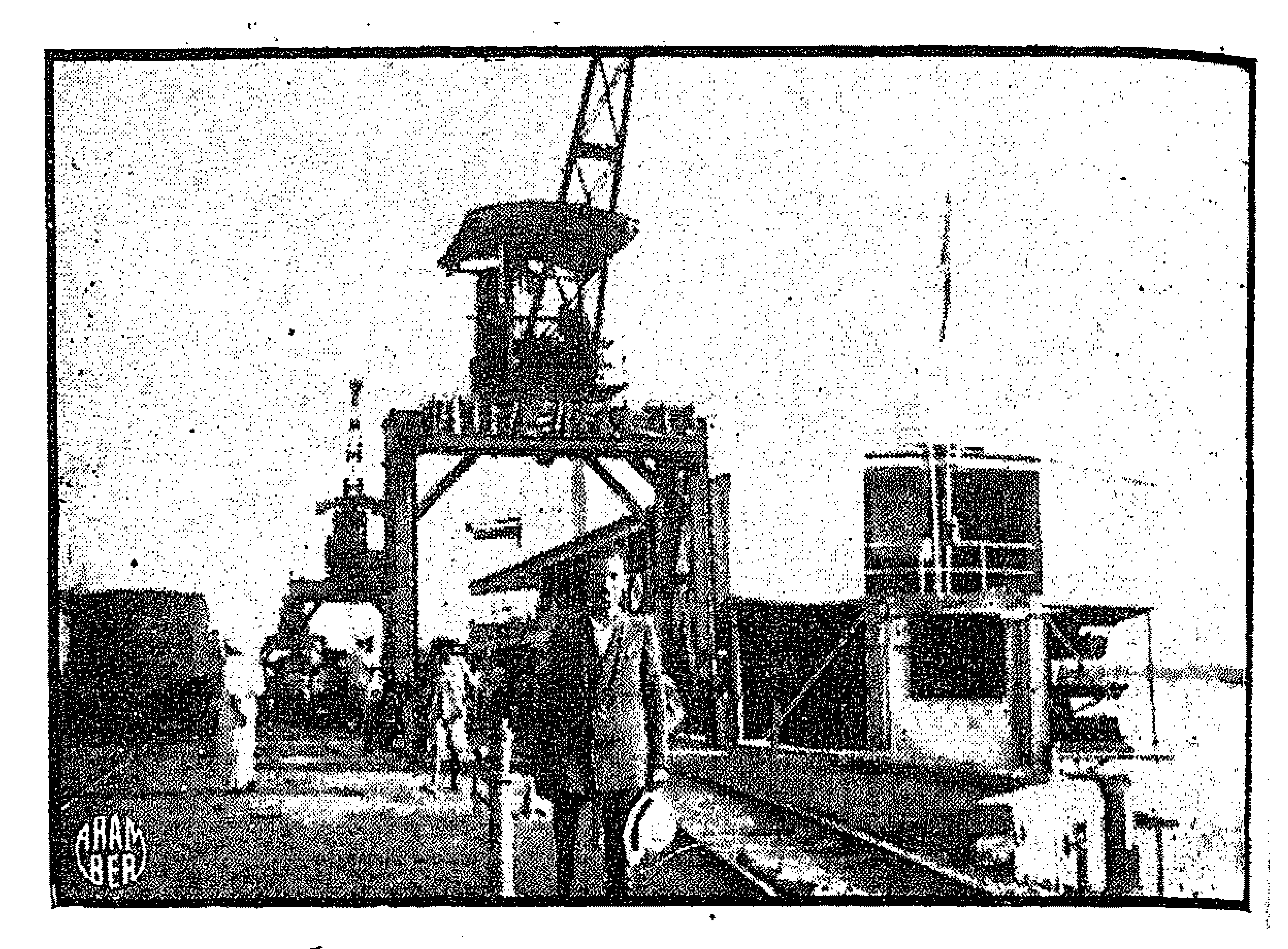
(شلال ريبون وترى فكتوريا الى اليسار والنيل الى اليمين)

عند شفا المسقط أملس ناعما فى وسطه مضطربا يعلوه الزبد فى جوانبه وبين آونة وأخرى نرى السمك يحاول مغالبة الماء بقفزاته العدة عساه يتخطى الشلال سابحا فى الهواء إلى البحيرة ، لكن أنى له ذلك ودفع الماء شديد ومستواه بعيد وكأنه كان يتخذ هذا العمل ملهى له ومستراضا ، وكان الطير يحط فوق البحيرة ثم لا يلبث يطير جماعات يتخذ كل فريق شكلا هندسيا هو الى المخروط أو الوتد أقرب ويحوم حولنا ثم يعود فيهوى إلى الماء ، هنا سرح الخيال فى النيل ومصر ، وما كانت عليه ابان عظمتها وماتعاقب عليها من حوادث وعبر والنيل باق على هذا النحو طوال الأعمار ، وكنت أشعر



(النيل وجنادله بعد خروجه من فكتوريا)

بآيات إخلاصى تتجسم خارجة من القلب لتسابق الماء الى الوطن العزيز منظر جدير بالتقديس ولايزال الى اليوم يقدسه بعض قبائل الكنغو يفدون الى ريبون ويقدمون للنيل القرابين والضحايا ليسترضوا إله المياه الجارية ، وعلى جانب من الشلال مولد للكهرباء يسخر بعض مائه المندفع وتلك تستخدم فى رفع المياه المدينة كلها ؛ لكنه لم يستغل فى الاضاءة لندرة السكان وشح الاستهلاك فى جنجا ، والمدينة نفسها متسع من الربى يشرف منحدرا الى خليج نابليون تكسوه الخضرة النضرة والشجرالوفير ، و بيوتها فلات حديثة بديعة تنتثر مبعثرة فى مساحات شاسعة وتشقها الطرق المتلوية والمتاجر تصف على طريقين متقاطعين هما أكبر طرق المدينةوعلى الشاطىء



(نستقل الباخرة جرانت من ناماسجالى عبر بحيرة كيوجا)

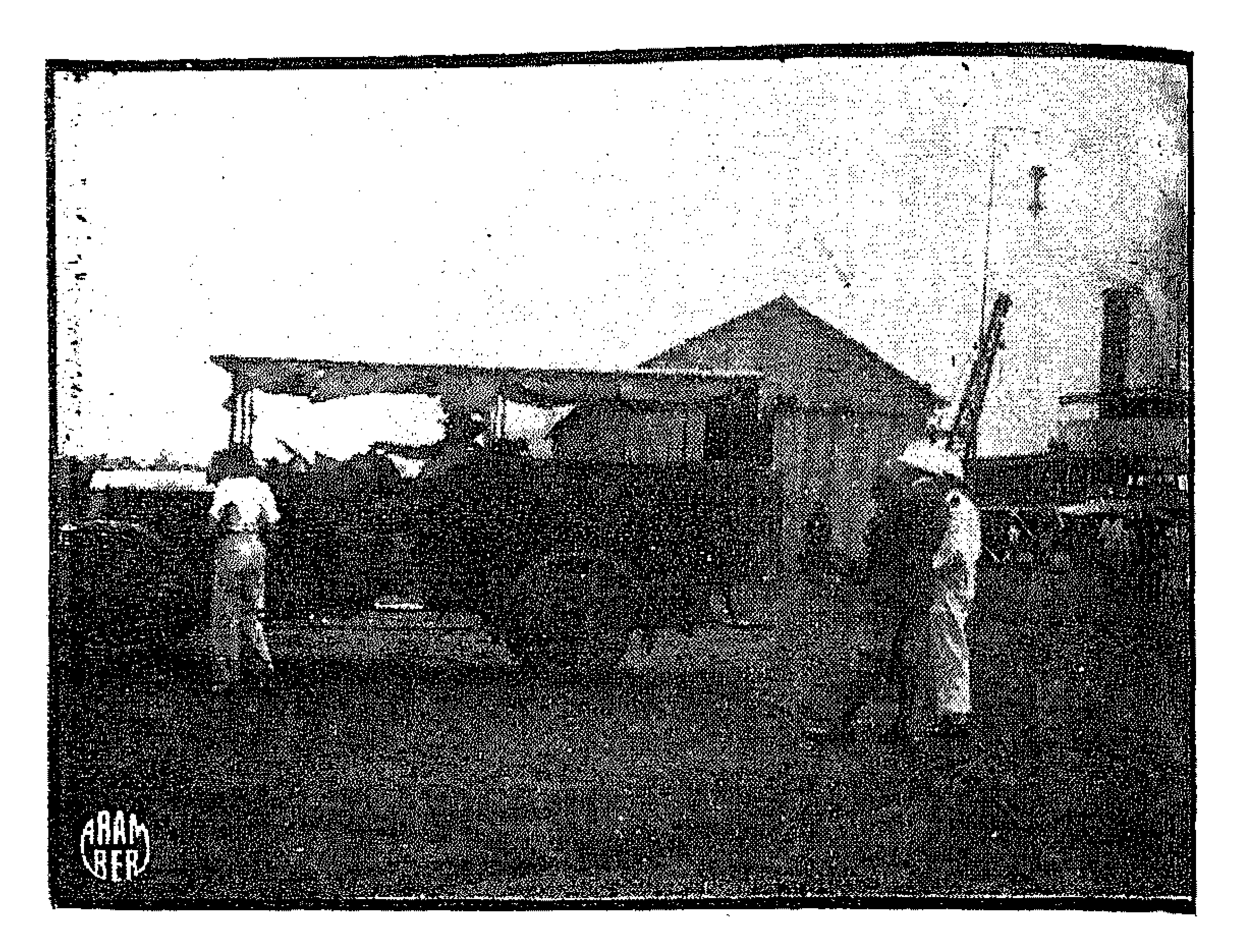
أقيم مرسى للسفن كان يغص بالنقل والتجارة قبل اتصال جنجا بكامبالا بسكة الحديد لكنه اليوم فتر تجاريا وخمل وكان أخص ماينقل اليه القطن أهم نبات أوغندا ، وتعنى به انجلترا هناك عناية خاصة فتعرض نماذجه فى محطة سكة الحديد و يزرع حول بحيرة كيوجا فى الأراضى ذات التربة السوداء وموسمه الشتاء وقد كانت تقله بواخر البحيرة الى ناماسجالى ، ومنها بسكة الحديد الى جنجا ومن ثم فى فكتوريا الى كيسومو ثم بسكة الحديد الى ممباسا ، أما اليوم فتقله سكة الحديد من شرق كيوجا الى ممباسا مباشرة (وقد بلغت المساحة المزروعة فى أوغندا ٦٠٠ ألف فدان)

وقد اتخذ الانجليز من الأراضى الممدودة متسعات للرياضة على اختلاف صنوفها شأنهم فى جميع بلدانهم ، وعلى منحدرات المدينة المؤدية الى البحيرة كثيراً ما تخرج مردة التماسيح وعمالقة أفراس الماء وتشاطر الناس ذاك المستراض الجميل على أنها كثيراً ما تلتهم عاثرى الحظ من الأهلين وهم يغتسلون أو يغسلون متاعهم حتى قيل أن التمساح يقتل من سكان أفريقية أكثر مما يقتله أى وحش آخر

وفى ناحية من المدينة شجرة قديمة كان الطاغية (موتيزا) يجلس تحتها و يأمر بالذبائح البشرية التى طالما خضبت دماؤها تلك البقعة على مشهد منه ، وهى اليوم وسط ملعب للتنس يجتمع اللاعبون حولها مرحين كأنهم يتحدون ذاك الوحش و يتناولون الشاى تحتها

الى بحيرة كيوجا : غادرت جنجا بسحر مناظرها نهارا ووحشتها الفائقة ليلا الى ناماسجالى ولبث القطار زهاء أربع ساعات يشق طريقه فى صعود وهبوط و يسلك مطاوى عجيبة وأجواف غابات مهملة لم تطرقها يد إنسان فالاقليم موحش لم نكد نرى به من الاهلين أحدا ولم يقف القطار في كل ذلك إلا أربع وقفات بجوارها جمهرة من الأكواخ حولها مساحة من الموز والبطاطا يعيش عليها قوم هم أشد سوادا ممن رأيناهم من قبل وتربة الأراضى حمراء ناعمة يطير هباؤها فيخضب كل شىء

و ناماسجالى : قرية لا تكاد تزيد حوانيتها على عشرة كلها فى أيدى الهنود ولها ميناء صغيرة على بحيرة كيوجا فى مكان من البحيرة اتساعه



(نرسو على بورت ماسندى لنستقل السيارات الى بحيرة البرت)

ثلاثة أضعاف اتساع النيل عندنا ، هنا حللنا باخرة صغيرة كأنها منشور رباعى طويل يتقدمها (صندلان) متلاصقان فى حجم كبير عليهما البضائع ومسافرو الدرجة الثالثة ودهشت لما رأيت الباخرة تدفع هذين أمامها كل رحلتها ، قمنا نشق عباب كيوجا ذاك البحر الذى يبدو ماؤه أملس مخضرا لاحراك به قط تحف جوانبه الحلفاء والبردي والغاب بمقادير كبيرة وأخذت البحيرة تنبسط فتنأى شواطئها تارة ، وتضيق وتتقارب أخرى ، وكل شواطئها مناقع ضحلة ، وكان جو يومنا أميل الى الحرارة رغم ما أصابنا من مطر على أن الليل فوق أديم البحيرة بارد جميل

وفى اليوم التالى أصبحنا والمطر وابل ومستبحرات المياه مشعبة فى كل

جانب وأعشاب البردى والبشنين تظهر فى جزائر سابحة فى حجم كبير وكثير من تلك الكتل من خليع النبت كان يعترض سير السفينة فينتشل بالروافع ويرمى الى الجانب والسفينة مستعدة لذلك مزودة بالروافع الثقيلة فوق (صنادلها) وفى باكورة الصباح كانت أسراب التماسيح تمرح وسط الماء فى بقع سوداء على مقربة من الضفاف وكانت المنطقة الواقعة الى يميننا تدخل فى نطاق مرض النوم ذاك الذى يعد أخطر الأمراض فى أوغندا وجنوب السودان والمناظر من حولنا أضحت سهولا لا أثر للجبال فيها وكان النيل يختنق أحيانا الى نصف سعته فى مصر وباخرتنا (Grant) كانت تترك عند مفارق الماء زورقا بخاريا (رفاصا) ليذهب الى المين الصغيرة الواقعة على شعاب بحيرتى (كيوجاوكوانيا) وتلك الشعاب تبدو على الخريطة لكثرتها وكأنها العنكبوت ثم تعود خفاف البواخر هذه لتلاقى باخرتنا عند عودتها وفى وسط ذاك المتسع اللانهائى من البردى ظهر مرسى صغير هو :

ثغر ماسندى : حوله بضعة مساكن خالية من الأهلين هنا أقلتنا سيارة المصلحة وسارت بنا ساعة ونصفا فى طريق شق وسط البردى أولا ثم وسط متسعات مبسوطة يزرعها القوم وخاصة من السيسال تليها غابات وأحراش برية لم تمسسها يد الانسان الا فى فجوات صغيرة بها الموز والتاپيوكا حيث كنا نبصر بكوخ أو اثنين فقط . ولما قار بنا مدينة ماسندى بدت الربى وكنا نرى الغابات يحكى نباتها المتسلق الكروم تغطى الأرض وكلها بأعراشها والطيور فيها لا حصر لها وكان الطريق نفسه يغص بدجاج



(يستعرض زوجاته التسع راقصات ـ اوغندا)

غانا ودجاج الوادى البديع الذى يأكله القوم كثيراً أما الجو فكان ماطرا بارداً أحوجنى الى ارتداء المعطف الثقيل . دخلنا مدينة ماسندى عاصمة (بانيورو) من أقسام أوغندا فشابهت كامپالا فى مناظرها المغضنة وفيرة النبت الا انها أصغر وحللنا النزل التابع لمصلحة سكة الحديد وهو آية فى الجمال والنساء هنا يلبسن ملاءات ملونة خفيفة تلف حول الجسد من فوق الثديين الى القدمين ويعنون بشعرهن الذى يجدل على قصره الشديد فى فتائل رفيعة لكل ذؤابة لا تزيد على سنتيمترين ويسرن حفاة سافرات شأن جميع نساء أفريقية الشرقية وغالب الرجال يلبسون الجلباب من القطن على نحو ما نراه فى مصر وهم هنا خاضعون لحكومات قوية من زعمائهم الذين تمهرهم الحكومة الانجليزية رواتب مقابل قبضهم على ناصية الأمور وهى لا تتدخل تدخلا مباشرا فى شئونهم ولولا ذلك لما استطاعت الحكومة اخضاعهم أو الاحاطة



(الطريق بين ماسندى والبرت وترى شجر واتل تحته شجيرات البن)

بهم وتلك الخطة متبعة بشكل أكثر احكاماً فى أوغندا منها فى غيرها وتتخذها انجلترا نموذجاً لحكم طوائف الشمال المتبربرة وتنتوى نشرها فى كنيا وهؤلاء الزعماء يعيشون عيشة بذخ افرنجية ويلبسون وزوجاتهم أردية أوروبية ولهم برلمان فى مقاطعة منجو شمال شرق كامپالا للمداولة فى شئونهم ولا تزال غالب الأعمال فى يد الهنود وبخاصة المسلمين منهم على أن بل حركة التوفير على أثر الأزمة الحالية منصبة عليهم وكبار الانجليز يعترفون أن توظيف الهنود كان خطأ كبيراً فى السياسة منذ البداءة ويحاولون احلال السود أو الاخلاط ممن هم غير الهنود مكانهم والتعليم تقوم به البعثات الدينية تعاونها الحكومة . أمضينا فى ماسندى يوما وفى الغداة قمنا بالسيارة الى



(رقصة الفتيان فى أوغندا)

بيو تيابا : فوصلناها فى ساعتين (٤٥ ميلا) خلال أرض مموجة غالبها غابات عذراء تكسو أشجارها الطفيليات وتتخللها المسايل وفى الوهاد كانت تبدو الغابات مغلقة تماما والطريق شق فى تربة حمراء يزيد سمكها على مترين وليس به من الاهلين أحد اللهم إلا جمهرة قليلة من السود كنا نجوز أكواخهم كل بضعة أميال ينشرون أمامها (الماهوجا) بعد تقشيرها ثم يدقونها دقيقا فى أهوان من الخشب وكان بعضهم يمزج هشيمه بفتات الذرة الى ذلك بعض الموز والسمسم والبطاطا وفى فترات متباعدة كانت تظهر قرية صغيرة جداً وعجبت أن كان الهنود هم أصحاب الحوانيت فيها و بعد منتصف الطريق كنا نمر بمزارع النزلاء البيض وبخاصة الانجليز فى مساحات أقاموا وسطها بيتهم الأنيق وقاموا يستأصلون النبات البرى و يزرعون البن فى شجيراته القصيرة وصفوفه المنسقة ووسقه الكثير ولكى يتقوا وهج الشمس عنوا بالغابات وبواسق الشجر لتحمى شجيرات البن من دونها وكم كان



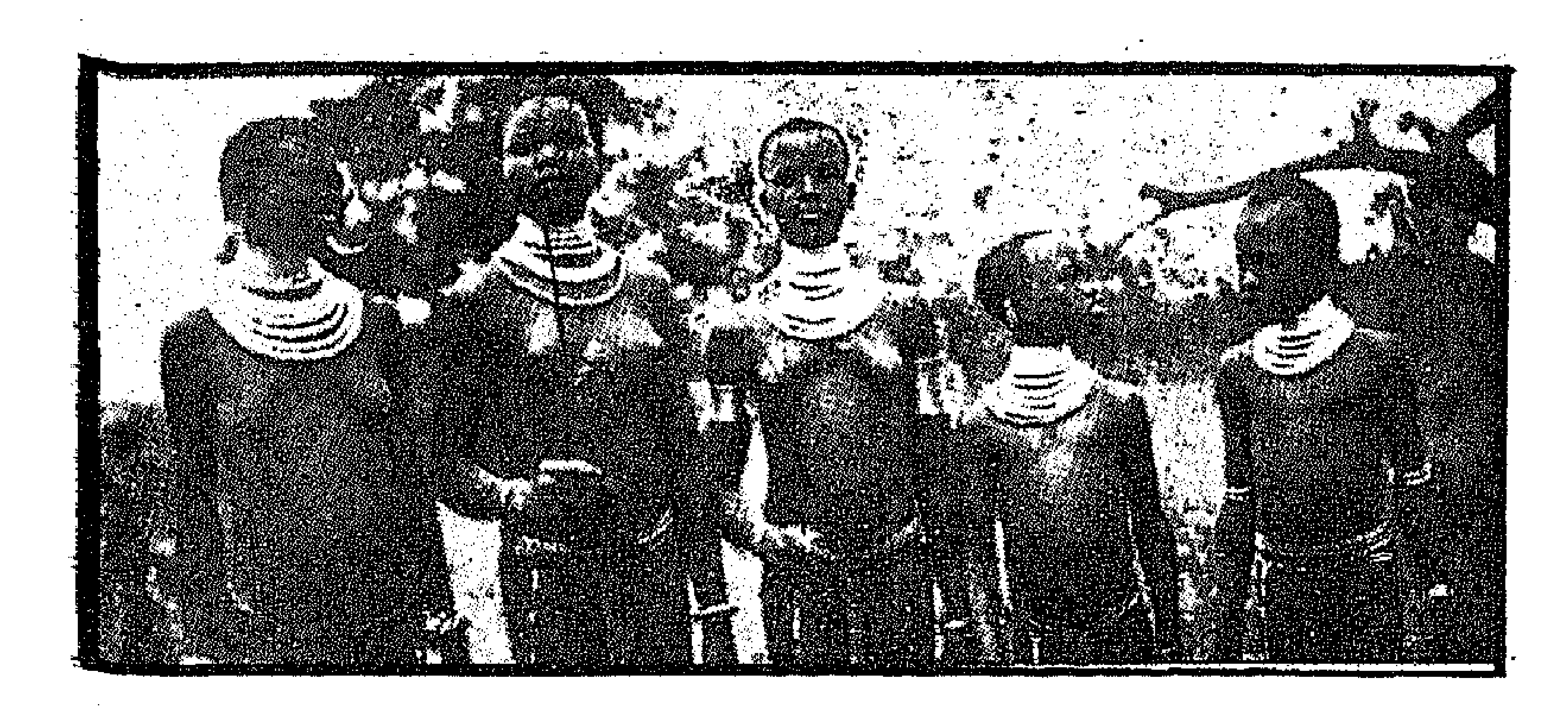
(رقصة الحرب فى أوغندا)

عجبى شديداً لاقدام هؤلاء على عمل شاق وحياة موحشة لاترى حولهم من مؤنس قط لكنها الرجولة والخلق الرصين يروض النفس ويستمد النشاط والسرور من كل شىء ، وحول كل مزرعة نفر من الأهلين يقومون على خدمة الأرض وكنا نراهم نساء ورجالا يقطعون العشب البرى ثم يتركونه مكانه حتى يجف ثم يحرق حيث هو فينقى الأرض ويسمدها وكلهم يدخن فى غلايين خشبية طويلة حتى الفتيات . وماحللنا الثلث الأخير من الطريق حتى أخذنا فى الهبوط ثم عند الميل السادس من بيوتيابادا همنا مشهد الاخدود الأبرتى الرائع تتوسطه البحيرة فى هوة بعدها الفا قدم بلونها الفضى تحفها سهول مبسوطة إلى مدى شاسع تؤدى الى تلال تعلو فى نجاد وسلاسل لانهائية (وذرع البحيرة ١٠٠ × ٢٥ ميل) منظر ساحر حقاً يكاد يقارب مشهد الاخدود الأعظم وهذا الجزء من الطريق يعد من أجمل طرق الدنيا لتنوع مناظره وكثافة غاباته وتعدد فصائل شجره نخص منه النخيل وشجر الصمغ الازرق



(رقصة الفتيات فى اوغندا)

والعنب البرى المتسلق والسرخس عريض الورق الذى منه تكون الفحم فى العصور البائدة . أما القردة والفيلة فحدث عن كثرتها . هوينا الى تلك السهول التى اسودت تربتها بما خلفته البحيرة عليهـا من رواسبها ثم جزنا مجموعة من أكواخ وحوانيت ومبان حكومية وتلك كلها مدينة بيوتيابا ولها ميناء صغيرة لا بأس بحركتها التجارية فهى حلقة اتصال بين بلاد أوغندا الى اليمين والكنغو الى اليسار وكانت جبال الكنغو تظهر فاترة وراءنا ونحن نرسو على بيوتيابا وقيل لنا ذاك جبل (لولوجا)وهو جزء من خط تقسم المياه بين الـكنغو والبرت ، قمنا نشق عباب البرت ولبثنا نرى الشاطئين على بعد لأننا نسلكنا سبيلنا الى الجزء الشمالى من البحيرة وهو يأخذ فى الاختناق حتى يصبح بحر الجبل المتسع عقب تقابل نيل فكتوريا بالبحيرة مباشرة وعلى تلك الجبال تقع مدينة محاجى : من بلاد الـكنغو ولها ثغرها الصغير الذي مررنا به — والبحيرة تعلو سطح البحر بنحو ٢٠١٨ قدم على



(فتيات علية القوم فى أوغندا)

انها أحط من فكتوريا بنحو ١٧٠٨ قدم ماؤها أشد زرقة وطعمه أكثر تغيراً من ماء فكتوريا مما يدل على زيادة عمقها وأملاحها ، ولبثنا نسير صوب النيل وقد لزمت الباخرة الجانب الأيسر للبحيرة لأنه أبعد غوراً بسبب قربه من الجبال أما الجانب الأيمن فوطىء تمتد وراءه السهول ، أخيرا مررنا بعدة جزائر يغطيها العشب خصوصا البردى والبوص والبشنين الذى طالما كنا نلاقى كتلا منه طافية ثم دخلنا مأزقاً هو أضيق من نصف نيل مصر وهنا أول نيل بحر الجبل وكانت السهول الممدودة الى يميننا جزءاً من (حرم الحيوان) لذلك رأينا بين الاشجار المتفرقة جموعا من الفيلة أكثر الحيوان ظهورا هنا فكان يبدو فى قطعان ولم نرها على الجانب الآخر قط لأنه خارج عن الحرم فكأنها أنست فى حرمها أمنا ، وهذه المنطقة من أوغندا وما يليها شمالا الى جنوب السودان وغربا الى الكنغو خير مناطق الفيلة فى الدنيا



(الطبيب الساحر وهو ذو نفوذ يسود أذهان الناس فى اوغندا)

والفيل : لا يكاد يوجد جنوب الزمبيزى ، وقد أسرف الكثير فى قتله حتى قدر ما يقتل سنويا فى الكنغو البلجيكية بستين ألفا فى السنة ويقدر عدد الفيلة فى أوغندا بنحو سبعة عشر ألفا وفى تانجانيقا ٣٦ ألفا والفيل يسير فى جماعات أقلها بين ١٠ و ٤٠ وقد يبلغ القطيع مائتين والفيل



(شارع رئيسى فى بيوتيابا على البرت)

الافريقي يغاير الاسيوى فى آذانه بالغة الحجم فهو إذا بسط أذنيه ساعة الهجوم كان طولها من أقصاها لأقصاها خمس ياردات كذلك فهو يغاير الاسيوى فى جمجمته فمخه أوطأ فى دماغه وهناك فجوة فى رأس الفيل الهندى رخوة تسبب موته سريعا ، وهذه لا تكاد توجد فى الافريقى والفيل من أحد الحيوان شما وارهفه سمعاً فهو يشتم رائحة الانسان على بعد نصف كيلو متر ولا يعادله حيوان آخر فى ذلك ، والعادة أنه يرفع خرطومه فى الهواء ليشتم رائحة عدوه على أن بصره ضعيف لايرى على بعد ٥٠ ياردة حتى ولو كان الجسم على وضح الأفق ، ويعمر طويلا إذ يزيد عمره على ١٢٠ سنة ، وفى الـكنغو نوع من اقزام الفيلة لا يزيد علوه على ٤½ قدم ولا يزيد وزن نابه على



(بعض أبناء بيوتيابا على البرت نيانزا)

سبعة أرطال للذكور ورطلين للاناث ، ولقد أسرف الاوربيون الاوائل في قتل الفيل فاختفى من مناطق كثيرة هناك ، لكن البلجيكيين اليوم فطنوا لذكاء الفيل وهم يسخرونه فى الزراعة فالزوج من الفيلة يجر أربعة أطنان بسرعة ١٥ ميلا فى اليوم ويحرث فدانا فى نصف اليوم و يمتاز على سائر الحيوان فى أنه غير قابل لعدوى الامراض وأنه يتكفل بغذائه وحده فلا يكلف صاحبه شيئا

وفى كثير من جهات أوغندا كثرت الفيلة لدرجة مضرة لذلك توفد الحكومة بعثات لقتلها ومطاردتها إلى المجاهل ، وحدث مرة أن طارد صياد قطيعا وضرب رصاصة فى فيل منه فصاح وسقط الى منحدر ولشدة الضجة



(تسير الفيلة فى قطعان يتقدمها دليل)

اضطرب القطيع فأخذ الفيل الهاوى يصدم فيلا اخر فيقع حتى وجد جمع من الفيلة أسفل الهوة وقد هشمت عظامها تهشيما ، والفيل اذا رأى عدوه أعطى اخوانه إشارة ليستعدوا و إذاقصد المهاجمة رفع خرطومه وآذانه وحدق فى العدو ثم عدا نحوه وهناك طير يلازمه و يحط على ظهره اسمه (Egret) وكثيراً مايدل على الفيل اذا رؤى الطير يحوم فوق العشب فى جماعات ، و يظهر أن الطير يتبع الذباب الذى يعف على ظهر الفيلة و يضايقها جدا ولذلك ترى الفيل يظل يحمل العشب بخرطومه و يلقيه على ظهره ليطرد هذا الذباب ، والعادة أن الفيل اذا أصيب ومات بعيداً ، فانه يعد ملكا لمن صاده و بعد أسبوع يصبح ثلثه ملكا لمن يعثر عليه والثلثان للحكومة



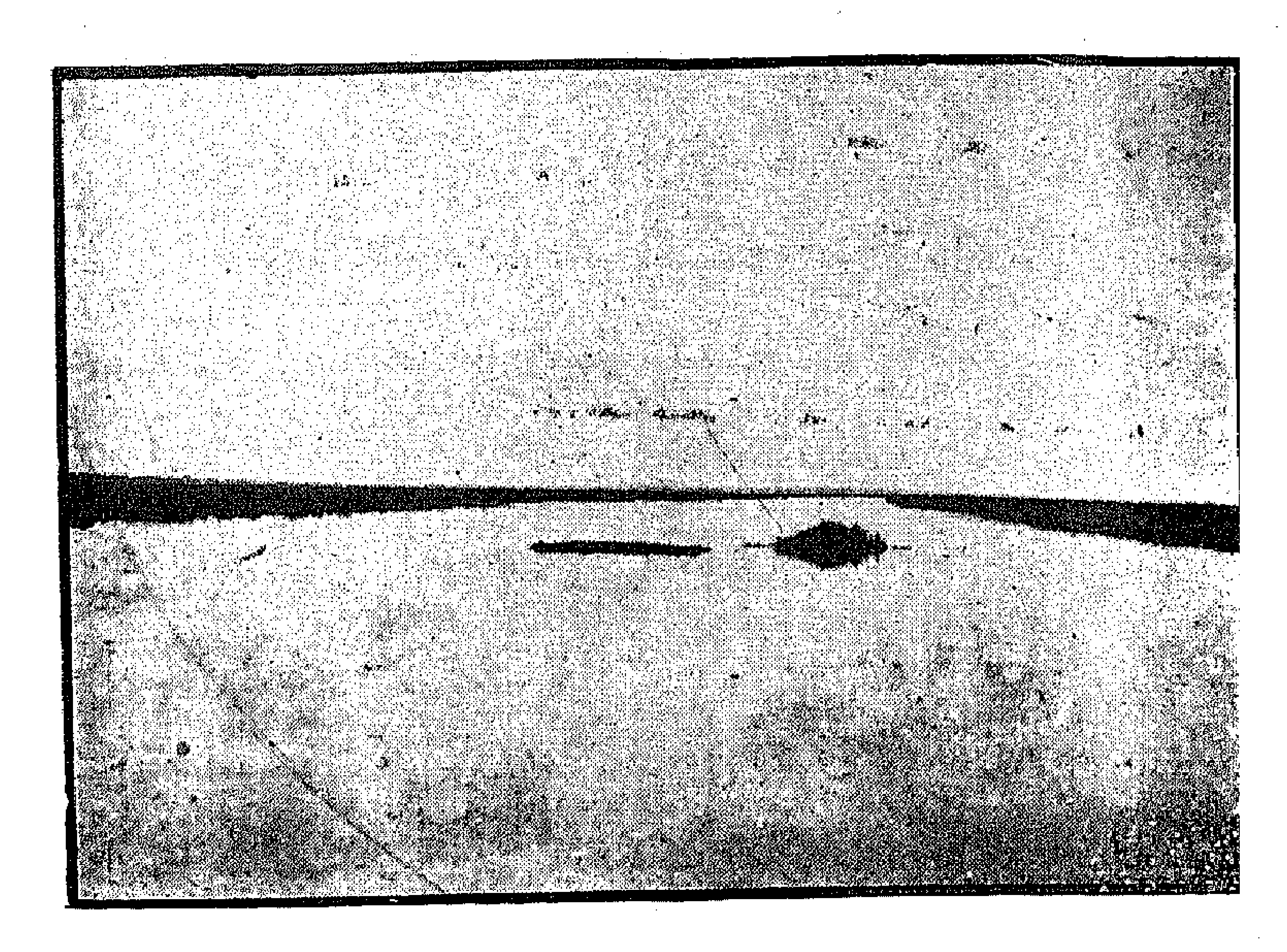
(أفراس الماء فى منطقة السدود)

العاج : والفيل الذى يقطن الجهات الجافة التى يقل فيها الغذاء تكون أنيابه قاسية على أن أجود العاج ما كان لينا ، وهذا يكثر فى الجهات وفيرة المياه حيث تطول الأنياب و يجود نوعها ، و يندر اليوم أن نعثر على فيلة ذات أنياب كبيرة ، ونحن إذا قسمنا أفريقية من وسطها تماما بخط رأسى كان العاج فى غرب هذا الخط أشد صلابة منه فى شرقه لذلك كان أجود العاج فى الشرق ، وأسنان الأنثى أصغر وأخف وزنا فسن الأنثى يبدأ من ١٥ رطلا والذكر من ٤٠ رطلا و يزيد وأثقل سن عثرنا عليه يحفظ اليوم فى متحف كنزنجتون بلندن وزنه ٢٢٦½ رطل والفيل الكبير قد يصل علوه الى كتفيه ١٢ قدما وقد يزن ستة أطنان ، وأكبر الفيلة أسنانا اليوم فى أوغندا

وفى أعالى النيل والكنغو البلجيكية ، وقلما يزيد سن الفيل فى السودان والحبشة على ٤٠ رطلا ، وأكبر الفيلة أسنانا لا تسير فى جماعات بل فرادى وكثير من العاج المصدر من أفريقية مأخوذ من هيا كل الفيلة التى يعثر عليها القوم ميتة فى الغابات وأعلى ثمن عرف لرطل العاج الجيد جنيه ونصف ومن هذا تصنع كرات (البلياردو) .

والنيل من هنا الى منطقة السدود شمالا غاص بأفراس الماء التى كانت تنفر فى الماء بكثرة مروعة والتى كانت تصادم باخرتنا صدمات عنيفة وفرس الماء غذاء محبوب للأهلين الذين يلتهمون لحمه نيئا ومجففا ، وهو ثانى الحيوانات وزنا بعد الفيل يزن ثلاثة أطنان وسمك جلده بوصتان وهو أصلح ما يكون لصناعة السياط (الكرابيج) ، وكان لأسنانه قيمة كبيرة يوم كانت تتخذ منها الاسنان الصناعية والانياب السفلى يصل طولها ثلاثين بوصة خصوصا اذا لم ينطبقا على الانياب العليا وأطول ناب عرف ٥٥ بوصة وصيده خطر لأنه حيوان مهاجم مهيب و يقول صيادوه ان خير مكان لقتله أن يضرب تحت العينين وخلف الأذن و يغلب أن تصوب الرصاصة الى الأنف الذى يطفو فوق الماء وهو سريع الغوص جدا فان أصيب غاص ولا يطفو الا بعد ست ساعات من قتله .

ولعل أكثر بقاع الأرض بهذا الحيوان الثقيل من هنا الى بحر الجبل شمالا ، والحيوان يظل فى النهر نهارا لا يرى منه ظاهرا سوى الآذان والعيون ، وفى المساء يقصد البر ليأكل ولا يعود للماء الا فجر اليوم التالى



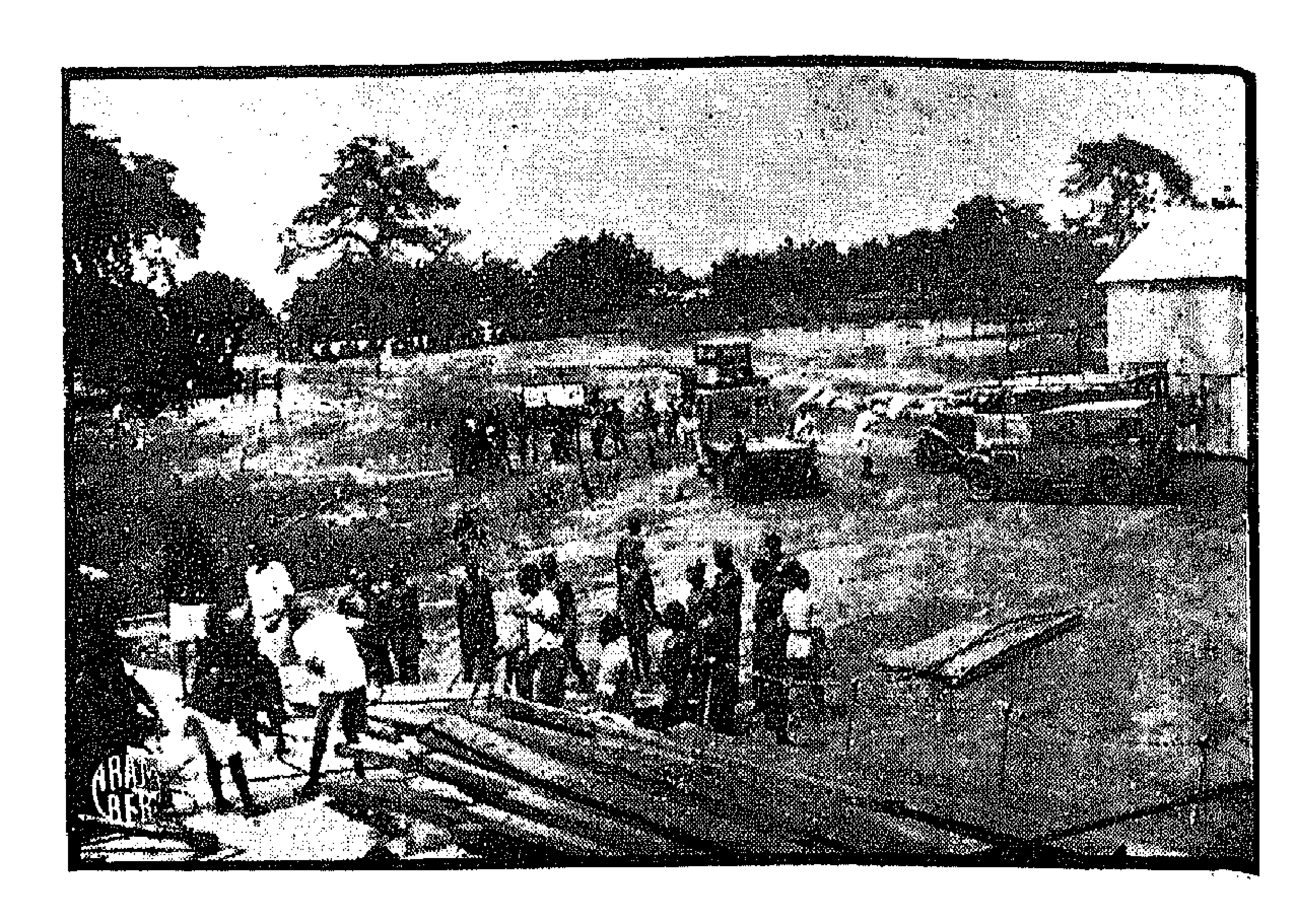
(النيل قبيل نيمولي و به الاعشاب الطافية)

وهو يصعد مناطق العشب والسدود بسهولة و يتخذ له طرقا ثابتة للخروج والعودة والأهالي (خصوصا الشلوك والنوير من سكان بحر الجبل) يصيدونه بحرابهم فيكمنون له عند الغروب على جوانب تلك المسالك واذا قرب أرسلوا حرابهم ذوات الأسنان الجانبية وهي تتصل بحبال طويلة فيسرع الحيوان بالعودة لكنهم يتعقبونه حتى يموت و يجرونه إلى الشاطىء، على أن بعض الأفراس تهاجم عدوها و بفكها المخيف قد تتناول زورقا بمن فيه وتغرقهم جميعاً على أن ذاك الانسان الهمجي لا يبالي بحياته قط واذا مات الحيوان جروه الى الشاطىء وسرعان ما يقطعونه و يشعلون النيران و يأكلون شواءه وكثير منهم يلتهم اللحم نيئا والباقي يقطعونه فى شرائح تعلق على الأشجار

المجاورة بحيث لا يبقى من الحيوان الا هيكله فى أقل من ساعتين .

وكثير منهم يدفع الضرائب من أسنانه ويظهر أن أفراس الماء كانت تمضى غالب وقتها فى البر نهارا وليلا لكن هجمات الانسان لها اليوم ألجأتها الى الماء طوال النهار، وساعده فى غذائه وسط النهر كثرة الاعشاب الطافية خصوصا كرنب الماء الذى يكثر فى منطقة السدود ، ويبدو كالزهر الاخضر الكبير يطفو على السطح وهو الذى يسد النهر لذلك يظن أن طرد أفراس الماء الى النهر يساعد على انقاص تلك الزهور فتخف كثافة السدود . وكثيرا ما كنا نسمع صوت أفراس الماء تنبعث من أعماق الماء دون أن نرى علامة تدل على موضع الحيوان حتى ولا فقاقيع الغاز التى تتخلل الماء ساعة تنفسه ولحمه خشن لكن القوم قد امتدحوا الى طعمه . ويأكل بعض البيض هناك لسانه فقط .

اختنق النيل وأضحى كالقناة بعد مغادرتنا لبحيرة البرت ورسونا على (بكواش) من قرى الضفة اليسرى حيث انتقلنا الى باخرة أصغر تستطيع مواصلة السير فى مجرى النيل الضحل وما كدنا نرسو عليها حتى هالنى جماهير السود الذين وفدوا ليروا البواخر ونزلاءها وما كان أشد دهشتى حين رأيت الكثير منهم عرايا تماما نساء ورجالا وأطفالا ، تضع المرأة حول خصرها عقدا من خرز تتصل به ذؤابة من ورق الموز أو جدائل من سلوك الحديد أو الخرز أو حزمة نحيلة من العشب، لا تكاد تستر العورة ومن خلاف يتدلى شريط أو (زر) من فتائل رفيع طويل يتحرك ذهابا وجيئة كلما تحركت هى



(مرسى رينو كامب على نيل البرت)

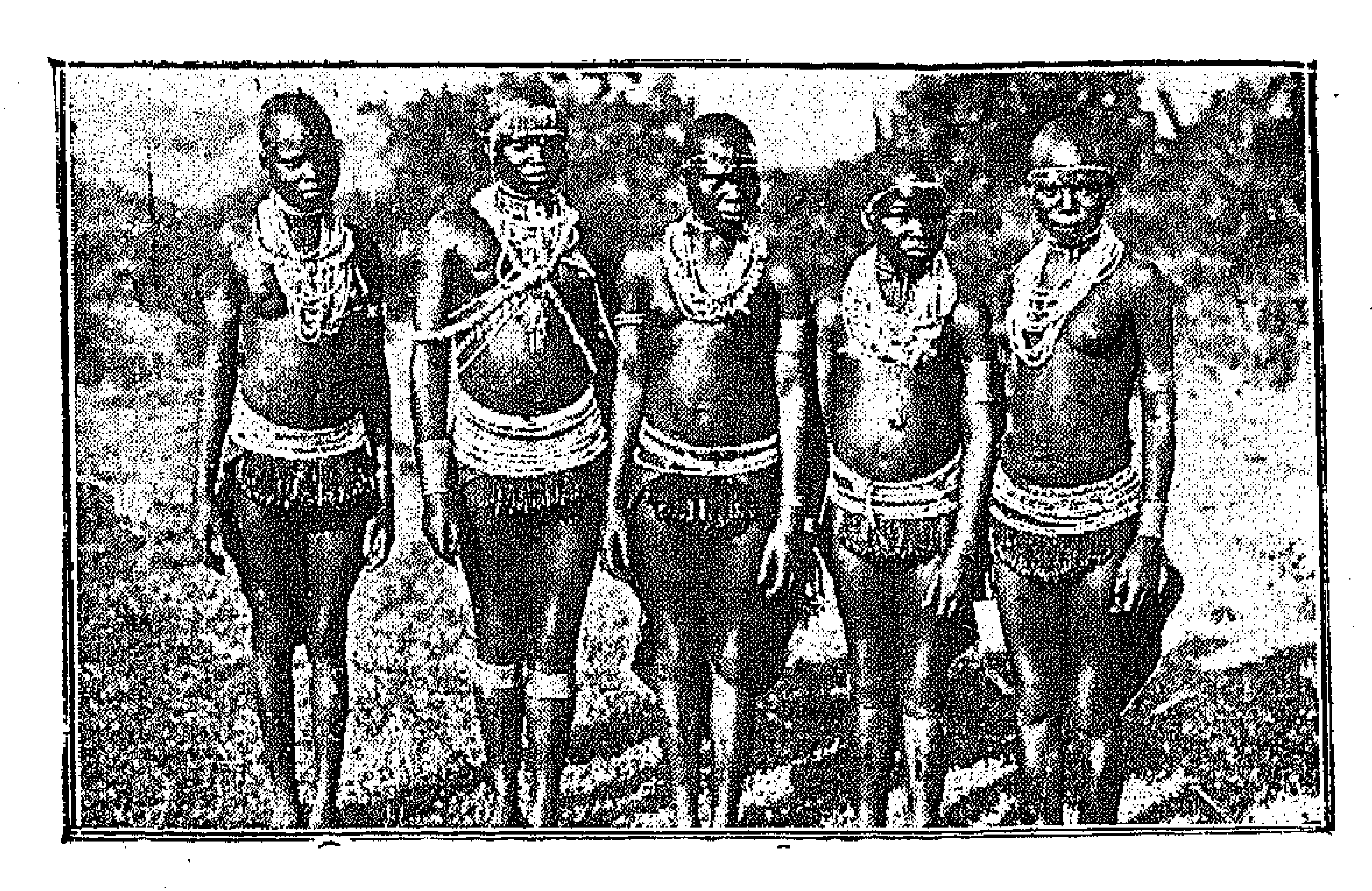
فى شكل يبدو على بعد وكأنه الغورلا أو القرد الكبير بذنبه المتدلى وألوانهم جميعاً فاحمة براقة ، والناس يختلطون هكذا فى غير حياء كأنهم البهم على فطرتهم الأولى . جن الليل وسادت الوحشة واذا بسحائب البعوض وصغار الهوام الطائرة تخيم حولنا حتى كادت تعشى الأبصار لكثرتها إذ كانت تخترق كل شىء رغم أن الأبواب والنوافذ تكسوها شباك السلك لمنعها لذلك اضطررنا أن نطفىء المصابيح كلها ، و بعد العشاء مباشرة آويت إلى مضجعى وحول الثالثة صباحاً أيقظنى قصف للرعد مخيف وهزيم للعاصفة مرعب فقمت مذعوراً و إذا بشدة الرياح تكاد تلقى بالسفينة إلى البر وسيول المطر كانت تترى فى غزارة غير مألوفة ولقد دفعت العاصفة ماء النهر إلى البحيرة فهبط

مستواه أكثر من قدم وخشى الربان ان استمر ذلك أن تدرك السفينة الأوحال فيتعذر المسير ، وفى الثامنة صباحاً مررنا بمرسى :

موتير : فى مكان مختنق من النهر تحفه من الجانبين ربوتان صخريتان ولذلك اختار المهندسون المكان لأقامة سد البرت المنتظر على أنى أخال الماء إذا ما علا خلفه بين سبعة أمتار وتسعة كما هو مزمع يغرق من البلاد الجانبة لضفتى النهر وللبحيرة نفسها مساحات شاسعة كانت تبدو وطيئة من حولنا على أن التعويضات لن تكون كبيرة لأن الأقليم مهمل لايكاد يطرقه إنسان

ولقد اتخذ امين باشا موتير هذه معسكراً له وأقام حصنه بها ولا تزال ترى أنقاضه على بعد ومنه كان يشرف على الأقليم كله من قبل خديوى مصر لذلك أثار المكان فى نفسى ذكريات جعلت له قيمة كبيرة عندى رغم أنك لاترى اليوم إلا مرسى صغيراً وراءه استراحه واحدة ليس غير ، وقد هدانى بعض القوم إلى مكان هناك تدفن فيه بعض جثث الجنود المصرية التى كانت مع أمين باشا

وحول تلك المنطقة قوم ينتحلون اسم (النوبة) يظن أنهم من سلائل الجنود السودانيين الذين حلوا مع أمين باشا وتوطنوا الأقليم بعده وغالبهم مسلمون إلى اليوم وهم يعدون أنفسهم أكبر شأناً من سائر القبائل يتكبرون ويفاخرون عليهم وتتخذ منهم حكومة أوغندا أجناداً أشداء ، وأجمل ما استرعى نظرى رداء نسائهم يتخذ من جلد المعزى و بعد صقله يقطعون



(جميلات من قبائل نوبة على نيل البرت)

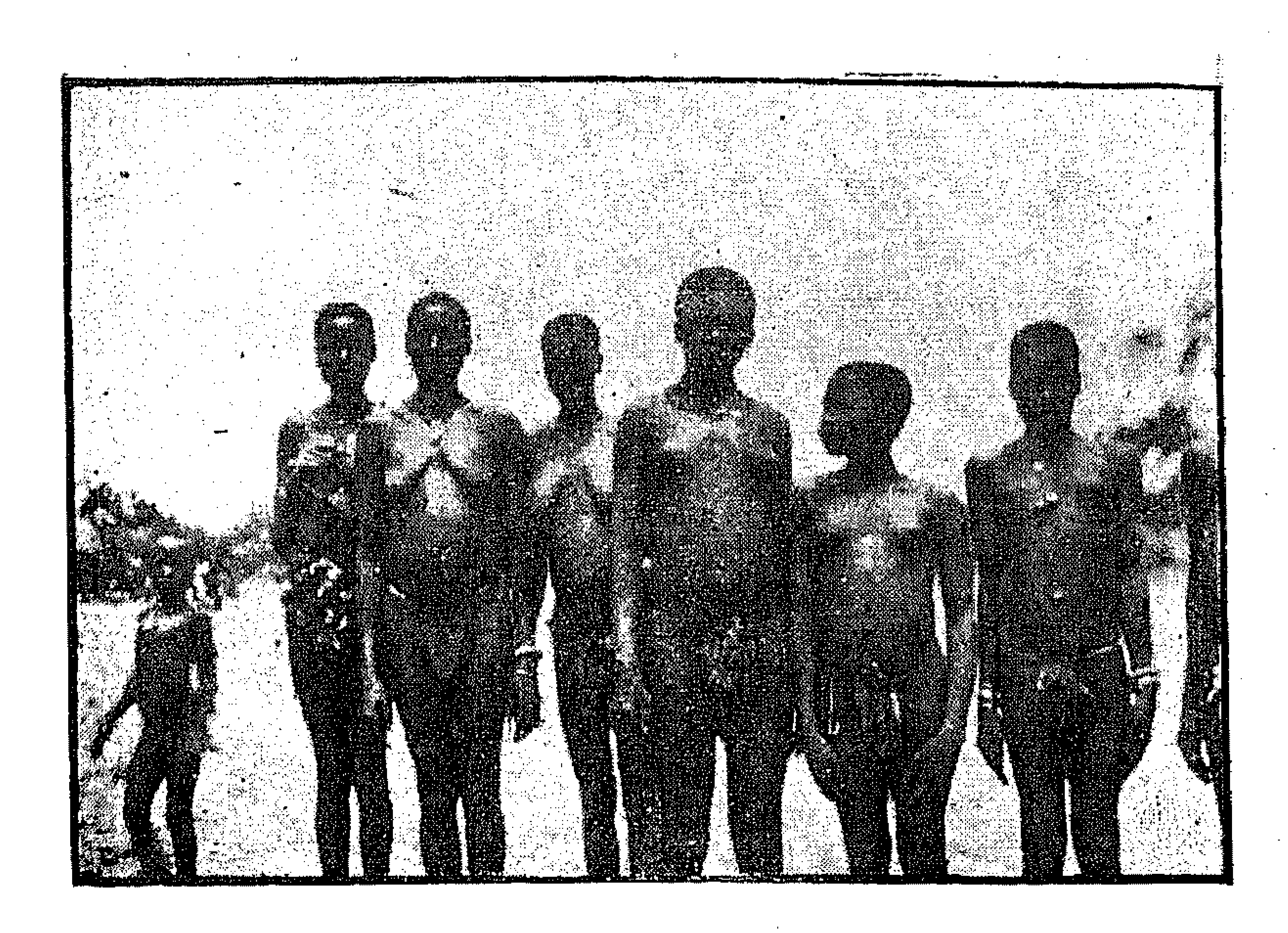
الجلد خيوطا طويلة (شرابة) و يعملون منه نطاقاً يربط حول الخصر فتتدلى أهدابه النحيلة الطويله وتسترهن إلى نصف الفخذين فتكسبهن جمالا وجاذبية خصوصاً وهى تهتز مع أعجازهن إذا ما سرن يتهادين وأجسادهن جميلة وان أعوز الوجوه الجمال لكثرة مايعملوها من تخطيط يميز كل قبيلة عن الأخرى، وقد كانت هذه العلامات فى الأصل تطبع على وجوههم علامة الرق ، والنساء هناك مجدات خصوصاً فى اتقان السلال والخوص والأصباغ التى يتخذونها من قشور الشجر وعصاراته وهن مهرة فى القتال كالرجال تماماً

أما النيل نفسه هناك فيرى عادى الاتساع إذ يقل عن سعة نيل مصر لكنه فى الواقع عظيم الاتساع لأن أكثر من ثلثيه يغطيه نبات الماء خصوصاً الغاب والبردى فيبدو كأنه جزء من الشاطئ لكن كثيراً ما كنا نرى كتلا كبيرة منه طافية يحاول الربان تجنبها خشية أن تمسك بهدارات



(على ضفاف النيل الاعلى فى رينو كامب)

الباخرة فتحطمها ، وأكثر ما يرى ذلك العشب عند المنحنيات فى جانبها المحدب غير المواجه للتيار على أنه لايكاد يخلو منه مكان وجزائره المنفصلة لاتحصى بعضها بالغ الامتداد يتشعب النيل عندها شعبتين أو ثلاثا ، أما أفراس الماء والتماسيح وطيور الماء فلا تدخل تحت حصر ولا تزال الفيلة ترى بكثرة فى حرمها ألى يميننا هذا إلى التياتل والقردة على الجانبين وماء النهر أملس هادىء عديم التيار على أن لونه عكر . وصلنا مرسى (رينو كامب) وكان عرايا القوم يتطلعون إلى السفينة فى تزاحم وكان يومنا يوم السوق لديهم لذلك اجتمعوا تحت شجرة كبيرة قرب المرسى وكانت السلع المعروضة بعض أنواع الحبوب كالسمسم والذرة وسعف النخيل والسمك الطازج

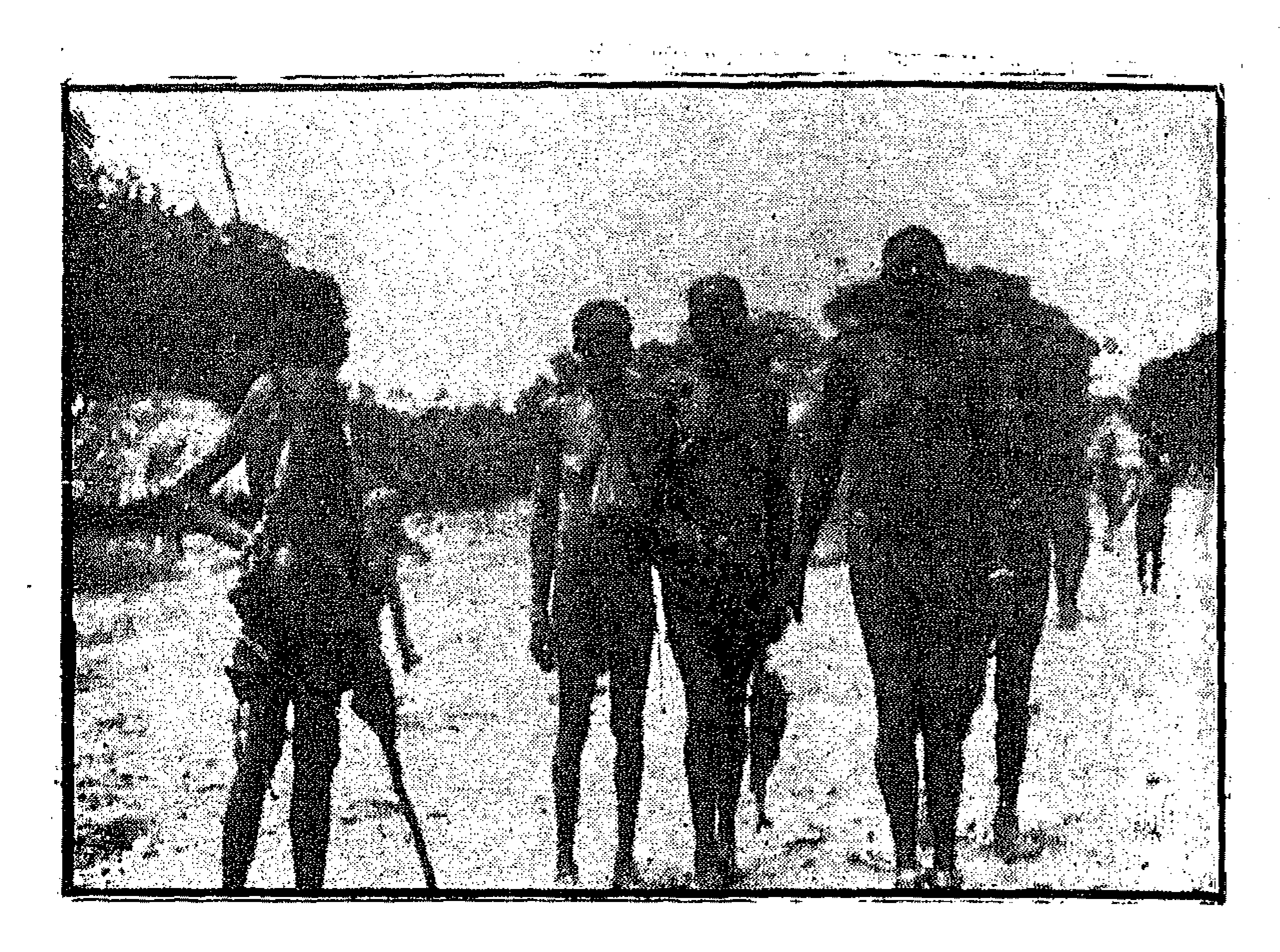


(على نيل البرت — رينو كامب)

والمجفف وكنت أخال رينو كامب غاصة بالخرتيت لأن معنى اسمها (معسكر الخرتيت) على أنى علمت أنها كانت محط رحال جماعة الصيادين الذين كانوا ولا يزالون يخرجون للصيد فى جماعات (سفارى بلغتهم) وأخص الحيوان هناك الخرتيت الذى أصبح نادر الوجود لدرجة أنه كاد ينقرض حتى أن الحكومة تحرم صيده اليوم بتاتا ، والخرتيت : يقطن حيث يوجد الفيل خصوصا على ضفاف النيل الأعلى وهو يلجأ اليوم إلى سكنى الشجيرات ويهجر السهول وقرنه عظيم القيمة خصوصا لدى الصينيين الذين يتخذون منه مقويات لاعضاء التناسل وتعمل منه آنية لشرب الماء والناس يعتقدون أن أى شراب مسموم اذا وضع فى كوب منه تصدع وانفلق وحاسة الشم

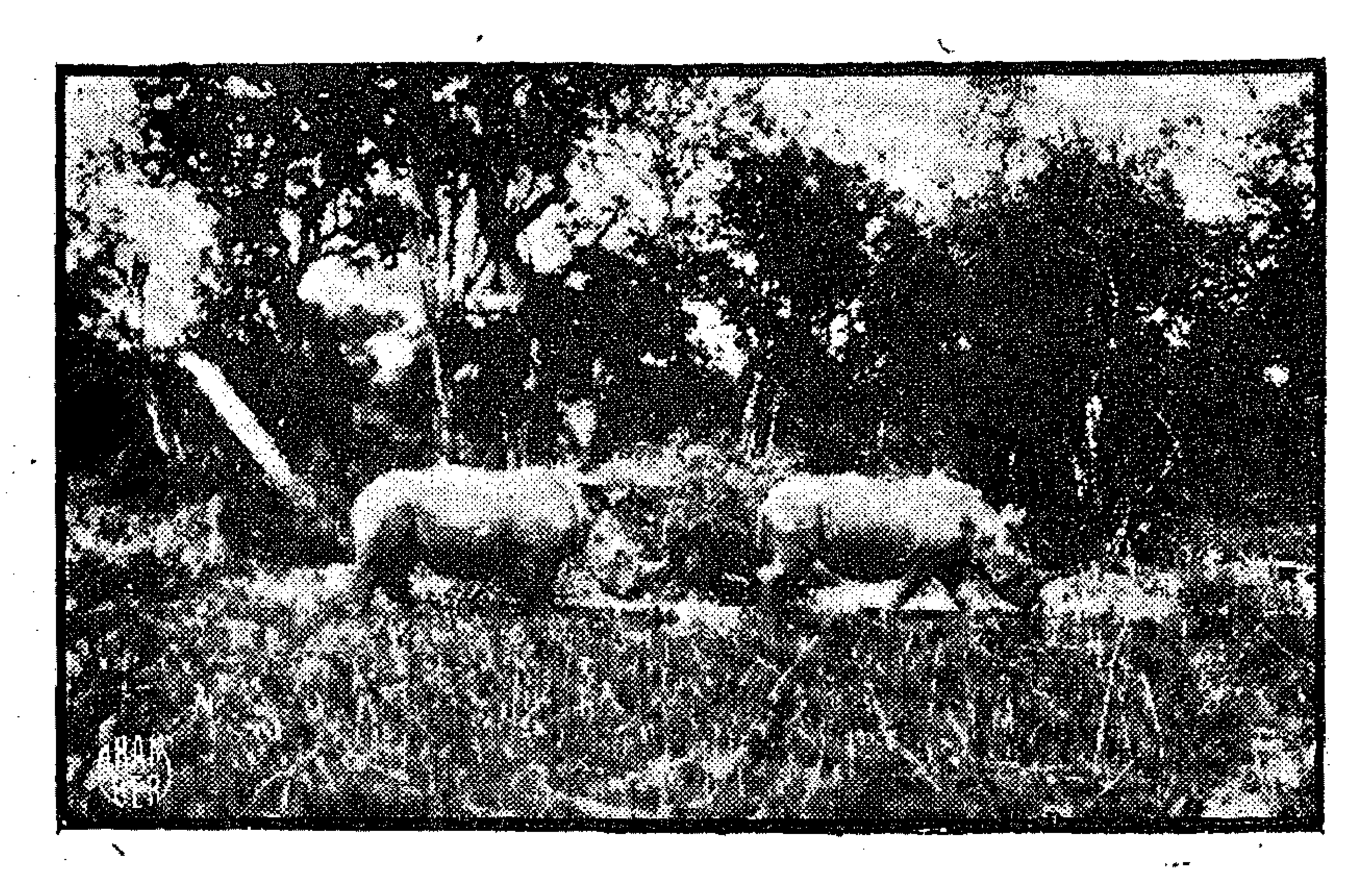
- عند الحيوان قوية أما السمع والبصر فضعيفان حتى انك لو وقفت ساكنا ومر بجانبك لم يحس وجودك ، وقرنه الامامى أطول من الخلفى وطول الاول ٤٣ بوصة والثانى ٢١ والحيوان يزن ثلاثة أطنان وجلده سميك جدا لايكاد يخترقه إلا الرصاص المصمت الثقيل ، وهناك نوع اسمه الخرتيت الابيض أكبر جثة وأطول قرونا ولونه كاون أخيه ولا يمتاز عن العادى فى اللون بل بالفم المربع و بنتوء من العظم فوق الجمجمة يمنعه أن يرى ما يقع أمامه ان كان الرأس أفقيا وهو أندر حيوان ثديى فى الوجود ويظن أن مايوجد فى أوغندا كلها لا يجاوز ١٣٠ ، والخرتيت حيوان مهاجم خطير قوى حدث مرة أن مهربى العبيد كانوايسوقون الى الساحل واحدا وعشرين عبدا توثق رقابهم الى سلسلة واحدة كما كانت العادة فهاجمهم خرتيت ضرب العبد الاوسط ومن قوة الصدمة قطعت السلسلة رءوس العبيد جميعا وفصلت من جثثها .

غادرنا (رينو كامب) نشق طريقنا وسط النهر الضيق الذى لايزيد على سعة قناة فى عرضه ، وكان يساعدنا تياره الضئيل وهو هنا بين ميلين وثلاثة فى الساعة ، وكانت تبدو الى يميننا سلسلة من جبال وطيئة ، وكان عهدى بالنهر الاتساع العظيم والتيار الضئيل لكن الفيته على خلاف ما أعرف على أن جوانبه يكسوها العشب الى سفوح التلال المحيطة بالوادى فلعل هذا داخل ضمن مجرى النهر وان أخفاه ذاك العشب وعلمت أن الانسان يتعذر عليه السير فوقه لكن الفيلة تجد السير عليه سهلا لضخامة أرجلها التى



(عرايا نيل البرت يصيدون السمك بحرابهم)

لا تغيص بين فتحاته ، وأنت اذا دانيته خيل اليك أنها أرض منزرعة مع أنه نبت كثيف يطفو فى تماسك شديد وجذور ملتفة ، وكان النهر أحيانا يتشعب فنرى خلف العشب مستبحرات شاسعة وطالما وقفت الباخرة وأرسلت زورقا الى ناحية من ذاك العشب لتنقل بعض المسافرين من الاهلين ، وفى المحاط التى وقفنا بها كان بعض الانجليز يفدون ليتناولوا بعض الشراب والطعام من الباخرة التى لاتزورهم إلا مرة كل أسبوعين لذلك لا يصلهم البريد إلا كلما مرت بهم ، وهم يضبطون ساعاتهم على الشمس إذ لاصلة لهم بالعالم الخارجى ولهذا كنا نجد فرقاً قد يزيد على نصف الساعة بين زمننا وزمنهم وكلما سألناهم عن مبلغ اغتباطهم بتلك العزلة أبدوا استمتاعهم الكامل



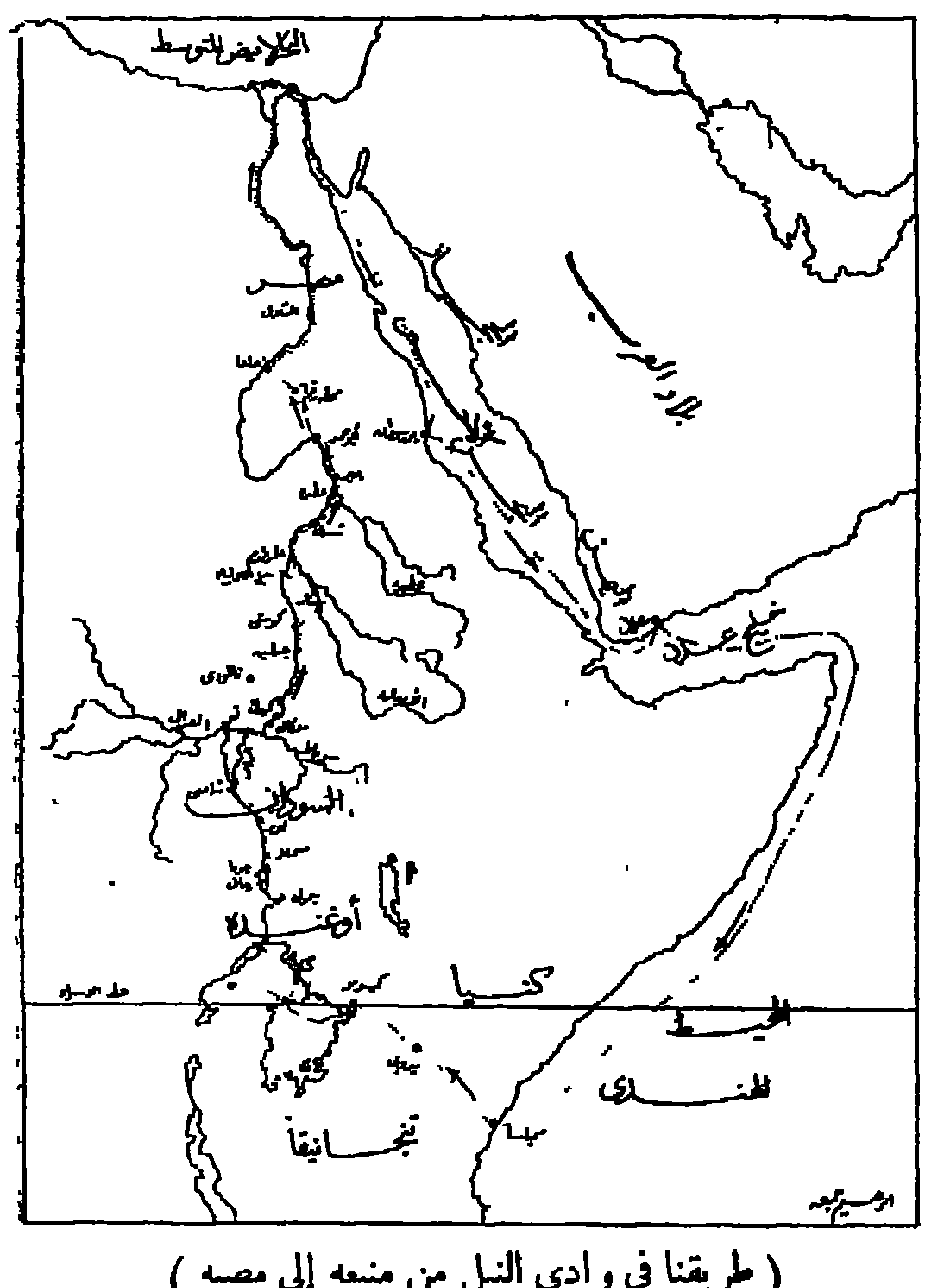
(الخرتيت من أندر الحيوان وجودا وأخطرها صيدا)

وسرورهم لماهم فيه فأعود أكبر فيهم تلك الهمة العالية ، والحق أن الانجليزى لقدير على خلق السرور والاستمتاع فى كل مقام سهل أو صعب وهنا تبدو التضحية للواجب والاخلاص فى خدمة الأوطان ، بتنا ليلتنا فى محطة اسمها لاروبى ومنها قمنا الى نيمولى ، وهنا بدت الجبال المعقدة وأخذ النهر يتلوى رغم اتساعه وإلى يسارنا مررنا ببقايا حصن لامين باشا فى دوفيلى Dufile وأخذ النخيل الذى يسمونه (براس بام brasspalm) ينتشر بكثرة هائلة بورقه المروحى ، وحيث يوجد تكثر الفيلة لأنها تأكل ثمره الاصفر الكبير ويقال أن الفيلة هى التى تنشر النوى وهى تلقيه على طول السواحل ولذلك يؤم صيادو الفيلة البقاع التى يكثر فيها هذا النخيل ، وقبل الظهر ظهرت نيمولى ، واسمها أكبر منها لأنى كنت أخالها مدينة فاذا هى مرسى صغير



(مرسى نيمولى حيث ركبنا السيارات خمس ساعات الى جوبا)

لايجانبه شيء سوى مظلة من حديد ، وقد كان لها شأن يذكر من قبل لكنها اضمحلت اليوم كثيرا ، وهى وما يليها شمالا من ضفة النيل الغربية كانت تابعة لاوغندا أما الساحل المقابل لها فكان تابعا للسودان من نيمولى جنوبا الى مخرج النيل من البرت فتبودلت المناطق سنة ١٩١٣ وجعل خط الحدود أفقيا يتبع الجبل المجانب لنيمولى من الجنوب مباشرة

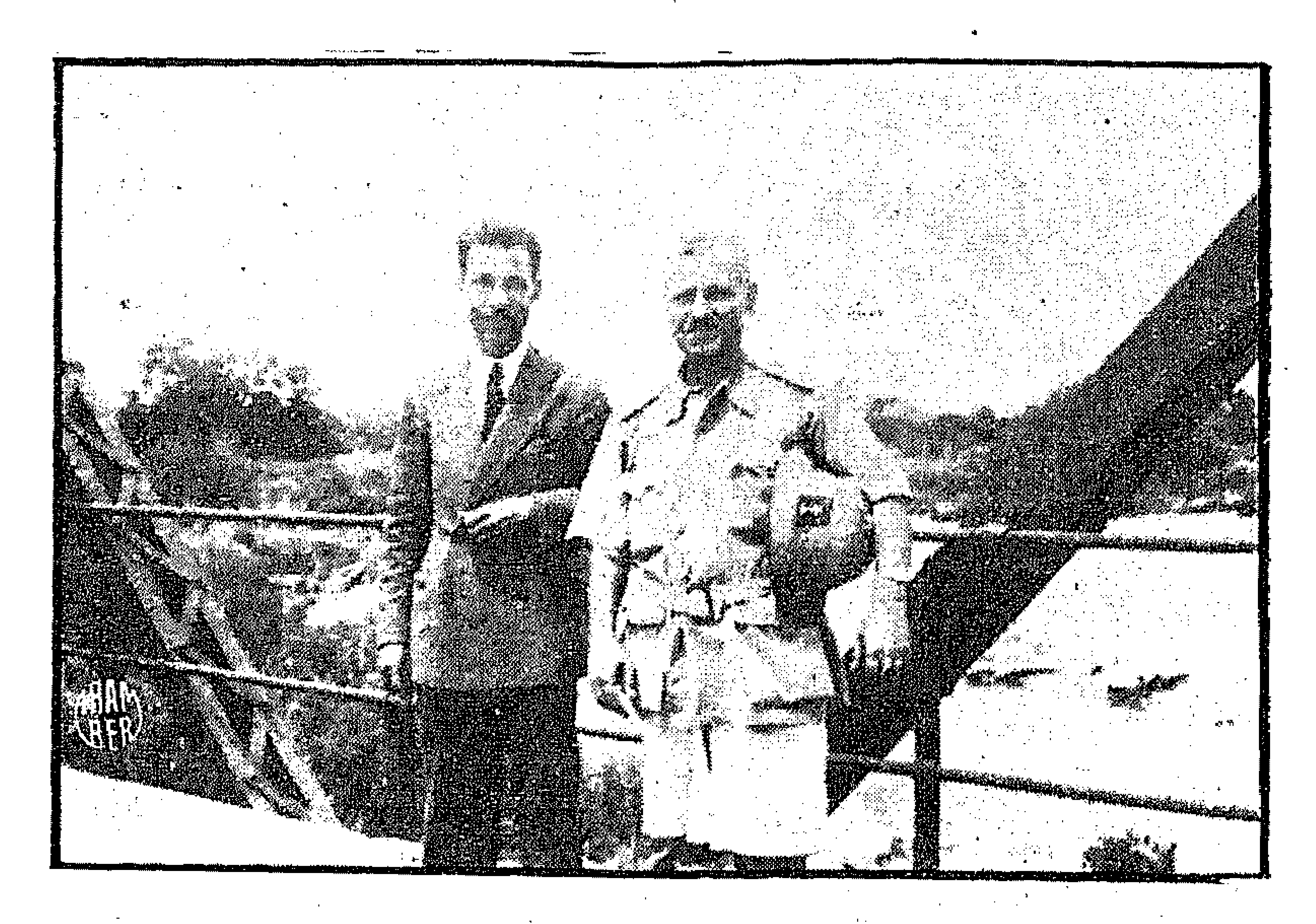


(طريقنا فى وادى النيل من منبعه إلى مصبه)

السودان

قطر مترامى الأطراف يزيد على ربع مساحة أوروبا كلها أو نحو مليون ميل مربع ، أعنى أنه ثلاث مرات ونصف قدر مساحة مصر بصحاريها أو نحو مائة مرة قدر المساحة المنزرعة من أرضنا ومع ذلك لم يستغل من مساحته الهائلة إلا بضعة آلاف أميال ، وهو إلى اليوم برية فطيرة لم يفسدها الدخيل ولا يزال موطن الوحشى من انسان وحيوان حتى قيل عن شعوب الشلوك هناك بأنهم (أكثر همج الدنيا وحشية) والسودان ينقسم طبيعيا الى شطرين الشمالى ومداه ستمائة ميل أى الى جنوب الخرطوم بمائة ميل بين عرضى ١١ ، ١٢ وهو صحراوى مجدب لا أمل فى استغلاله فهو امتداد الصحراء الكبرى ، والجنوبى ويمتد بعد ذلك ألف ميل الى الجنوب كلها سهول خصيبة ذات تربة سوداء من أرساب النيل طوال الأجيال الغابرة وهى — اذا استثنينا اقليم السدود — جديرة بانتاج الحبوب والقطن والبن اذا فلحت ، والمطاط والغلات الاستوائية من غاباتها الطبيعية وأهل هذا القسم الجنوبى أعجب متوحشى الدنيا قاطبة هم والحيوان سواء يمكن للانسان دراستهم حتى ولو جهل لغتهم كما يفعل دارس العجماوات فهم أبناء الطبيعة الفطيرة بسطاء ذوو أجسام شامخة وعضلات مفتولة مدربون على التمرينات العضلية وأخصهم بالذكر الشلوك والدنكة والنوير ، فهم

حقا المادة الآدمية الغفل الذين لم يتقدموا خطوة واحدة منذ عهد أمين باشا واسماعيل باشا الكبير ، أولئك سكان النصف الجنوبى ، أما فى السودان الشمالى من نحو ٣٠٠ ميل جنوب الخرطوم إلى حدود مصر ، فالجنس السائد هو العربى وهم أرقى بكثير من أهل الجنوب رسخت فيهم المدنية العربية ، ولم ترسخ فى الجنوب ويقولون انها آخذة فى الزوال فى تلك الأنحاء الجنوبية ، وآخر قبائل العربان جنوبا البقارة ، ولا يكادون يفوقون جيرانهم من الشلوك حضارة ، أما قبائل العرب حول النيل الأزرق فهم من أرقى الناس أدبا وشجاعة وهم صيادو أخطر الحيوانات بالحراب من متون خيولهم ، ويسمونهم قبائل (هام رام) وأمثالهم أهل نهر العطبرة ، ثم نزلاء البحر الاحمر وقبائل (فوزى ووزى) أشياع (عثمان دجنا) الذين غالبوا المدافع الحديثة أبان ثورة السودان ، وهؤلاء يعرفون بالقسوة لدرجة هى الوحشية بعينها ، والبقارة وفدوا من الشمال الغربى من بلاد البربر وفى سنة ١٧٧٦ ظهر السلطان هاشم الذى اتخذ الابيض عاصمة له وبعد ذلك بعشر سنين غزا بلاده شعوب دارفور (الكنجارا) وسادوا حتى كانت الحملة المصرية سنة ١٨٢١ ، اما عن تاريخ بحر الغزال فلا نعرف شيئاً باليقين ويظهر أن قبائل الدنكا غزوه من الشمال ثم أعقبهم قبائل (أزاندى) من الجنوب منذ مائتى سنة ثم كانت بعثة محمد على باشا الى بحيرة نو سنة ١٨٤٠ ثم أعقب ذلك بعثات من سفن تجارية وصلت الى مشرع الرق وابان ثورة المهدى نشط تجار الرقيق من العرب فكانوا يسوقون الى السواحل الشرقية ثمانين ألفا من العبيد فى كل عام



(على قنطرة نهر أسوا بين نيمولى وجوبا)

من نيمولى الى جوبا : أقلتنى سيارة لشركة النقل التى تتعهد لدى حكومة السودان بالنقل فى تلك الشقة مقابل ثمانية جنيهات عن كل مسافر وأربعة ملليمات عن كل رطل من المتاع ، ويظهر أن للشركه الحق فى رفع الأجور هكذا وبخاصة فى هذه الايام الكاسدة فمثلا لم يكن معى يوم سافرت أحد فكنت أنا المسافر الوحيد الذى جاء من أجله سيارتان احداهما صغيرة للركاب والاخرى كبيرة (لورى) لنقل المتاع مع العلم بان هذا النقل لا يحصل الا مرة كل أسبوعين والطريق ١٢٥ ميلا قطعناه فى خمس ساعات هنا بدأنا نسير صعدا فى طريق معبد متسع يتلوى فوق الجبال التى تكسوها

الاشجار القائمة ، وكلما علونا ظهر النيل من دوننا فى طية فضية نحيلة بجانبه بساط متسع من الخضرة ثم أخذنا ننزل الجانب الآخر لتلك الربى فهوينا نحو ٣٥٠ مترا الى سهول سوداء التربة عظيمة الخصب بلغ من خصبها أن العشب البرى طغى على الطريق المرصوف فغطاه فى غالب جهاته الى علو كان يخفى سياراتنا تماما وكل تلك أراض مهملة لا انسان فيها الا نفر من قبائل مادى وأشورى مبعثر عار حتى عن ذلك الشريط الذى كنا نراه يتدلى وراء أهل نيل البرت . هنا قلت أين الايدى المصرية التى اعتادت فلاحة الارض فتستنبت منها ذهبا خالصا وفيرا وهى هنا لا تحتاج الى كبير عناء فالرى بالمطر مكفول طوال ثمانية شهور فى العام وليس بها من الحزون التى رأيناها فى أرض كنيا وأوغندا الا اليسير ، وقد كان هذا من رأى اليونانى سائق السيارة الذى أخذ يحدثنى عن الأيدى المصرية وفعلها السحرى فى الحقول — وقد أقام عندنا أمدا —

هنا لاقانى بعض اخواننا من الموظفين الاقدمين وأضافونى برهة وقصوا على طرفا مما يجرى فى السودان اليوم ومحاولة الفصل بينه و بين مصر بكافة الوسائل كابعاد الجند واقالة الموظفين وقد بدأوا محو اللغة العربية واهمالها فى المخاطبات الحكومية على أن الحالة المالية كاسدة منذ برح الجيش المصرى البلاد وكل سنة تمر تخلف عجزا ماليا كبيرا وهمّ السلطات منصرف الى الانفاق على القطن فى الجزيرة على أنه لا يبشر كثيرا . مررت فى الطريق على سبع قناطر تعبر نهيرات سريعة أهمها نهر (أسوا) الزاخر المضطرب كثير

الساقط وفى أخريات الطريق عادت الجبال وأخذنا نعلو ونهبط وسط ذاك النبت الوفير حتى وصلنا حافة النيل المضطرب كثير الجنادل التى رأينا من بينها جندل فولا و بعده دخلنا بسياراتنا سابحة تجرها باخرة صغيرة عبر النيل الذى كان اذ ذاك طاميا بالماء الى حافته فى لون قاتم وتيار جارف ووراء الجانب الآخر دخلنا :

جوبا : وهى منشأة حديثة بها مجموعة من المبانى الصغيرة ذات السقوف المتحدرة وينزل الطريق الوحيد الرئيسى الى النيل حيث ترسو البواخر التى تقوم مرة كل أسبوعين ، اتخذت المدينة مبدأ الانتقال الى الشمال بدلا من الرجاف التى تقع بجوارها الى الجنوب وهى قرية قديمة وأكبر من جوبا ، وكانت البواخر تقوم منها مخترقة فجوة بين الجنادل فآثر القوم اجتناب أخطارها واستبدلوا بها جوبا والربوة التى تقع عليها الرجاف ترتجف أبدا ، ويقول القوم أن هزات الأرض أخذت تتزايد فى هذه الأيام فلقد اهتزت منذ أول العام ثلاث هزات عنيفة ويخشى القوم انفجارا بركانيا يحتمل حدوثه ، أما جوبا فليس بها الا بعض محال تجارية أكبرها لطائفة من الاغريق يبيعون فيها كل شىء بين مأكل وملبس ومشرب ولاحظت أن الهنود قد اختفوا تماما رغم أنهم كانوا أصحاب المتاجر فى كل شرق أفريقية ويلى الاغريق من الغرباء السوريون ثم السودانيون وأقلهم المصريون على أنى هنا بدأت أشعر بانى فى وطنى اذ بدأت اللغة العربية تحل محل السواحلية وكثير من الأهلين على وحشيتهم يتكلمونها . حلت الباخرة التى تدفع

أمامها باخرة أصغر منها لركاب الدرجة الثانية بجانبها صندلان كبيران يوثقان فيها ويحملان ركاب الدرجة الثالثة و بعض البضائع وخشب الوقود وفى الثامنة من صباح الأحد ٤ سبتمبر أقلعنا نشق النيل الطامى العكر وأخذ يتلوى ليات وعرة تحف ضفافه أراض وطيئة يكسوها عشب برى كالحلفا وهى أرض خصيبة تعوزها الخبرة والايدى العاملة ، وفى التاسعة مررنا بمكان غندكرو الى اليمين فلم نر ما يدل على وجود مدينة قط بل عدة أكواخ من خلفها بعض التلال ، وهنا كانت بقايا محطة السير صمو يل بيكر واضحة وكانت محطة عسكرية هامة للجنود المصرية منذ عهد امين باشا ، أما الجو فكان دفئا جميلا ، وما حل الظهر حتى كنا نرسو على منجلا فظهرت بها بعض المباني التى أقامها الجيش المصرى من الآجر الاحمر وفريق من الأهلين افترشوا الارض بمبيعاتهم من قصب السكر والفاكهة خصوصا الموز والجوافة والبوپوز والقشدة التى كنا نشترى الواحدة منها بمليم وغالب البائعين من قبائل البارى أشداء الجسوم طوالها فكثير منهم يصل سبع أقدام و يزيد وقد وقفت بجانب أحدهم فكنت قزما ، وأعجب مافيهم رجالهم الذين يسيرون عرايا وكأن عدم ستر العورة أمر فطرى طبيعى و بعضهم يضع سوارا أو اثنين حول الساعد وعند الرسغ و بعض الخواتم والاقراط ؛ وأخصاصهم دقيقة البناء نظيفة لكنهم لا يزالون على الفطرة وكثيرا مايضع الرجل عقدا من خرز أزرق أو أحمر حول خصره العارى والمدينة كانت مقر المديرية لكنها هجرت الآن واتخذت جوبا مكانها فأصبحت قرية



(تدفع باخرتنا امامها كل تلك السابحات زودت بالروافع لانتشال أعشاب السدود)

لا شأن لها وكنا نراهم يهدمون المبانى المصرية شأنهم فى جميع البلدان التى تبدو متمصرة عن غيرها محاولين أن ينسى الناس بعد حين كل ما هو مصرى

بعد ساعتين مررنا بمرسى (سمسم) الصغير الذى تزود السفينة فيه بالأخشاب وكانت مكدسة على الضفاف بمقادير كبيرة وأخذ النيل يتلوى ليات متعاقبة كانت تبدو فيها وظيفة الجرف فى الضفة المواجهة للتيار فكان يرى الطين فيها مشرفا زهاء ثلاثة أمتار ، أما الجانب المقابل له فتكاد تسده الاوحال والرواسب وكانت السفينة كلما دارت دورة اندفعت الى العشب رغما عنها فأوغلت فيه بقعقعة مخيفة ثم تتخذ سبيلها بعد فى ماء النهر الطامى

ولا أدرى ماذا تفعل أبان انخفاض الماء بين نوفمبر وابريل ، و بعد أكثر من ساعة وصلنا :

تركاكا : احدى بلاد قبائل الباري باخصاصهم الجميلة و بعدها اختنق النيل وزادت لفائفه وأعشابه التي تسده حتى خيل الى أنى دخلت فى صميم منطقة السدود مع أننا لا نزال فى مبدأها وقد الفت نظرنا فى ذلك العشب أربعة فيلة يعرفهم القوم وتحميهم الحكومة مع أنها تصرح لمن يطلب أن يصيد فيلا واحدا ، ولما كانت الرخصة تكلف الصياد عشرين جنيها وثمن قنطار العاج هبط الآن الى عشرين جنيها رغب الكثير عن الصيد الا خاصة الهواة.

هنا جرى الحديث مع بعض المسافرين من السودانيين والاجانب و بعضهم من القائمين بشؤون التعليم عن نظامه فعلمت أن هناك من المدارس الابتدائية حوالى العشر فى عواصم المديريات الشمالية اذا أتمها الطالب انتقل الى كلية غوردون فى الخرطوم وهى تنقسم الى فروع عدة ، الغرض الأساسى منها تخريج طائفة من الموظفين وفروع تلك الكلية هى فى عرفهم الاقسام العالية يتمها الطالب فى أربع سنين والدراسة هناك سطحية وتقوم على التحفيظ وغالبها باللغة الانجليزية . وعلمت من الكثير من الطلبة أن التدريس قد انحط مستواه منذ برح الكلية جماعة المصريين من الاساتذة و بعضهم كان من المخضرمين الذين حضروا العهدين ، أما فى جنوب السودان حيث نحن الآن فالتعليم فى أيدى المبشرين ، والبعثات الدينية التبشيرية هنا تشجع كل التشجيع ، فمثلا تخفض لهم نفقات الانتقال الى الربع ، وتقدم لهم



(نرسو على منجلا وترى بعض المبانى المصرية تهدم)

الاستراحات يشغلونها أنى شاءوا ، وكان معى منهم فى الباخرة ثلاثة وكان بعضهم من الطليان ، وكانت الباخرة تقف خصيصا فى مكان صغير ليس من مراسيها لنزول واحد منهم وتلك خطوة شبيهة بما رأيته فى أوغندا حيث التعليم كله فى أيدى المبشرين وليس للحكومة به علاقة إلا المعاونات المالية

أما الدعاية للاسلام فتعاكس كل المعاكسة فاذا فكر أحدهم فى جمع أعانات لاقامة مسجد صغير منع من ذلك ، وقد بلغت الحال أن بعض المسلمين لا يشجعون على أداء شعائر دينهم هناك علانية ، وليس ذلك تعصبا دينيا بل هى فكرة متممة لفصل السودان الجنوبى عن الشمالى ليشبه أوغندا ، يؤيد ذلك ما قرأته فى الكتب الانجليزية عن السودان تلك التى

تحاول التفرقة بين السودانيين ببراهين واهية ، الى ذلك أن أهالى الشمال والجنوب يمنعون من السفر من طرف لآخر إلا بترخيص رسمى مع أنهم سودانيون من أبناء البلاد ، وكان يسافر البعض خلسة وكثيراً ما عوقبوا على ذلك وأعيدوا من حيث أتوا

ولشد ما كان عجبى لأسلافنا الذين لم يحاولوا تمصير هذه البلاد وتحويل أهلها الهمج البسطاء الى الدين الاسلامى الذى لو كثر معتنقوه لما أمكن محاولة الفصل بين الشمال والجنوب وتلك هى الفكرة السائدة فى نشر الدعوة فى كل شرق أفريقية والسودان الجنوبى وما حركة نقل الموظفين الذين ينتمون الى السودان الشمالى فى اللغة والدين من الجنوب الى الشمال أو الاستغناء عنهم هم والمصريون إلا أثر من آثار خطة الفصل بين السودانين ويشاع أن السودان الجنوبى من نصف الجزيرة سيضم الى شرق أفريقية ويميل الساسة الى اطلاق اسم اتحاد شرق أفريقية على هذا الجزء مضافا الى أوغندا وكنيا وتنجانيقا وستكون حكومته شبيهة بحكومة اتحاد جنوب أفريقية .

بور : فى اثنتى عشرة ساعة وصلنا بور على الضفة اليمنى من النهر وهى مدينة كبيرة بيوتها أخصاص دقيقة الصنع منسقة يفصل كل مجموعة منها سور من الغاب والطرق كلها تحد بسورين من جدائل البوص و بها بعض المحال التجارية فى أخصاص فسيحة ومربعة وليست مستديرة كالمساكن ولها شرفات (برندات) على عمد من خشب من جهاتها الاربع ومقر المركز الحكومى على المرسى مباشرة وهنا كان يقوم العلمان المصرى الى جانب



(فى أعالى النيل يصيدون الفيل بالحراب)

الانجليزى والمأمور سودانى قوى الجسم ، وقد كان المآمير من المصريين الذين استعيض عن بعضهم بالوطنيين السودانيين ، والغالب أن يحل مفتش انجليزى فى المراكز الشمالية محل المأمور وقد كان لمركز بور مأمور ووكيل لكبره ، والمكان وطىء تحفه المناقع وأعشاب النهر التى لا آخر لها لذلك يعرف بكثرة البعوض كثرة مروعة ، وغالب الاعشاب من حشيش النمر والغاب وأم الصوف كسائر المناطق السابقة ، ولقد بدأنا ندخل بلاد شعوب الدنقة بدل أمم البارى ، فمنا نتخبط فى جوانب العشب التى كانت تعلوه باخرتنا ثم نحاول التخلص منه بمشقة كبرى وكم صدمنا من تماسيح وأفراس الماء ، وقد مرت بنا باخرة صغيرة عليها العلم المصرى وبها فريق من المهندسين المصريين الذين يقومون بأبحاثهم فى تلك المناطق الغامضة ومركزهم الرئيسى

الملكال ، وقد خبرني بعضهم أن تصرف النيل هنا كبير إذ يبلغ ٩٠٠ متر في الثانية لكن المسارب الكثيرة هي التي تبدده ، رأينا منها مسربا اسمه (فيفنو) بدا كالنهر الصغير لكن البحث أثبت أنه يسحب وحده نصف ماء النيل و يبدده في اقليم السدود

ومن المشروعات التي يبحثونها تعقب ذاك المسرب الذي يجري إلى جهة هي أجف من منطقة السدود الصميمة إلى شرقها و يقارب منبع الزراف ثم يعود فيلتوي عائداً إلى ملاقاة بحر الجبل بعد أن يكون قد بدد ثلاثة أرباع مائه وهم يبحثون في وصله بالزراف الذي هو أقل خطراً على الماء من الجبل إذ أن تصرف بحر الجبل حول ألف م^3 في الثانية والآن لا يصل منها بحيرة نو سوى مائتين والباقي يضيع بالتبخير وفي الحق أن المنطقة لمن المعضلات التي تحار في حلها كبار العقول لذلك لبثت مصلحة الري دائبة على بحثها منذ ١٩٠٧ إلى اليوم ولما توفق بعد إلى طريقة لانقاذ الماء لا ولا جزء مما تبدده تلك النقائع التي لا يبدو لها من نهاية و بواخر الري المصري كل يوم تدون الأرصاد الجوية والتصرفات وتقيس المسائح المحيطة بالأقاليم دون جدوى

لبثنا اليوم كله نمخر عباب ذاك العشب اللانهائي و كل آونة تطلع علينا مجاميع صغيرة من أخصاص أقيمت فوق العشب مطلة على النهر في مسافات متباعدة الواحدة تلو الأخرى وكان أهلها العرايا يسرعون بالظهور لتحيتنا من بعد .

وظلت تتلقفنا مطاويه فندخل صميم العشب بسفننا ونحاول التخلص



(فى غابة شامبى وسط بعض العرايا والنقائع)

منه بقوة البخار ومجهود الرجال الذين يقفزون فى اليم والعشب وهو يغص بالتماسيح والأفراس وطالما اغتالت منهم عاثرى الحظ ، وكان ربان السفينة الزنجى يقذف بنا عمداً إلى الضفة كى يكسر شرة التيار . وفى الصباح كان الجو غائماً مطيراً كما كان بالأمس وقد لاحظت أن العشب أضحى كله من البردى الذى امتد إلى الآفاق حتى خيل إلى أن الله قد خص تلك المنطقة فجمع فيها عشب الدنيا كله إلى ذلك فان تيار النهر بدا فاتراً ذلك لأننا نقارب منطقة السدود الصميمة وفى التاسعة من صباح اليوم التالى رسونا على :

غابة شامبى : وهى قطعة من ارض وطيئة وسط المستبحرات

الشاسعة و إلى جانبها يمد النيل بحيرة آسنة فسيحة وقد علا فيض النيل هذا العام فكانت البيوت سابحة فى نقائعه وهى مجموعة من أكواخ أنيقة غالبها مستدير و بها محلان تجاريان فى ملكية بعض العربان من سودان الشمال كما هى حال غالب المتاجر فى الجنوب وعلى البحيرة مباشرة تقوم المستشفى ودار الحكومة (وهى نقطة للبوليس) والاستراحة وأخص ما استرعى أنظارنا أهل البلاد من الدنكا حالكى السواد فى وجوه جمالها فائق الحد رجالا ونساء وغالبهم ينقشون جباههم بالتجريح البارز فى خطوط أفقية أو رأسية وكان بينهم كثير من أبناء النيام نيام لأن هناك طريقا يمتد من شامبي إلى بلادهم فى بحر الغزال ، هنا استوقفنا جمع من الصبية يرقصون على نغم آلة موسيقية كالطنبور وهم يحركون أرجلهم حركات منظمة ومعقدة كأنها رقصة (شارلستون) وهم لايملون الرقص مهما طال بهم الوقت

الدنقة أو الدنكا : بعد أن كان يطلق عليهم اسم زولو أعالى النيل بسبب قوتهم و بأسهم تفرقوا من أثر الحروب الداخلية وغارات تجار الرقيق عليهم وقد امتدت بلادهم من شمال بحيرة نو إلى جنوب السدود حول شامبي إلى شرق النيل الأبيض من كودك والرنك وتلك المنازعات الداخلية هى التى حدت بهم إلى ذاك التفرق والسكنى فى قرى صغيرة قد لايزيد عدد الواحدة على أفراد عائلة واحدة وتاريخهم غامض لكنهم أعاروا على العرب فى أخريات عهدهم وقبيل دخول الأتراك فى السودان وتقدموا شمالا على الضفة الشرقية للنيل الأبيض (كما فعل الشلوك على الضفة اليسرى) لأن



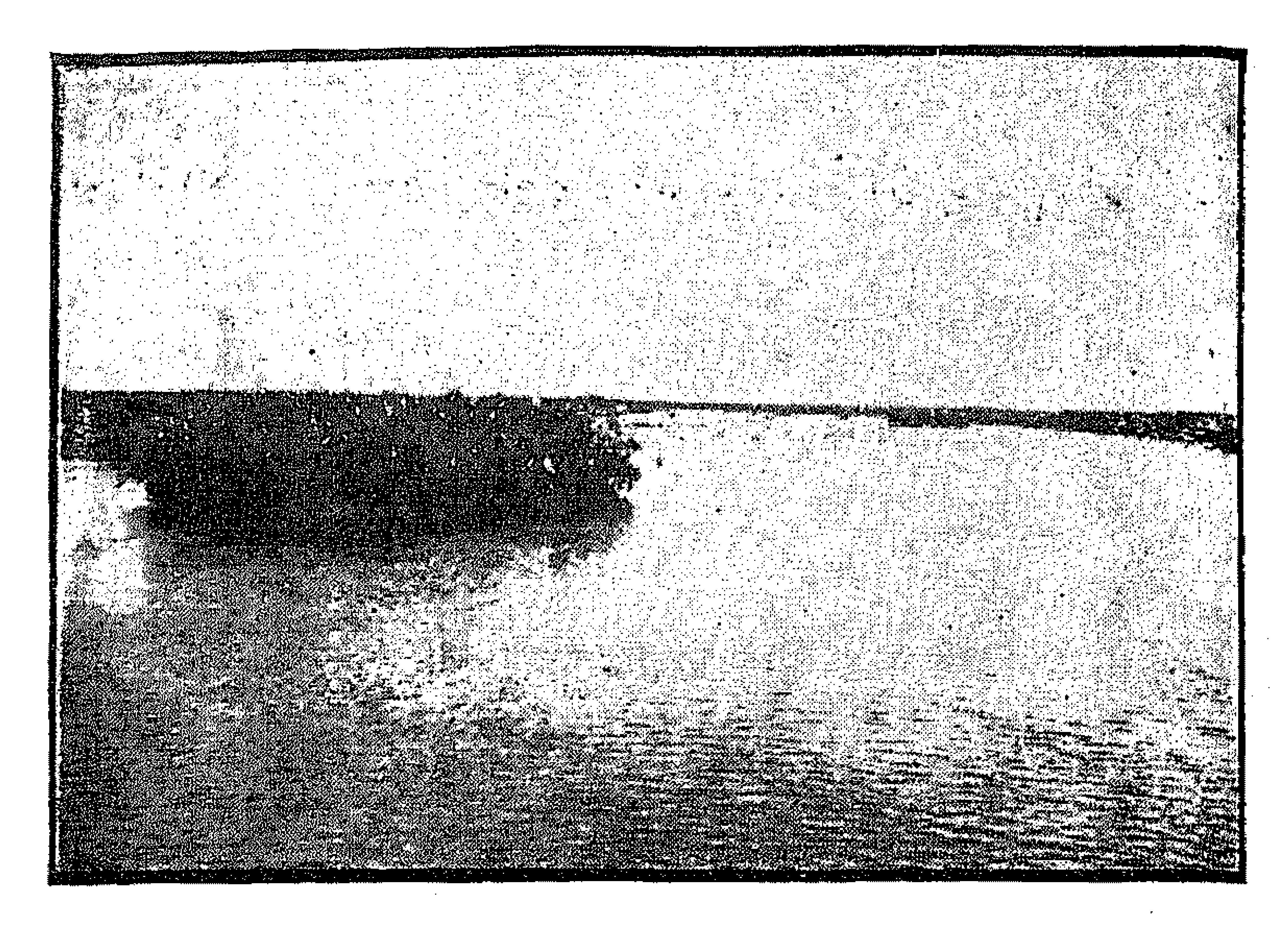
(زينة الرجال عند الدنكا)

مناطق السدود قد ضاقت بهم لضيق المساحة اليابسة فيها ويظهر أن هذا هو السبب الذى حدا بكل القبائل المتوحشة أمثالهم فى أعالى النيل أن يطغوا على العرب شمالا فى آخريات القرن الثامن عشر ولولا ظهور أسلحة الجنس الأبيض الحديثة فى الشمال لاكتسحوا جميع السودان ونعرف باليقين أن الدنكا عبروا السوباط وغزوا بلاد الفنج سنة ١٧٧٥ وتقدموا تحت قائدهم (أكواى تشا كاب) فوق ٣٠٠ ميل شمالا إلى جزيرة آبا التى هب منها الدراويش يكتسحون الشمال لكنهم ردوا الى جنوب الرنك وقد قاسوا من تجار الرقيق مرارة فقد كان يساق منهم فى العام عشرون ألفا بين نساء ورجال وأطفال

والدنكا شعب رعاية قطعانهم هى كل شىء لديهم لهم زرائبهم التى

يقر فيها الرجال صباح مساء يراقبون القطعان وهم يغنون أغانى البقر المقدس وينامون على فرش من روث هذا الحيوان وأكواخهم شبيهة بأكواخ الشلوك الا أنها قذرة وغير منظمة وهم يسيرون عرايا الا اذا زاروا منطقة أخرى حين يحملون خرقة مهفهفة والمتزوجات يلبسن جلدين لمعزى واحد من امام والآخر من خلاف وهذين يقدمهما لها الزوج عند الزفاف ، أما التزين بالخرز والودع فللجميع نساء ورجالا وكبر العقود للرجال دليل على جاههم وثروتهم وشبانهم يكثرون من لبس الخرز فوق رؤوسهم بعد حلق شعورها إلا الناصية التى يكور شعرها فى أشكال مختلفة وهم كالشلوك يدهنون الشعر بمخلوط من بول البقر والروث ومسحوق الثرى الاحمر و يزيدون قذارة عن الشلوك فى دهن الجسد كله بهذا المخلوط الذى يصعد من الروائح الكريهة ما تعافه النفوس خصوصا عقب استعماله مباشرة .

والرقص لديهم أقل جلالا وأبهة من رقص الشلوك وعلامة الحداد عندهم أن يلبس الرجال والنساء حزاما رفيعا من حبل من مجدول العشب حول الخصر وأسلحتهم الحراب القصيرة والصوالج والتروس وغالبها من جلود خشنة ، وأعجب عاداتهم ما اختص بالزواج والميلاد والموت ، فقبل ميلاد الطفل تحجز الحامل وحدها فى كوخ ويحوطها من الخارج حبل يدل على وجوب عزلتها وكل من تخطى ذاك الحبل السحرى يصبح مسئولا عما يصيب المرأة والطفل من مرض أو أذى ، وثروة الرجل تقاس بقطعانه وعدد بناته اللاتى بلغن الحلم و يغلب أن يكون ذلك فى سن الخامسة عشرة لأنهن

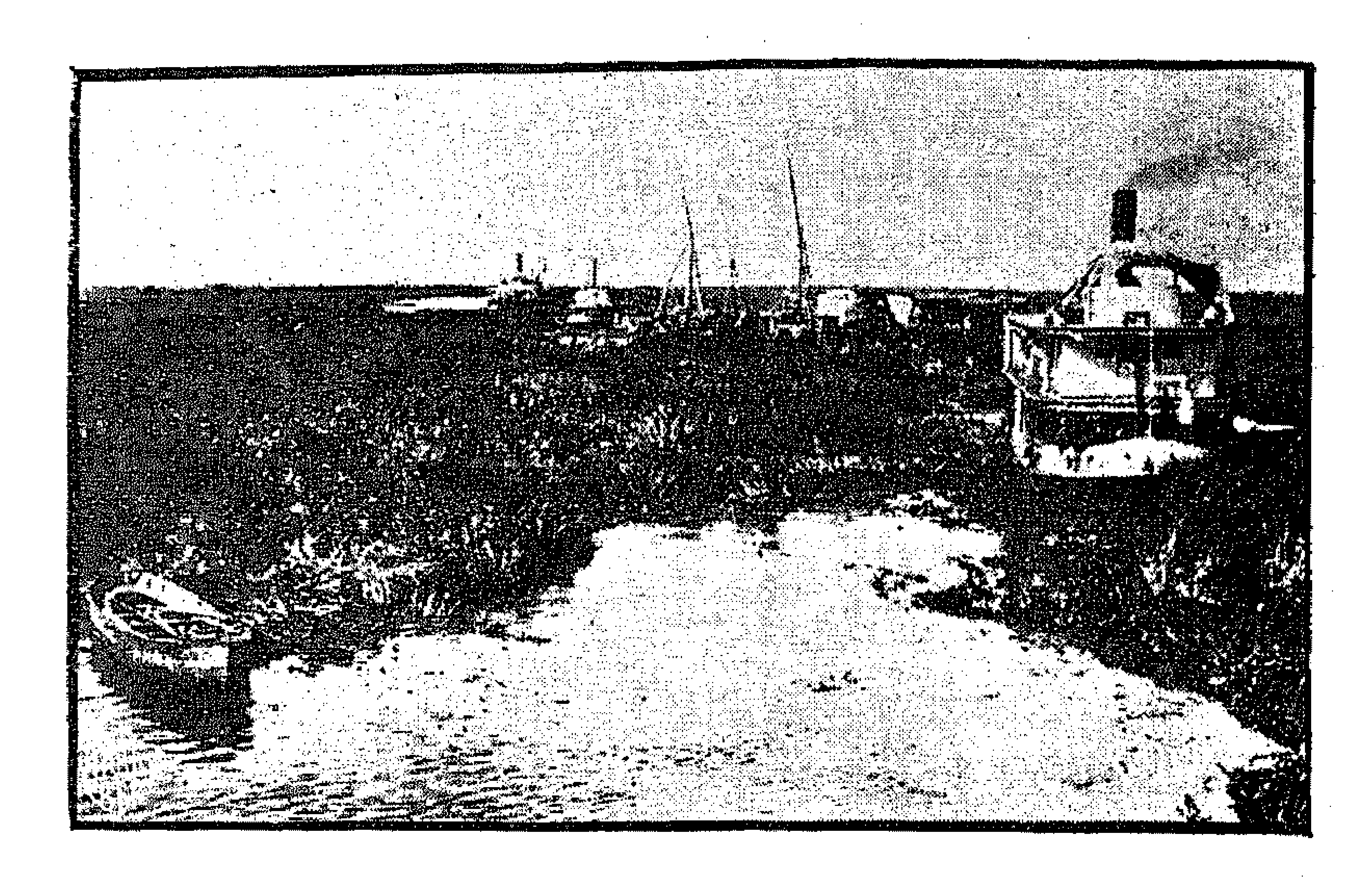


(منطقة السدود قبيل بحيرة نو وترى سدا طافيا)

يمهرن عند الزواج بين ثلاثين بقرة وأربعين على حسب جمالها ولما كانت المرأة عرضة للبيع فهى لا ترث وهم يخالفون الشلوك فى مراسيم الزواج إذ بعد أن يدفع الزوج جزءا من المهر يخول له الاختلاط مع الفتاة ولا يدفع الباقى الا بعد ميلاد أول طفل حين يحل دفع باقى المهر ، وللرجل أن يطلق زوجته العقيم فاذا ثبت صدق قوله رد له أبوها ما دفع وللفتاة أن تتزوج من غيره فان طلقها للسبب عينه وتزوجها ثالث فلا مهر لها فان حملت وولدت فى هذه المرة كان الأطفال لها لا للأب ولها حق بيعهم وفى قوانينهم أن الزوج المسن الذى يعجز عن اتيان النساء له حق فى أن يزوج ابنه من زوجته فان لم يفعل طلبت هى الطلاق والرجل لا يرغب فى الطلاق مخافة أن يضيع

عليه ما دفع مهرا من الأبقار ، وعلى ذلك فالبقر لديهم أهم من النساء لأنه معيار التبادل وهم يقدسونه فيظل الرجال فى حراسة الزرائب وهم يغنون للبقر أو يرقصون أمامه لكيلا تمرض الأبقار أو يقل نسلها وينام الرجال مع البقر ليلا وتشكل قرونها وهى صغيرة حتى تأخذ رونقا جذابا وهو يستخدم روثها و بولها فى زينته وقد ألف رائحتها التى أصبحت محبوبة لديه ، والغنى يملك من البقر بين خمسمائة وألف ، وأخص غذائهم لبن البقر يمزج به نوع من الفول يسمونه (كوردالا) والذرة تؤكل مع لحوم الغزلان والسمك ولتسهيل ازدراد ذلك الطعام اللزج تقتلع الأسنان الأربعة السفلى منذ الصغر بواسطة احدى الحراب التى يصيدون بها السمك ومن أحب الأطعمة لديهم دم الماشية فيربطون الثور ويضربون وريدا منه بحربة فيسيل الدم الى أناء ثم يضمد الجرح بالروث والثرى ويقيم الرجل الاناء الى فمه مرتشفا الدم فى لذة غريبة ثم يناوله لجاره وكثيراً ما ترى على جباههم خطوطا من التجريح بارزة فى أنظمة مختلفة وهذه تميز قبائلهم المختلفة .

ورغم وحشيتهم هذه فهم على دراية ببعض الفنون يجيدون الضفر والجدل وصنع الطبول والخزف والسلال والأسلحة كذلك الصيدلة والجراحة وطب الأسنان والتدليك وطب الحيوان فالعقاقير التى يستعملها طبيبهم تؤخذ من الجذور والاعشاب ولها فى الشفاء أثر كبير ويدفع القوم ثمن الدواء بقرا والتدليك علاج عام نافع خصوصا فى المغص المعوى الذى ينتشر بينهم وكثيرا مايستخدمون الحجامة ، وعادة اقتلاع الاسنان الامامية يعللها البعض



(كيف تجنح السفن فى أعشاب السدود الكثيفة)

بانها تسهل لهم النطق بلغتهم التى تحكى الهمس لأنها فقيرة باللفظ وقيل ليستطيعوا الأكل اذا أصابهم مرض تصلب الفكين الذى يتعرض له كافة المتوحشين ومما يتعرض له صغارهم من القسوة تجريح جباههم ليحملوا شعار قبيلتهم الى ذلك دفعهم وهم فى مقتبل العمر الى الوحوش والأفاعى كى ينالوا شرف قتلها فرادى وهم يتخذون شعارا من الحيوان فالأفعى البصاقة دليل المطر ، فاذا نزل بعد الجدب أقاموا لها حفلة كبيرة عند بيت الساحر الأعظم فيشعلون النيران فى وسط الدائرة التى يحوطها القوم وهم يرقصون ثم يتقدم زعيم السحر و بيده أفعى فينسحب الجميع ما خلا رجلا عاريا يمد ذراعه فيطوى الساحر الافعى

حول هذا الذراع ولا يخاف الرجل والا لحقه عار كبير وتوثق ثلاث أفاعى فى الأرض الى عامود بجانب النار لحراسة المكان حتى تنتهى الحفلة وعجيب الا يخشى القوم تلك الافاعى التى تبصق السم دائما فاذا وصل جسم الانسان آلمه ألما شديدا واذا لحق العيون أعماها .

فى صميم منطقة السدود

ساد البردى خشن الملمس شاهق العلو فى تماسك بالأرض شديد ، ووجوده دليل على زيادة العمق لأنه هو الذى يغالب العمق فيمد جذوره طويلا حتى تمسك شعابه باوحال القاع ، ولا يؤثر فيه الماء قط ولم يكن مجرى النيل خلاله الا قناة مختنقة فى ليات متعاقبة تكاد تكون طياتها متوازية تماما ، وما فتئت باخرتنا تعانى صدماتها بارتجاج يهز القلوب كلما تلقفتها لية عن سابقتها ، وهنا كنا نمر بمحاط وسط النقائع يغطيها العشب ولم تكن الا ثلاثة أكواخ أو أربعة يخرج منها جمهرة من العرايا يخوضون الماء وهم يطلون علينا وهذه متاجر صغيرة يفد اليها الهمج من أقاصى اقليم السدود يبتاعون متاعهم الضئيل ، وقد باغتنا سحاب من الجراد الذى كان يحط على ذاك العشب ويأكله رغم خشونته والجراد هناك من أخطر الآفات ولو أن الاهالى يأكلونه بكثرة ، وكان يتعقب تلك السحابات أسراب من طير الماء الأبيض ليلتهم منه ما استطاع ، وبحر الجبل هنا هادىء الماء رائقة سطحه أملس لا تعلوه موجة قط اللهم الا كلما نفر تمساح كسول أو فرس مروع فقد بدا كالزيت لونا وشكلا وأخذت جزائر العشب الطافية تعترضنا بين فترة

وأخرى أو ترتطم بالضفاف فى سدود لا نهائية ، وفى الحق فالمنطقة بأعشابها وسدودها ومناقعها ليحار فيها اللب ولا يعرف مداها الا علام الغيوب وعجيب أن كان البردى يكسوه كثير من النبات الطفيلى المتسلق عليه وكم أمسكت مع جمهرة من صحبى فى السفينة بأعواده محاولين اقتلاعها فكانت تجتذبنا اليها فى متانة لا يصدقها العقل وهنا كان يكثر فى الماء نبات يطفو وهو يشبه (الكرنب) الصغير أو الزهرة الخضراء الكبيرة اذا انتشلتها كانت أعراشها وجذيراتها ملبدة كثيفة تبلغ أضعاف حجم الزهرة نفسها ، وقد لاحظ بعض من أقاموا حول منطقة السدود طويلا خصوصا عند بحيرة نو أن كرنب الماء هذا الذى يسير واحدة فواحدة كأنها الطبق الصغير وفى المكان الهادىء يتجمع ويدور فى هدوء وحيث يقل العمق تمسك جذوره بالطين وبعد ساعة واحدة يصبح حجم الجزيرة الصغيرة التى تألفت من ذاك الكرنب كالمائدة الكبيرة ، وفى الصباح كانت الجزيرة فى حجم الكوخ الكبير وبعد يوم آخر ضوعف حجمها ست مرات ولما فحصت جذوره كانت متماسكة بشدة فى أوحال القاع ، فاذا كان هذا فعلها فى يومين فصور لنفسك ما تم هناك فى الأجيال السحيقة الغابرة فلا عجب أن ترى فى منطقة السدود جزءا من النيل طوله ٤٠٠ ميلا يركد ماؤه ويتجمع حول كتل (الكرنب) هذه نبات الماء الآخر كأم الصوف أو حشيش النمر والبردى وبعضها يفوق خمسة أمتار فى العلو وضعف ذلك فى جذوره

هكذا تكونت منطقة السدود التى تسد مجرى النيل فى وسطه فى مساحة

قدرت بنحو خمسة وثلاثين ألف ميل مربع أى نحو أربعة أمثال الأراضى المنزرعة من القطر المصرى ، ولا تلبث أن تنفصل كتل من ذاك العشب المتماسك ولشدة ضغط الواحدة على الأخرى تراها تعلو بعضها البعض ، ومثل هاتيك تخشاها السفن فان لامست إحداها فقد يتعذر عليها الخلاص وان حصرت السفينة بين كتلتين يضغطانها حتى تتهشم الباخرة تماماً وقد حدث ذلك مراراً وتلك الكتل تلتئم تارة فتسد الآفاق ولا تلبث أن تنفصل بقوة الضغط عليها فتندفع إلى غيرها وهكذا . هنا يقف ماء النيل ويتخللها فيبدد نصفه على الأقل بالبخر والمسارب الجانبية مما أعاق التقدم الزراعى بين كثير من شعوب تلك الجهات على أن بعض هذا الماء المبدد فى المسارب يرد إلى النهر إبان الفيض

منطقة لاينساها من يخترقها إذ يظل يذكر منظرها الموحد الممل المقبض طوال حياته هنا يلبث العابر يشق الأقليم يوماً بعد يوم فى طريق مختنق شقه الماء وسط العشب ولا يزال يعانى الانسان كثيراً فى المحافظة عليه خشية أن تسده تلك الطافيات وكلما طوح ببصره لم يلق غير العشب ويزيدها كآبة أنها موات لا يكاد يرى بها من الحياة الحيوانية شىء اللهم إلا فى بعض الفيلة وأفراس الماء والتماسيح ونوع من الغزال خاص بها هو (ستوتونجا situtunga) أعدت حوافره لتلائم المناقع فهى حوافر طويلة مرنه أقرب إلى الطير المائى وفى أسفلها نتوءات مرنة كالمطاط بدل الشعر الذى نراه أسفل حوافر الغزلان عادة وذلك لتسهيل السير فى الأوحال والأعشاب

وسحائب البعوض وبخاصة إذا جن الليـل لا يمكن مغالبتها ،
بعوض كبير الحجم كان ينفذ إلى صميم شبا كنا من سلك وقماش فلا
نشعر إلا والالتهاب الممض قد أخذ من سوقنا وأذرعنا رغم ثقيل الثياب
وخير ما كنا نتقيه به التعجيل بالنوم بعد تطهير الفراش ولذلك لم نعجب
إذ كانت المنطقة مهددة بالملاريا والحمى السوداء التى يتقيها القوم بتناول
الـكينين كل يوم ورغم ذلك قلما ينجو منها أحد . إلى ذلك نوع من ذباب
تسى تسى الذى ينشر :

مرض النوم : وتلك الذبابة تمرض به وهى أكبر حجما من ذبابة
مصر واجنحتها مخططة كورق الشجر وتراها إذا حطت يتقاطع جناحاها كالمقص
وهذه تـكثر فى الاخوار كثيرة المياه التى يظللها الشجر و يملؤها العشب
لذلك يجب نقل الناس بعيدا عن هذه كلما تفشى المرض وهى لا تحط على
شىء أبيض اللون قط لذلك قل الخطر على الجنس الأبيض هناك بسبب
لونهم ولون ملابسهم والذبابة أعجب الحشرات فى أنها لا تضع بيضها كالعادة
بل تفقس بيضة واحدة داخل بطنها ثم يخرج الجنين فيختفى فى الطين وعلى
ذلك تكون نسبة التكاثر فى هذا الذباب قليلة جدا ولا يمكن أن تلد الانثى
طوال حياتها أكثر من عشر مرات ويجب أن تلقح أكثر من مرة فى كل
دفعة على أن قلة تناسلها هذا زادها احتفاظا بحياتها فتنوعت فصائلها حتى
أحصى من هذا الذباب اثنان وعشرون نوعا فى المنطقة الحارة وخرطومها
يخترق اللحم بسهولة . وعوارض المرض تورم فى غدد الرقبة يزيد تدريجا

ثم يصحبه صداع مستمر أو حمى خفيفة حرارتها ٣٨° وتجيء متقطعة و بعد ستة شهور يشعر المريض بميله للنوم خصوصا فى فترات الظهر ويتزايد هذا الشعور لزيادة تأثر الأعصاب ويعرو الوجه كآبة مستمرة وتتثاقل الخطى وتخور القوى ثم يلى ذلك غيبوبة وذهول لايفيق منها المريض وخلال ذلك يضمحل الجسد فيبدو هيكلا وفى سنتين يموت المريض ، ويمكن علاجها بالحقن و يعزل المريض مخافة أن تلدغه ذبابة غير مصابة فتنتقل العدوى منه الى غيره ، والعجيب أن الذبابة نفسها يفتك بها المرض فتموت بعد ستة أشهر ، والعادة أن يمر الطبيب على كل قرية ويجمع له مشايخ النواحى جميع الأهلين لفحصهم وان ظهر مصاب عزلوه و بحثوا عن الاخوار فقطعوا الشجر حولها واستأصلوا العشب وأمروا الناس ألا يقربوها . وأصل هذا المرض وفد من الكنغو وكان ظهوره عقب حلول جنود امين باشا فى بوسوجا بعد تركهم شواطئ ألبرت وتفشى سنة ١٩٠١ خصوصاً حول البحيرات وجزائرها وقد مات به فوق ربع المليون ولقد نقلت الحكومة من جزائر بحيرة فكتوريا اثنى عشر ألف نفس الى الداخل لتنجيهم من المرض وأوشك المرض أن ينتقل الى مصر شمالا والى رودسيا جنوبا لولا مراقبة طرق الاتصال بينها

الى النيل الابيض : لبثنا نسير شمالا وقد استقام المجرى وأخيراً بدت الى يسارنا فتحة فى النهر يكاد يسد العشب غالبها ولما أن جانبتها ظهرت فى امتداد الى الآفاق ناحية الغرب وكنا نرى الضفاف الى شمالنا وجنوبنا ، وكان الماء راكداً ليس للتيار فيه من أثر ، وتلك هى بحيرة نو أو مقرن

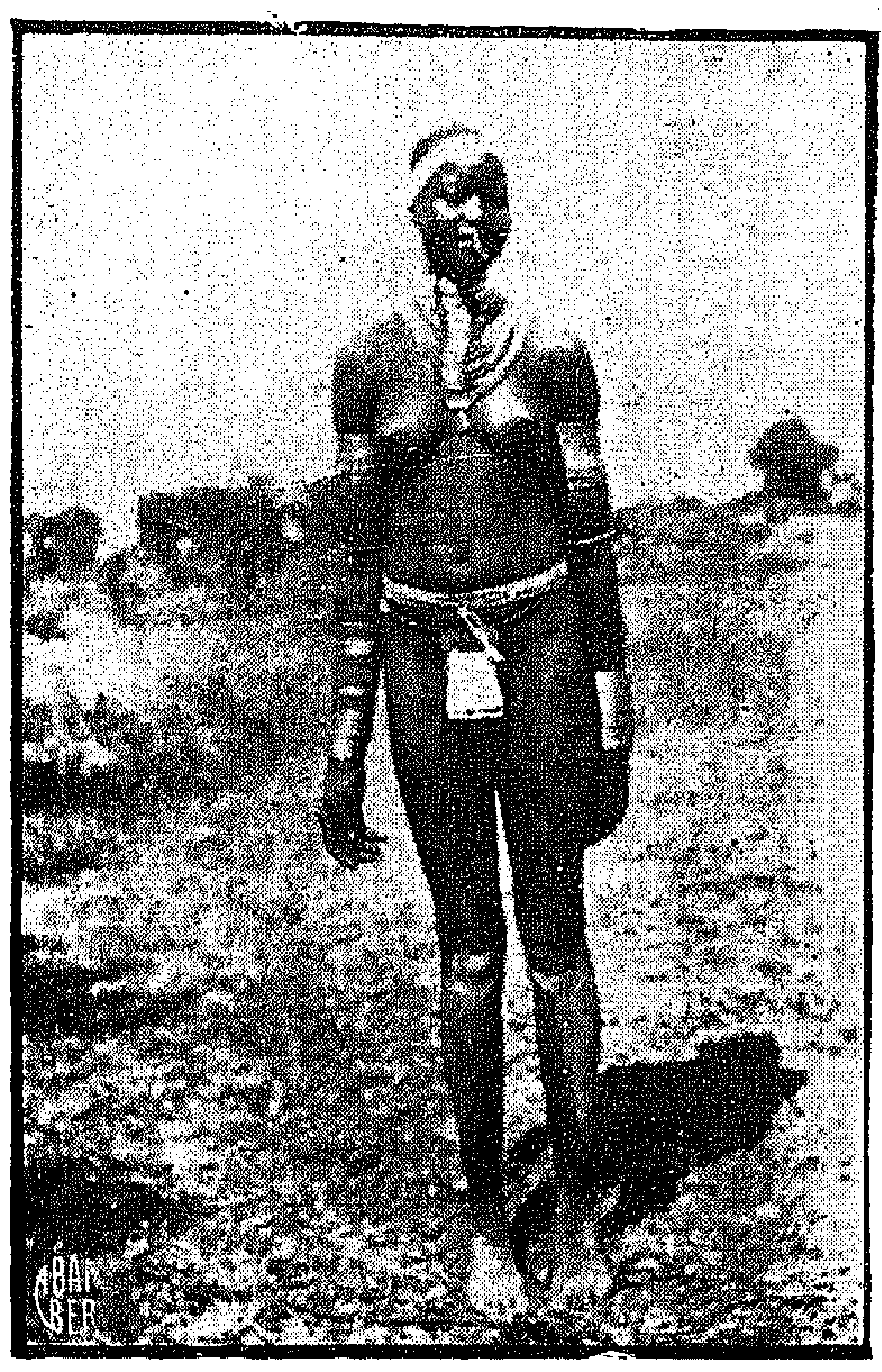


(بعض آيات التجمل عند النوير)

البحور مصب بحر الغزال ذاك الذى لايعد النيل بشى يذكر رغم سعة حوضه وتعدد روافده . أخذنا نميل الى الشرق داخلين الى بدء النيل الأبيض ويظهر أن بحر الجبل لايصب فى البحيرة بل الى شرقها بقليل ، هنا انفسح المجرى وأخذ العشب فى القلة وقد مررنا على مرسى هام هو (تونجا) بمخازنها الحديدية تشرف على النهر وأخصاصها النائية ، ومنها يمتد طريق الى تالودى عاصمة جبال النوبة لذلك كانت شهرتها التجارية ذات شأن يذكر وغالب السكان هنا من قبائل النوير والنيام نيام الوافدين من بحر الغزال الى غرب بحيرة نو .

والنوير : يشبهون الدنكا فى أجسامهم ولهجتهم ولو أنهم أضعف

بنية يسيرون عرايا ولونهم أميل الى البياض فكأنهم منا و يضعون عقداً من الخرز حول الخصر الا ان الزوج لايصح له أن يقابل حماه الا بعد أن يغطى عورته وأكواخهم أقل تنسيقاً من جيرانهم وهم يلطخون جسومهم بالرماد وكذلك وجوههم ولا يتعهدون شعورهم بل ينفشونها فى مقدم الرأس و يقصونه فى خلفها والنساء يكورنه فى أشكال مختلفة وكنا نرى على أجسادهم خطوطاً من التجريح البارز فى الصدر تتلاقى فى الظهر عند نهاية العمود الفقرى ، ويعمل هـذا التجريح بمدية من العاج منذ الصغر ، و يقولون بأن الآباء لايضربون أبناءهم تأديباً بل يكلفون الغير أن يفعل ذلك لأن فى ضرب الأب إذلالا للصبي ! وعيونهم تبدو حمراء بسبب الدخان الذى يصعدونه حولهم من احراق روث البقر وهم مشتتون فى جماعات صغيرة أخصهم حول بحر الزراف والسوباط وعلى بحر الجبل بين حلة نوير وغابة شامبى وعلى بحر الغزال وراء بحيرة نو ورغم ميلهم الشديد للغارات والحروب لا يوحدون صفوفهم كما يفعل الشلوك ضد أعدائهم ، و يعرفون بالغدر والقسوة ومن أحط أعمالهم الصيد والرعاية ومن صناعاتهم العجيبة عمل غلايين التدخين فالدواة من طين تتصل بها أنبوبة طويلة من الغاب وفى ناحية الفم كرة من القرع و يزرعون الطباق بكثرة لـكنك تعجب إذا علمت أن أغلب الطباق الذى يحرقونه مزيج من أعشاب المناقع والفحم وروث البقر، وجراب الطباق أعجب فهو قطعة من خشب (أمباش) طولها متر وسمكها نصف قدم وفى تجو يفها يحمل الطباق ويقعر وسطها لـكى تمسك فى اليد وتستخدم فى الدفاع



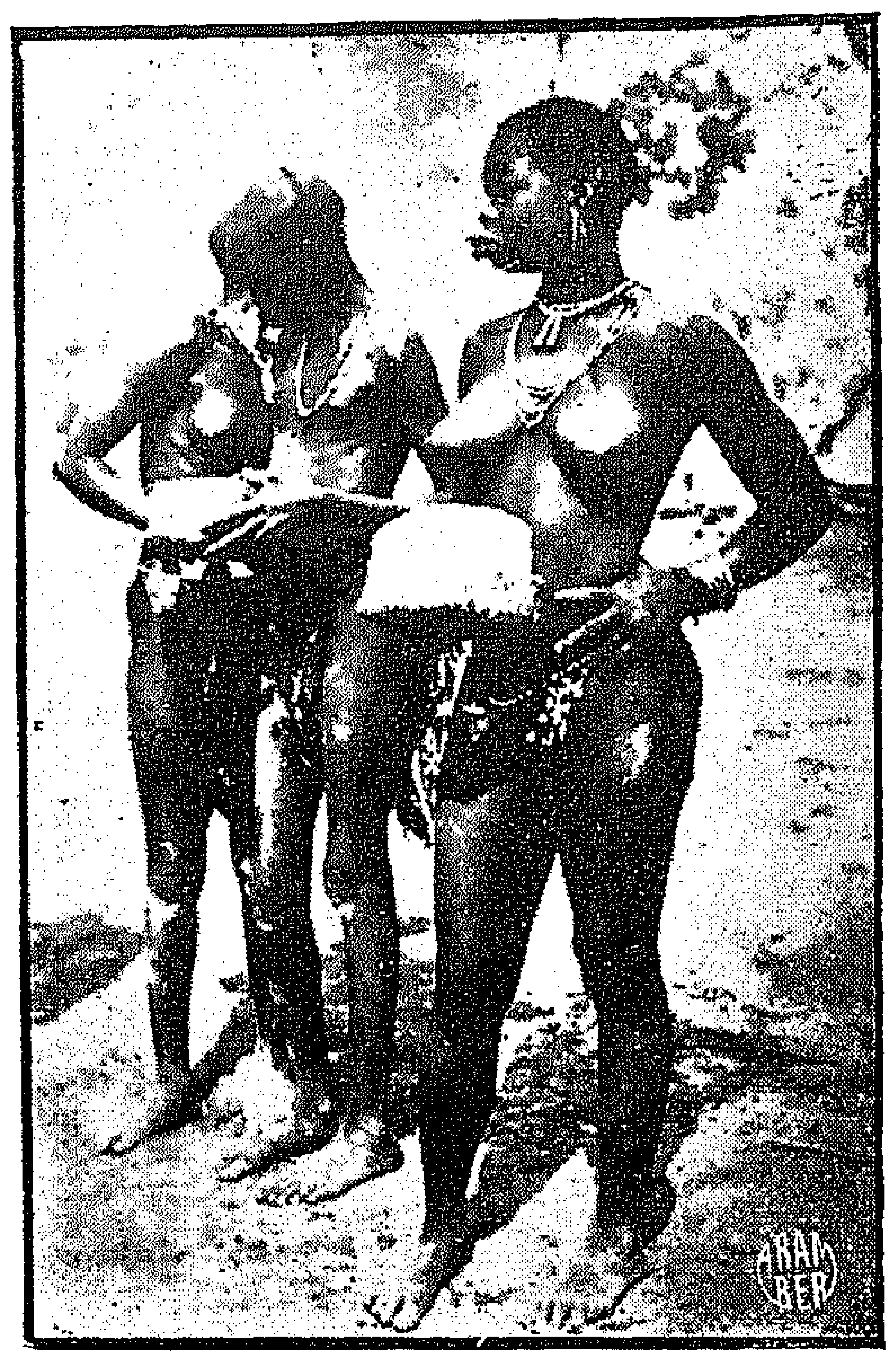
ويستعملها القوم وسادة ينامون عليها ليلا وجميعهم يدخنون هكذا نساء ورجالا . وطعامهم يوضع فى أطباق من خشب ويتناولونه بواسطة أصداف البحر ولا يستخدمون اليد كالدنكا والشاوك وأحب الغذاء لحوم الحيوان البرى كالتمساح وفرس الماء ثم الذرة واللبن وهم كالدنكا يحبون دماء البقر لكن

(غادة من حسان النوير ذوات القوام الشامخ)

بعد غليها وساعة الأكل ينفصل الذكور عن الأناث ويصطف كل جيل متقارب السن معا ويوزع عليهم الطعام وبعض المريسة ويلبسون فى اليد سواراً من عاج أو سلك من طيتين يبرز منهما خطافان يستعملان فى الدفاع وفى تأديب الزوجات . وطريقة التجريح أن تعصر قطعة اللحم بين مقبض من الخشب ثم تجرح بمدية ويصب عليها الماء البارد كل يوم حتى تتصلب وهم يصيدون الفيل

فى الحفر التى تغطى بالعشب أما سائر الحيوان فباشعال النار فى العشب من حوله فى مساحات شاسعة وتلك الطريقة خطرة لأنها تتلف جماهير هائلة من الحيوان وقد تهدده بالانقراض

وإذا بلغ الغلام الخامسة عشرة يحلق رأسه وينام على ظهره ثم يوضع رأسه فى حفرة ويتقدم رجل ويجرح جبهته ستة جروح متوازية تبدأ من الأذن اليمنى إلى اليسرى ويغسل الدم بريشة يبلها بالماء البارد ثم يعزل فى كوخ خارج القرية حتى يشفى فيهيم فى البرارى وحده أياما كى يقوى ويألف الشدة وإذا مانجح فى صيد زرافة بحربته دون أن يساعده أحد عد رجلا فيعود إلى قريته ويساهم فى بقر القبيلة ويعطى حربتين ثم يتزوج ويقام له كوخ خاص ، والعادة أن يعمل ذلك مع الشبان متحدى السن فيخرجون للصيد سويا ثم يعودون إذا ما أنجزوا تلك المراسيم ويجب على أفراد ذلك الفريق أن يخلصوا لبعضهم ويتعاونوا على العدو وعلى اقامة الأكواخ وعلى الصيد وعلى الحصول على مهر الزواج، والنوير يعتقدون فى روح عليا خلقت الدنيا ولهم فكرة مبهمة فى الحياة الأخرى وهم يدفنون موتاهم بعد رش المقبرة بمزيج اللبن والمريسة ويوضع بجانب الجثة غليون التدخين ليتسلى الفقيد حتى يصل إلى عالم الأرواح ، وجثة الزعيم تطلى بالزبد وتوضع على قطعة من خشب وتدفن سرا خشية أن يجد أعداؤه طريقهم إليها فينتقموا منه ولعل أعجب مقابر وسط أفريقية جميعا مقبرة (هرم دنكور) التى يدفن بها أحد أطباء السحر علوها ١٢ قدما وفى قمتها حربة تعلوها بيضة نعامة و بعض



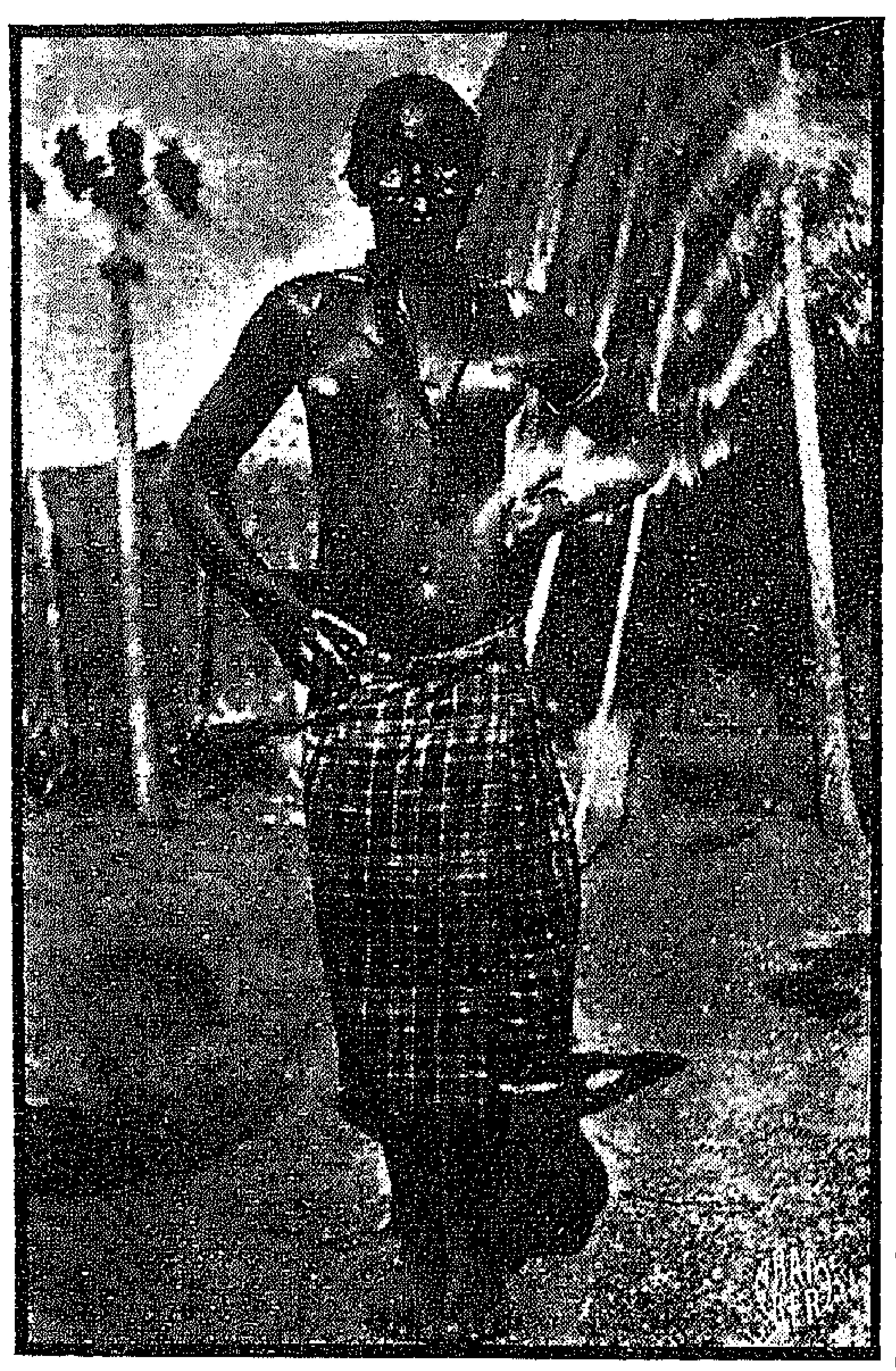
ريشها . فمن أين جاءتهم فكرة الأهرام ، أكانت لهم علاقة بمصر ؟ وهم يعتقدون أن مناقع بحر الجبل يقطنها نفر من أفاعى الجن طول الواحدة أربعون قدما، وفى أذنابها قرون مخيفة والعادة أن يحمل الواحد منهم حربتين واحدة للحرب، والأخرى لصيد السمك ، وقطعانهم أهم شيء لديهم ولا سبيل الى جباية الضرائب الحكومية إلا على الماشية

(الخصر الاهيف والشفاه الممدودة عند نيام نيام)

كأن تجبي على كل زريبة تؤوى ثلاثين رأسا ثور فى السنة وزعماؤهم هم المكلفون بذلك وهم من أشد المتوحشين قسوة وأصعبهم مراسا وحتى حملات الحكومة التأديبية التى ترسل اليهم إذا ما اقترفوا جرما لا تجدى قط الا إذا سلبت الحكومة قطعانهم وأنشط ما يرون عقب الفيضان وقت أن كنا هناك ترى الواحد منهم أو الاثنين فى زورق من منقور الشجر يتلمس الخيران ليصيد

ماتخلف من السمك بعد زوال الماء وأظهر شجر المنطقة الطلق والهجليج والخروب ومن الاخير يتخذ نساؤهم الزيت الذى يتدهنون به للتجمل أما الأول فللصمغ والثانى للخشب وكلاهما شائك والهجليج ثمرة صفراء يأكلها القوم إبان القحط رغم أنها مرة المذاق و يستمدون الماء من حفر يقومون عليها حتى ينز ماؤها وهم يستقون منها رغم قذارتها ثم يغطونها خشية التبخير

والنيام نيام : اسم قبائل بحر الغزال ، ولا ندرى من أين جاء هذا الاسم إذ أن غالب القبائل هناك يحملون لقب (زاندى) وهم قصار القامات لايزيدون من خمس أقدام إلا نادرا ، وذلك بسبب قصر سيقانهم وهم يزينون بالتجريح و يتعهدون شعورهم طويلا نساء ورجالا ، ولا يلبس نساؤهم شيئا بل يدلون حزمة من عشب على العورات ، أما الرجال فيلبسون ازاراً من جلد ، وهم مهرة فى صيد الفيل سلاحهم الحراب والخناجر التى يلقون بها على بعد فتصيب الغير و يحاربون فرادى وهم مختبئون وراء الشجر و يلقون سهامهم وحولها حزمة من عشب سريع الاشتعال لاحراق أكواخ عدوهم ، وهم أذكى من القبائل الاخرى وأميل الى المرح وهم يدفعون مهور زوجاتهم بالحراب لابالبقر ومتوسطه عشرون حربة ونساؤهم أميل نساء السود للنكاح وكثيرا ما تطلب المرأة الى رجل غير زوجها أن يأتيها و يعلم الزوج عنها ذلك وهى تحتج لديه بأنه أقدر منه على هذا العمل وكثيراً ما يأتى الأخ أخته أو يتزوج الأب بنته والعفاف عندهم والبكارة لاقيمة لها وغالب السود من الوثنيين الهمج كذلك وللفتاة عدة أصحاب قد يزورونها فى مقصورتها



والفتيات تخصص لهن مقصورة فى كل بيت ويختلى الواحد بها ويراه الابوان ولاضير فى ذلك ، والشهوة عند السود عموما قوية جداً ، ويزيدونها قوة بعادة التدليك الذى يقوم به الخدم للزوجة والزوج كل ليلة وبعد تعهد كل عضلات الجسد بالأدهنة المختلفة تقوم المرأة وتشعل النار وتطلق البخور مما يثير الميول الجنسية

(بعض زينة الوجه يبدو وكأنه القنفد)

ولا تزال امم النيام نيام تتهم بأنها من الأمم الذئابية آكلة لحوم البشر وكان زعيم قبيلة (مانجبيتو) فى أقصى الغرب على حدود الكنغو كلما أعوزه اللحم قصد مع رهط من أخصائه أكواخ بعض زوجاته وعددهن ألفان وهناك يقتل من الناس من لاقاهم زائرين ويأكلهم وهذا الزعيم مات قريبا وابنه الحالى (أوكوندو) له ١٧٦ زوجة فقط

ولايزال كثير من مواطن النو ير والنيام نيام فى معزل عن العالم الخارجى وليس للحكومة عليها أى سلطان ولهم هناك جمعيات سرية لايجرؤ أحد أن يخالفها أو ينم عنها و إلا قتل غيلة بالسم ، وكثيرا ما كشف الغرباء السم يدس لهم وهم فى طريقهم الى تلك الجهات و يسمونها جماعة (Bili) يرأسها سحرة مشهورون وترمى الى حماية أعضائها واغتصاب مايشاءون و إقامة شعائر مخيفة يستخدمون فيها المخدرات والفتيات والضحايا البشرية وهم يستلبون بنات كثيرات فان بحث عنهن الآباء قتلوا بفعل السحر وكثيراً ما يختفى بسببهم زعيم هو وعائلته وفى بيت الزعيم تقوم حفلات الرقص حول نار موقدة ولهم جواسيسهم وكلمات السر الخاصة بهم بحيث يستحيل على البوليس تعقبهم وتلك الجماعة تمتد الى بلاد الكنغو بلجيكية وفرنسية

الى السوباط : أخذ النيل الأبيض فى الاتساع والهدوء وقد اختفى البردى والغاب الطويل وأضحت الجوانب أرضا مبسوطة إلى الآفاق يكسوها عشب برى قصير ولا يعترض هذا البسيط الأخضر سوى بعض الشجر المنثور على أن النهر فى وسطه يغص بخليع النبت ورم العشب فى كتل مختلفة الحجم وهى التى يدفع بها بحر الجبل إلى هنا لذلك كانت تعوز النهر النظافة وأخيراً لاقانا نهر سوباط بزاوية قائمة فى تيار هادىء يبدو على بعد أملس كأنه النيل الأبيض لكننا لما جزناه لاحظنا تغيراً فى لون الماء وغزارته فقد كان جانبنا الأيمن عكراً لكنه يغاير طمى مصر فى أنه أميل إلى الحمرة و إلى اليسار ظل ماء النيل الأبيض رائقاً إلا فى بقايا النبات المنحل الذى يكسبه



(هيأة المحكمة عند قبائل بحر الغزال)

لونا خفيف الحمرة وبعد قليل ساد ماء السوباط العكر وكان قد هبط فيضه إذ ذاك أما اتساعه فمحدود ضيق إذا قورن بنيل مصر ومن هنا بدأنا نرى جروفا طينية للنهر واضحة ولو أنها لم تكن متصلة بل تخللتها بعض المناقع والجوانب يكسوها عشب كأنه الشعير وقد جزنا خرائب التوفيقية التي كان لها شأن يذكر من قبل لكنها أهملت تماما شأن سائر المدائن المصرية العريقة وأقبلنا على :

الملكال : عاصمة أعالي النيل ظهرت مدينة كبيرة ذات مبان محدودة وحدائق منسقة تطل على النهر الذي كان يزينه عقد من بواخر غالبها لمصلحة الري المصري والمدينة محطة الري المصري الرئيسية تقوم

فيها مكاتبه ومساكنه مشرفة على النهر فى هندسة أنيقة ومن ورائها مدينة الاهالى فى مجموعة من أكواخ غالبها دائرى مخروطى من جدائل القش يكسى بالطين وفى طرف من المدينة المطار الذى ترسو عليه سفائن البريد الجوى الامبراطورى والى جانبه دار المديرية والمركز وخلفهما مساكن الموظفين من الانجليز ، و بين قسم المديرية وقسم الرى المصرى يقع السوق فى كتل من المبانى الساذجة تغطيها سقوف الحديد ولها شرفات مظللة تفتح الحوانيت أبوابها عليها ، وغالب المتاجر فى أيدى اليونانيين ونرى فى الحانوت الواحد كل شىء على صغره من بدالة وأقمشة وخبز وطعام ، وسكان المدينة أخلاط السودانيون المسلمون ويظهرون فى ملابسهم البيضاء الفضفاضة وعمائمهم الكبيرة ، ومنهم مشايخ البلد يسيرون وراء مأمور المركز وهو ضابط سودانى أما الهمج فغالبهم من الشلوك

ولعل أجمل ما راقنى بالمدينة القسم المصرى ذاك الذى تقوم قصوره تحفها حدائق غناء وتزود كلها بالمياه المرشحة من مضخات آلية وتضاء بالكهرباء وتزود بالأثاث الفاخر فى مظهر يدل على السخاء المصرى العظيم والغريب أن أغلب الموظفين من غير المصريين وتحت تصرف القسم اسطول كبير لا عمل له إلا القيام برحلات الى مناطق السدود وما جاورها ذهابا وجيئة لم تفدنا بما يعادل نفقات سنة واحده طوال السنين التى خلت ، ومن رأى غالب المهندسين المصريين الذين تحدثت اليهم أنها ابحاث ضائعة لاخير فيها على أنها احدى وسائل التفريج عن الكربة المالية التى يعانيها السودان



(ضفة النيل فى ملكال حيث تقوم مبانى الرى المصرى)

اليوم ، ولم يقف سخاؤنا عند هذا الحد بل أنهم شرعوا يقيمون فى الخرطوم دار عمارة للاسطول المصرى ! زرتها وستكلفنا غاليا ، ولا يكاد يرى أحد ما وراءها من فائدة !

غادرنا الملكال فكانت الشواطىء تزينها أشجار من (نخيل دليب) فروعه تبدو فى مراوح مسننة (كاللاتانيا) وله ثمر أصفر فى حجم النرجيل ذو لباب شبيه بالشمام شكلا وطعما وهو غذاء هام للاهالى الى ذلك جذوعه التى ينقرها الناس فى زوارق لايزيد عرضها على ذراع وقد يبلغ طولها الامتار وكثيرا ما كنا نرى الرجل يمسك بمجذاف قصير ويسير به سراعا فان قارب السفينة ازوى بزورقه فى العشب ، وهناك نوع من الزوارق هو حزمة

من غاب اسمه (امباش) تربط مدببة من طرف ، وعريضة من الآخر يرميها الرجل فى النهر ، ويجلس وسطها ورغم الماء الذى يتخللها فهى لاتغرق لخفتها ، واذا ما انتهى الرجل من صيده صعد البر ، وحمل زورقه هذا على كتفه ، بعد أن يجففه فى الشمس برهة

لبث النيل طويلا فى اتساع عادى هو دون اتساع نيلنا فى مصر فلم يؤيد ما كنا نعلمه من مداه الشاسع على أن العشب كان يحف به وكنا كلما قار بناه وصادمته السفينة قفز منه تمساح أو اثنين ويظهر أن ذاك العشب داخل ضمن اتساع النهر يؤيد ذلك أنه كان يخلو من الشجر إلا عند الأفق وتلك المتسعات لاشك سيغمرها ماء النهر عقب اتمام خزان جبل الأولياء ويصل الماء الى جوار الأراضى الخصيبة النائية ويمكن من ريها على حسابنا بسهولة وقد أخذ النهر يتشعب بين جزائر متعددة عند احداها رأينا كودوك مقر ملك الشلوك

الشلوك : (عمالقة السودان وأكثر الهمج وحشية) طائفة من الزنج تحل قسما من منطقة السدود فى أعالى النيل ويحكمهم ملك يسمى (Ret) ولا يزالون يتعقبون ملوكهم الى الجد السادس والعشرين ودولة هذا الـ (Ret أو Mek) كما يلقبونه تمتد غرب النيل بين كاكا وتونجا وشرق النيل من جنوب كودوك الى التوفيقية وعلى ضفتى السوباط الأدنى ولهم نحو ١٣٠٠ قرية من أكواخ مخروطية من القش والطين يسكنها نحو أربعين ألفا . وهم خاضعون تماما لملكهم الذى يبلغه الجواسيس كل أمر جل أو صغر



(زينة الشعر عند رجال الشلوك)

أولا بأول . ومن أقصى حدود بلاده الى مركزه المختار فى فاشودة على بعد ستة أميال من كودوك . وهم معروفون بالقوام السمهرى و بطول السوق و بروز عضلاتهم ، جلدهم لامع براق والمقاتل منهم لا يرى خارج كوخه بدون حر بته الطو يلة ذات السن العر يض . ومعها حر بتان قصيرتان وسلاح من خشب كأنه الوتد مدبب الطرف و يستخدمون التروس بعضها من خشب مستدير من جلد فرس الماء ولا يحملون الاقواس والسهام

وأخص ما يسترعى النظر شعور الرجال التى يرسلونها تنمو ثم يشكلونها أشكالا غريبة بعد أن تبطن بروث البقر . أما النساء فيحلقن مقدم الجمجمة ويتركن شعرا قصيرا جدا فى مؤخرها فتبدو المرأة كأنها صلعاء . و يتعهد شعر الرجال (حلاق) عمله محترم لديهم يتوارثه عن أجـداده وهو فى شهرته ومقامه يلى الرماة والمقاتلة ، يأتى الرجل ويجلس أمام كوخ الحلاقة فى الشمس المحرقة و يبدأ الرجل غسل الشعر ونفشه ببول البقر ثم يترك مدة فى الشمس تناهز نصف ساعة وأنت ترى القمل والحشرات تجرى على رقبة الرجل ، وأيدى الحلاق والرائحة الـكريهة منبعثة منها تعبق الجو . وخلال ذلك يعد الحلاق المادة التى سيشكل بها الشعر . فيأتى باناء من فخار ويخلط به بعض الطين والروث والبول والصمغ و يعجنه ثم يبطن به الشعر فى مهارة فائقة ثم يجففه فى الشمس و يأخـذ فى قطع زوائد الشعر بمدية حادة و يدهن جسد الرجل ببول البقر الذى يستخدمونه جميعا رجالا ونساء . بعد ذلك يرش فوق الشعر مسحوقا من حرق روث البقر ممزوجا بالترى ليأخذ الشعر لونه

المطلوب . والعادة أن يتعهد الحلاق شعر رجلين معا لكى يعرف كل نظام شعره اذا مارأى شعر أخيه ولا تستخدم المرآة عندهم . وأجر هذا العمل شاة أو معزى ، ويغلب أن يتعهد الشبان شعرهم هكذا قبل الزواج والحرب وقبل الرقصة الدينية . ولكيلا يفسد نظام الشعر اذا أحس ايلام الهوام التى تتزايد فى رأسه كل يوم يضع الحلاق أثناء العملية ابرا من الخشب فتخلف خروقا منها يمكن للرجل أن يحك رأسه بعصى مثلها . وأصعب ما يعانيه الشخص من شعره ليلا اذ ينام على قطعة من خشب يرفعها حاملان وهو لا ينجو من هذا العذاب ولا من عذاب القمل الا اذا مات أحد أفراد العائلة ، فعندئذ يجب حلق الرأس وتركها حتى ينمو الشعر ويستأنف تعهده من جديد .

ومما يعانيه شبانهم الاختبار الذى يجوزونه كى يحوزوا لقب المقاتلة فى سن الخامسة عشرة فتصحب كل واحد منهم خليلته ويذهب الجميع الى ضفة النهر ، وتمسك كل خليلة برأس صاحبها وتميلها نحو النهر وتأخذ فى تشجيعه على أن يحتمل ما سيحل به من ألم . وسرعان ما يجىء طبيب ويشق جبهة الغلام بمدية حادة فلا يجرؤ واحد أن يتأوه والا كان خزيا كبيرا وبعد ذلك تغسل الفتاة الدم فى النهر وتنتهى الحفلة . وكل صبية هذا الجيل يلقبون باسم حيوان معين يتخذ شعارهم كالأسد أو الأفعى وما اليها وكثيراً ما تقطع المدية شريانا فيموت الصبى من كثرة ما يفقده من الدم ، والذى يعيش منهم يصبح مساهما فى بقر القبيلة ويخول له الحق فى الاشتراك فى الرقص العام وينظر اليه الجميع نظرهم الى الرجال وقبيل اجتياز هذا الاختبار يعتبرون أطفالا

مفتقرين الى حماية الرجال وينامون فى أكواخ الخدم .

والشلوك أهل مياه وأنهار لا عمل لهم سوى الرعى وصيد الحيوان والسمك فهم يسيرون فى المياه بسرعة حتى ولو غاصوا فيها الى أكتافهم . ولا يذبحون ماشيتهم قط بل يستمدون منها اللبن . وبعد ذلك تستخدم بدل النقود فى المبادلة وهى لديهم مقدسة ويبتاعون من النوبيين شمالهم الفول السودانى وهو غذاء رئيسى عندهم وقلما يزرعون شيئا ، اللهم إلا بعض الذرة والطباق فهم كسالى ، وكل عائلة تحل كوخين أو ثلاثة يحوطها سور وفى جانب داخلى اصطبل ، والبيوت نظيفة تحوى ثلاثة أكواخ واحد للزوج وزوجه والثانى للطبخ والثالث للخدم والاولاد ، وأحب مشروباتهم المريسة وزوارقهم جذور منقورة من نخيل دليب ، أو أعواد توثق فى شكل مجوف يحمله الرجل اذا شاء والشلوك اذا صادوا فرس الماء حفظوا لحمه لوقت الحفلات ، واذا صاد أحدهم فرسا بدون مساعدة غيره لبس سوارا من عاج حول ذراعه وكثيراً مايهاجمهم وحش كالأسد والفهد فيرديه الواحد منهم بحربته وعندئذ يأخذ جلده ليحفظة ويلبسه فى الحفلات ليدل على بسالته

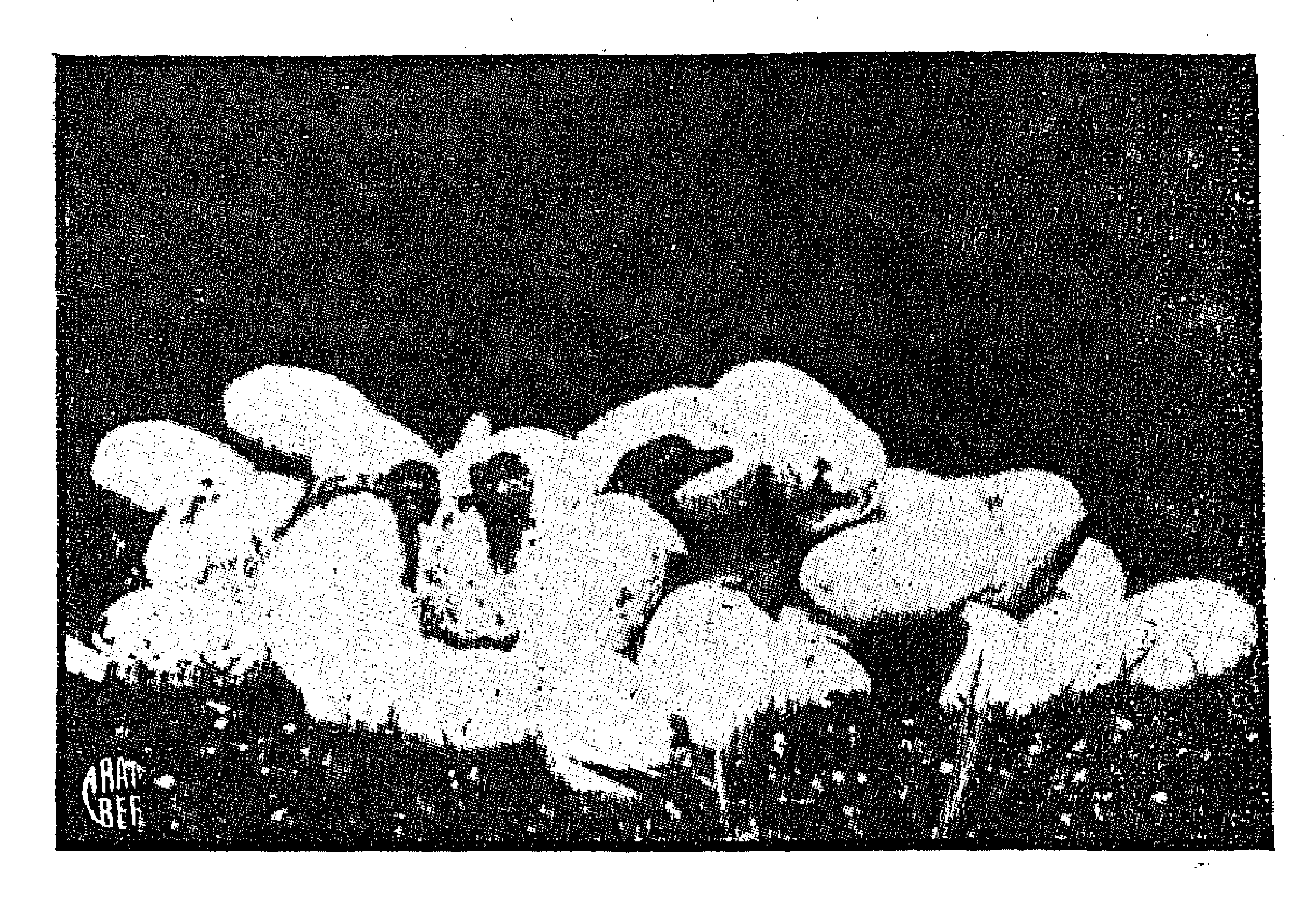
والشلوك يعيشون فى قرى مكتظة عكس أمم البارى والنوير الذين لاتزيد مجموعتهم على عائلة واحدة فالشلوك لهم نظام عائلى وثيق وقانون متوحد لذلك قلما تقتتل شيعهم وكثيرا ما يستعملون السم الذين يلطخون به سهامهم فى قتل الغير وملكهم لايذوق طعاما ولا شرابا إلا بعد أن يتناول منه أحد تابعيه قبله ، أما زينتهم فعقود من خرز ملون تلبس صفوفا بعضها



(لحم أفراس الماء شهى لديهم نيئا ومطهيا وهم يصيدونه بحرابهم)

فوق بعض وقد تغطى الرقبة كلها وقسما من الصدر وهى دليل الغنى والجاه ويلبسها الرجال أيضا ، واللون الازرق عندهم بشير الحظ السعيد لذلك يلبسه الاطفال وكلما كثر الخرز دل على جاه الأبوين وبعض الشبان يلبسون سوارا فى الساعد والعقب ، وهذا يدل على أنهم قتلوا من الحيوان أسدا أو فهدا أو فيلا ، والطبخ والزراعة وعمل الخزف والمريسة وحمل المياه من عمل النساء ، أما الرجال فلا يصح لهم أن يقوموا بهذه الاعمال المهينة إلا اذا طعنوا فى السن ولعمل المريسة يوضع بعض الذرة فى سلة مع مزيج من مسحوق زوث البقر والثرى وكلها توضع فى ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر ، ثم تنقل الى جرة من فخار وتغلى فى الماء ويؤخذ السائل العلوى ويبرد ثم يشرب ، وكلما نضبت أضيف الماء اليها ، وأعيد غليها وهكذا وهذا الخمر قوى مسكر ويخال بعض الناس خطأ أن اللحم أهم غذاء لديهم على أنهم لا يأكلون

الا لحوم السمك وأفراس الماء ، أما لحوم البقر فلا تؤكل الا فى الحفلات .
ومن أطعمتهم المحبوبة خليط من مسحوق الفول السودانى والذرة والسمك النئ يطهى فى جرة من فخار ، وكذلك لحم فرس الماء يمزج بالفول السودانى وعشب اسمه صفصاف . وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة فى الليالى القمرية خصوصاً ليلة البدر وكلهم يرقصون والحراب فى أيديهم ، وقد لعبت الخمر بلبهم ويقرع القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التى تتجمع بيوتها فى شكل دائرة تتوسطها ردهة فسيحة والطبول تقرع من وسطها فى باكورة الصباح اعلاناً للناس بأن حفلة الرقص ستقام الليلة وكلما اختلفت قرعات الطبول اختلفت حركات الرقص ودلت على الغرض منه أهو للمطر أم الحرب أم الدين أم الفتيات أم الموت ورقصة الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر مباشرة والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات اذ ترى الفتيان قبل الغروب مرحين انتظارا لملاقاة فتياتهم ويصرفون زهاء الساعة فى تعهد شعورهم ولبس جلود القطط والانمار والتحلى بصنوف لاتحصى من الخرز والودع وما اليها وقبيل الغروب تفد الجماهير شبانا وشيبا وتصف جرار المريسة بحجومها الكبيرة وسط الدائرة والى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ ، فاذا بزغ النور بدا المسنون من النساء والرجال فى دائرة ومن داخلها جماهير الشباب من الجنسين ويظلون مرحين يتحادثون حتى يقبل الزعيم ومن خلفه أتباعه يحملون الطبول وأدوات الموسيقى فينصت الجمع ويتداخل الفتيان والفتيات فى صفين ثم تعزف الموسيقى والطبول وبين آن وآخر يرتل الكل أغنية .

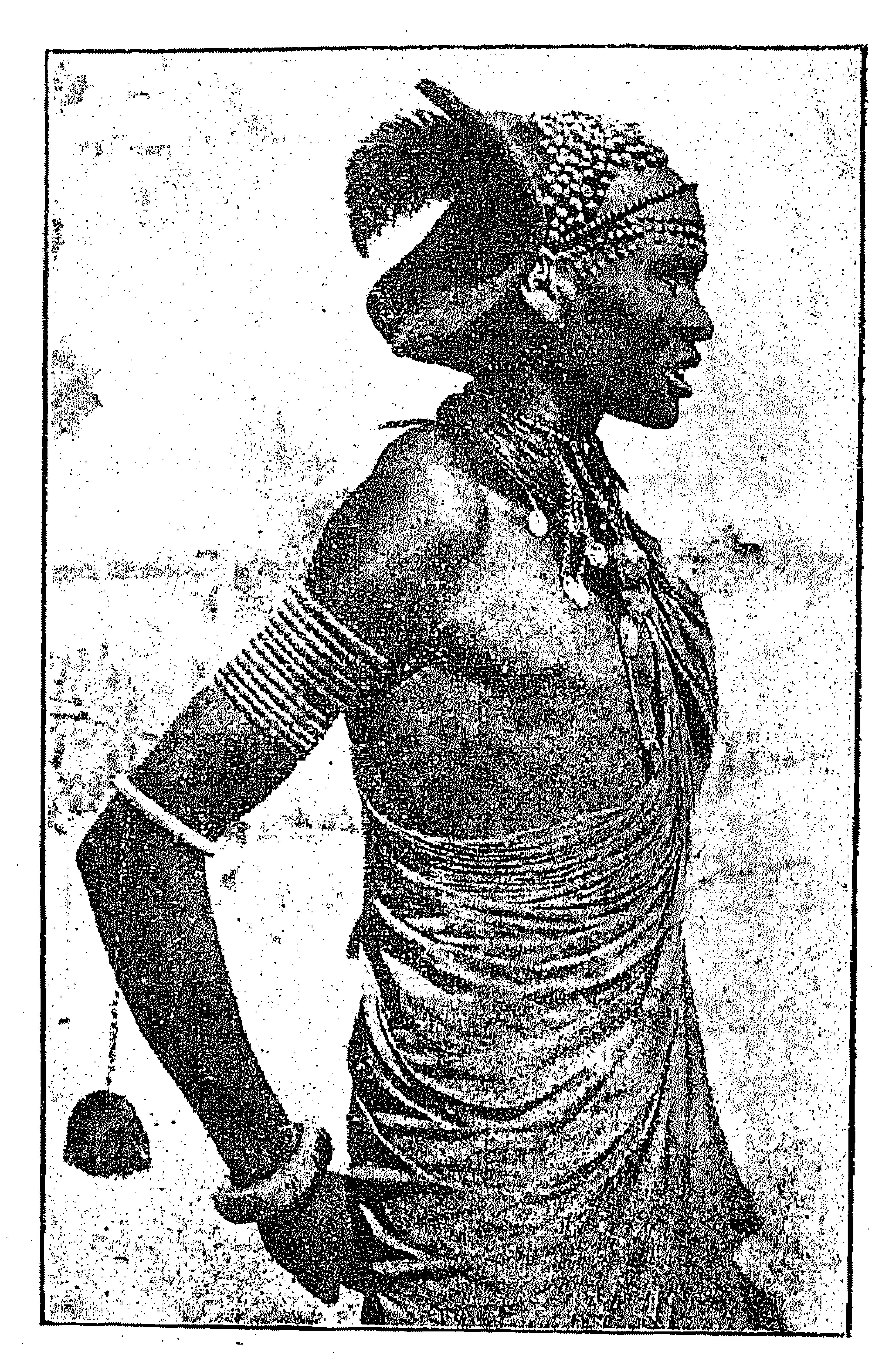


(مجموعة من بيض التماسيح بدأب فقسها على ضفاف النيل)

وما تكاد تنتهى حتى يعلو قرع الطبل وتموج صفوفهم و بيدهم الحراب التى تتلألأ فى ضوء القمر . ثم يسرع أحدهم الى الوسط مخترقا صفوف الشابات والشبان وهناك يتمايل و يهاجم كأنه يصارع وحشا ثم يعاد الغناء ثانية ، و بعد ساعة على تلك الحال يشرب الكل المريسة ، و يبدو صف آخر من الراقصين بعد انسحاب الأول الذى يظل عاكفاً على جرار المريسة يرتشف منها ما يشاء ، وأخيراً يختلط الكل فى الرقص تاركين الحراب و يتقدم كل شاب فى صف الشبان الى فتاة فى صف الفتيات وترفع السواعد بمحاذاة الأكتاف و يقفز كل زوج قفزات منظمة لكن دون أن يلمس الفتى خليلته والفتيات يظهرن دلالهن و يحاولن أسر الرجال واستمالتهم بما يفوق ما تأتيه

المرأة الغربية (فهى مثلا تبرز ثديها بين آن وآخر ثم ترفع عنهماقطعة القماش المهفهفة ، ثم تعيدها وكثيرا ما تفعل ذلك أمام القاضى فى المحاكم فتؤثر فيه) وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلبهم فيختلط الحابل بالنابل و بمجرد انسحاب الزعماء والمتقدمين فى السن يأتى الشبان والشابات بما لايتصوره العقل بل و بما يستنكره الخلق الفاضل القويم

الزواج : ولا تتزوج الفتاة قبل الخامسة عشرة و بفضل رقصة الفتيات يمكنها أن تتعرف بالكثير من الفتيان ، والزوجة يمكن شراؤها بالقطعان . وللرجل شراء ما استطاع من الزوجات ، لأن ذلك دليل الجاه والغنى ، وقبل أن تتم صفقة الشراء هذه يجب أن توافق هى على هـذا الزوج وفى العادة تكون قد رغبت فيه ابان حفلات الرقص ، وهى تحب أن يكون غنياً بقطعانه ومزارعه ، والعجيب أن الفتاة تؤثر الزوج الذى يستطيع بما له أن يشترى زوجات كثيرات غيرها . وقبل اتمام الزواج تقدم الهدايا (الشبكة) كعشر من المعزى وثلاث من الحراب وعشرين خطافاً للصيد (سنارة) وما اليها وخلال تلك الفترة يبدأ التعارف بينهما — نظام شبيه بنظام الغرب — ففى حفلة الرقص يقود الأخ أخته الى حلقة الرقص والخجل يبدو على وجهها وهناك يسألها زعيم القبيلة أن تعترف بجميع علاقات الحب مع فتيان آخرين من قبل وهى تخشى ألا تقول الصدق لأن الاخبار كلها تصل الزعيم أولا بأول . و بعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تقرع الطبول فينصت الجميع وهنا تكرر الفتاة ذكر أسماء الفتيان الذين أحبوها من قبل فيحضر



(زينة الرجال عند الشلوك تفوق زينة النساء)

كل واحد منهم إلى وسط الدائرة ويحكم عليه بغرامة من الماشية والأغنام ومتى جمعت تلك القطعان قدمت كلها مهراً للزوج أما الفتاة فلاعقاب عليها

متى صدقت فى الاعتراف ومتى أقر الزعماء ذلك ولا عار على الفريقين من ذلك فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتى عقاب كاف وترضية حسنة . والظاهر أن هذا التصرف لايرمى الى منع الفساد الخلقى بقدر مايرمى الى تزويد الزوجين بالمال والمتفرجين بالطعام والشراب والرقص

وعند ميلاد غلام تقدم الهدايا للأب من قطعان يربو عددها بالتوالد حتى اذا ما أضحى الطفل رجلا قدمت له بعد أن يجوز (حفلة الرجال) ، واذا مات أحدهم دفنت الجثة أمام الكوخ الذى كان يقطنه و يلف الجسم فى أخر ما كان لديه من ثياب ان وجدت والى جانبها الأسلحة وأدوات الطبخ وكل مايلزم للحياة الأخرى ماعدا أدوات الزينة . والجسم يمدد فى القبر على ظهره وتوضع تحت الرأس وسادة من خشب للرجال ومن قش للنساء والأطفال واذا مات الزعيم دفن داخل باب كوخه وأغلق سنة كاملة بعدها يهدم وعند دفن الميت تقام حفلة (رقص الموتى) فيجتمع الأهل وقدلطخوا جسومهم برماد من حرق روث البقر و يولول الجميع وفق قرعات الطبول البطيئة و يمثل الراقصون مايدل على شجاعة المتوفى وفضله و يقدم الناس لأهله الطعام والشراب وتستهلك مقادير عظيمة من المريسة وقبل شروق اليوم التالى ينسى الحزن بتاتا

وفى رقصة الحرب يمثلون موقعة يؤخذ فيها النساء والأطفال والماشية أسرى وهذه الرقصة تقام فى أى وقت من النهار بمجرد سماع القوم لقرع الطبول نداء لها فيتزين كل بما لديه من أدوات البسالة من ريش

وجلود وحراب وما اليها و يتقدم المقاتلون ذهابا وجيئة ويضربون الأرض برجولهم وحرابهم التى كثيرا ماتنثنى أو تنكسر ثم يهاجمون الأكواخ التى فيها أسراهم ويسوقونهم فيها بشراسة زائدة وسط تهليل يصم الآذان مسرعين نحو الزعيم والدماء تسيل من الجروح التى تخدش بها وجوههم وجسومهم ثم يتقدم الطبيب بعد فيضمدها بعصير بعض الأعشاب

واذا قام نزاع بين قبيلتين أدى الى قتال عنيف ولا تتنازل احداهما عن الأخذ بالثأر الا اذا تساوى عدد الضحايا من الفريقين ولا يمكن لأية قوة مقاومتهم لأنهم يلجأون الى صيد الناس بسهامهم المسمومة

تاريخهم : ويرجح بعض الكاشفين انهم وفدوا من منطقة البحيرات ولم يحلوا مكانهم هذا الا منذ أربعة قرون وفى سنة ١٥٠٤ غزوا سنار لكن غزاهم البقارة سنة ١٨٦١ وفى ١٨٧٤ ثاروا على الحكومة المصرية فى السودان وفى ١٨٩٠ خلال ثورة المهدى ثاروا ضد تجار الرقيق من العرب والدراويش لكنهم هزموا وسيق عدد كبير منهم الى أم درمان ولهذا السبب تجدهم يبغضون العرب ، ويظهر انهم يمتون بصلة الى الدنكا وبعض قبائل البحيرات مثل (كافروندو) لتقارب لغاتهم و بعض عاداتهم

الدين : ولهم اله اسمه (فوك Fok) قادر ومسيطر خلق كل شىء الا انهم خاضعون لما يسمونه نيكوانج وهو خليط من الوثنية وعبادة الأجداد والأرواح ، فهم يرون أن أول جد لهم هو نيكوانج الذى يعمل وسيطا بينهم و بين الاله الأعظم الذى لايدركه أحد وهو (فوك) فهم يقولون فى وقت

الضيق (ان فوك قد غضب علينا) و يصلون لنيكوانج للشفاعة وروح هذا
تحل كل ملوكهم و يرون أن روح الموتى تزورهم فى المنام وتؤثر على حياة
الاطفال ، وهم يتخيلون الله دوامة هوائية تنتابهم كثيرا وتحمل الرماد عقب
احراق العشب فى عمد سوداء عالية ، ويقولون بأن الله أسود اللون لأنه
لايرى ويسكن الظلام ، واذا مات الانسان عاد الى ربه وعند الصلاة
يقول الشلوك : يا آلهى اتركنا وحدنا ننج فأنت عظيم ، لايمكن لأحد أن
يتكلم معك أنت الله ومن تقتل منا يمت ، أنت مقر روحنا فاتركنا ننج
والباقون يستمعون وهم منصتون وحرابهم فى أيديهم بعضهم واقف
والبعض راكع ، ولتقريب فكرة الآلهة من الناس يفترضون له وكيلا شبيها
بالانسان هو نيكوانج ، ويتوسلون اليه قائلين : نيكوانج قد أعطاك الله
الارض فاحكم الشلوك وارج لنا ربك يجعل البقرة التى سنذبحها قربانا
مقبولا لديه ، ثم يقتلون البقرة و يغسلون دم الحربة بالماء ويخلطون هذا الماء
بالروث الذى يخرجونه من أحشائها و يرشونه على الناس جميعا ، ورأيهم فى
الخلق يتلخص فى أن الله هو الخالق خلق طبقتين مسطحتين : العليا وهى
السماء والسفلى هى الارض ثم خلق النبات والشجر ، وأول حيوان ظهر
الجاموس ثم الانسان وكلم الله الجاموسة قائلا : تعالى غدا أعطك حربة
فسمع الانسان ذلك وذهب خلسة لما خيم الظلام فلم يره الله فتقدم وهو
يمشى على أربع و ينفر كأنه الجاموس فقال الله من هذا ؟ فأجاب أنا من
له قرون متجهة الى الوراء فجزع الله وأعطاه الحربة ، ولما جاءت الجاموسة

تخور قال الله ألست أنت التى أخذت السلاح منى ؟ قالت لا بل الانسان فأعطاها قرونه وأهاجها على الانسان أنى لاقته .

ولما خلق الانسان كان أحمر اللون لأنه شكل من طين النهر ثم ذهب الى التربة السوداء وخلق الجنس الاسود ولما انتهى من خلقه فرك يديه فسقط الطين منها فتاتا هو القمل الذى التصق بشعر الانسان وضايقه ولذلك اخترع الله الموسى للتخلص منه ، وفريق منهم يرى أن الله أمر زوجته فولدت توأمين أسود وأبيض وكانت تحب الاسود وتبغض الابيض وأمر الله بتربيتهما ، وحدث مرة أن مد الأب رجله وأمر أن يلعقها الوالدان فخضع الابيض لأنه عبد وأبى الاسود فأحب الله لذلك الابيض وحاباه وقال لزوجه ان ابنى هو هذا وسأملكه على الاسود يبيع فيه ويشترى وسأمده بالاسلحة التى تسوده على كل شىء

والطبقة الارستقراطية تشمل (Ret أو Mek) وأولاده نيارت (Nia-ret) وأحفاده نى آريت (N-aret) وأحفاد أحفاده كوانى آريت (Kwaniaret) وهؤلاء فقط هم وارثو الملك أما العائلات المتفرعة عن الملوك الأقدمين فتسمى أورورو (Ororo) ولهم نفوذ عظيم

الى هؤلاء طبقة قوية (Kujurs) وهم أطباء السحر تتمثل فيهم قوة القسس والاطباء وام نيكوانج تسمى كي يا (Kieya) تتمثل فى التمساح ولذلك قدسوه وفى كل قرية هيكل لنيكوانج وهو كوخ باسق حوله كوخان عاليان تزين أعلاها حراب عليها بيض النعام وذلك لأن نيكوانج وقد

من الصحراء يمتطى نعامة ، واذا مات الملك تزوج صغار زوجاته من بعض أقربائه أما الطاعنات فى السن فيصبحن خفر المعابد و بنات الزعماء هن بنات نيكوانج وعند زواجهن تقدم الضحايا لزوجة نيكوانج الكامنة فى بطن التمساح فيؤخذ عنز ويذبح على حافة نهر ، وعجيب أن تفد التماسيح لأ كل الدم أما اللحم فيرسل لحارسات المعابد وهم اذا رأوا دوامة ترابية سجدوا لها لظنهم أن الله (فوك) يسير مختبئاً فيها وهذه العواصف تكثر فى شهور الجفاف خصوصا بعد اشتعال النار الذى يكثر عندئذ فى العشب والغابات

واذا تخلف المطر أقاموا رقصته لمدة ثلاث ليال أو أربع حول معبد نيكوانج عند الغروب وهذه هى الرقصة الوحيدة التى يلبسون لها الاردية والعادة أن ينتظر الزعيم (كوجور) بعد الجفاف متحينا فرصة يرجح نزول المطر فيها ثم يقرع الطبول للرقص و يصلون وهم وقوف وجوههم الى السماء فى غير حراك ساعات طويلة وكلهم ايمان بأن المطر سينزل سراعا وفى داخل المعابد ترى مذبحا للضحايا من الغنم يقام من الخشب وترى فوقه بعض الطعام والمريسة يقدمها كل من أراد التقرب من الوسيط نيكوانج

حفلة تتويج الملك : والملك (Mek) ينتخبه زعماء القبيلة من أفراد العائلة المالكة وفى يوم التتويج يفد من فاشوده الى الضفة الجنوبية لنهرهم المقدس تحوطه مجامع الحرس بحرابهم و يجتمع أهل القبائل بجيوشهم سائرين من القرى نحو أسبوعين على الاقدام ويجب ألا يتخلف أحد الزعماء و يلبس الملك جلبابا مخططا وحزاما مزدوج اللون الازرق والاحمر وطربوشا



(فوق سطح بيت الخليفة ومنه كان يشرف على الميدان)

وعلى النيل تقوم مساكن الجيش المصرى الذى كان يرابط فيها وغالبها اليوم خاو وقد شعر الناس ولا يزالون بالكساد الشديد ووقوف دولاب أعمالهم منذ خروج الجيش المصرى الذى كان يفرج عنهم بما ينفقه وكم تحدث إلى العامة بأنهم منذ خروجه وهم فى بؤس شديد وهنا قصوا على نبأ انسحابه حين ذهب (الكمندان) بعد أن أمر الجنود بالاستعداد لضرب الخرطوم كلها فى تمام الساعه الثانية عشرة ظهراً ان هو تأخر محجوزاً عند الحاكم الى ما بعد ذلك ولما ذهب الى الحاكم خاطبه قائلا بأنه لاينسحب إلا بأمر كتابى من جلالة ملك مصر فرد عليه بجفاء وغلظة وهدده أن يمنع عنه المؤن والغذاء فقال

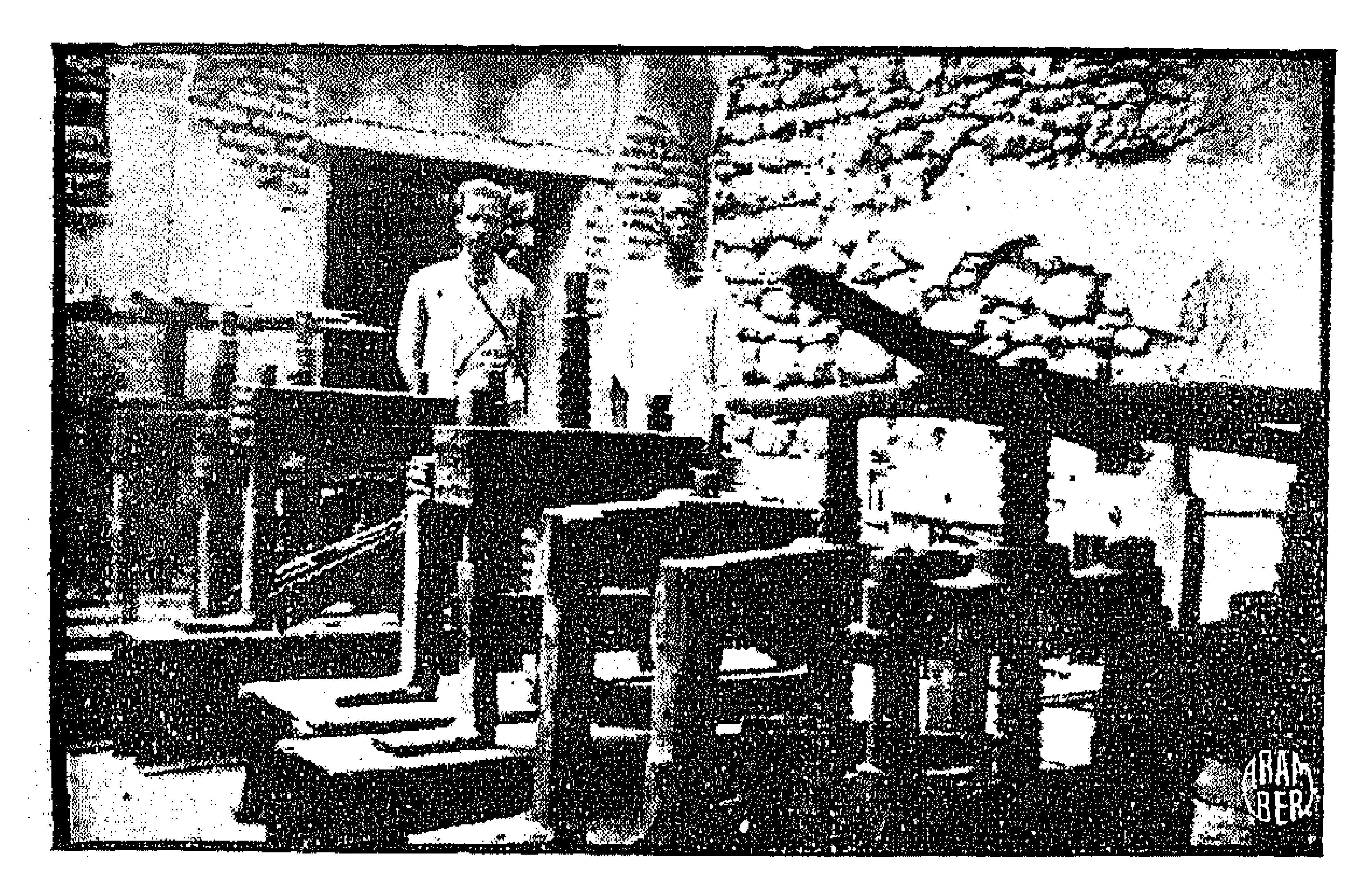


(فى بيت الخليفة وهو اليوم متحف تعرض فيه مخلفاته ـ أم درمان)

له ان لحق بنا أى شىء من ذلك هدمنا الخرطوم كلها وموعدى مع الجند الظهر فعاد الحاكم وهدأه ! وظل الجيش حتى جاء مندوب جلالة الملك يحمل خطاب الانسحاب فى طيارة ، هنا تألم الأهلون والجنود السودانيون وكانوا يرمقون اخوانهم المنسحبين بنظرات استهتار ولوم شديد

انتهى بنا الترام الى موضع فى خرطوم بحرى عنده يبدأ ترام صغير يسير بالبخار الى طرفها الشمالى عند محلة يسمونها (سلامة الباشا) منها ركبنا الباخرة عبر النيل الى أم درمان : التى أسسها محمد المهدى سنة ١٨٨٣ ثم ظلت تمتد عهد خليفته عبد الله التعايشى الذى لبث أربعة عشر عاما وهو من عرب البقارة وكان القوم يسمون قلب المدينة (البقعة) يقوم بها

مسجد كبير بمئذنتين والى جوارالنيل مسجد المهدى ومبانيه وهى أهم مايزوره السائح هناك ، دخلنا ردهة شاسعة كأنها ميدان عابدين كان يصلى فيها المهدى الاوقات الخمسة اماما بالناس كل يوم ومن تخلف عوقب بالجلد وبالسجن الى ستة شهور هنا دخل الثائرون ورفعوا رأس غوردون باشا على أسنة حرابهم وسط تهليلهم ، وفى ركن من الميدان بيت الخليفة وهو من طابقين ولا بأس بتنسيقه أقيم بالآجر الذى جلب من كنيسة (صوبا) التى هدموها — وصوبا كانت عاصمة حكومة النوبة التى حكمت مصر يوما ما — و بعض أحجار البيت من أنقاض بيت غوردون وسقوفه من جدائل الخوص تحتها الخشب وفيه اليوم متحف من مخلفاته : دروع وأردية وسروج وأسلحة من بينها الحراب والمدافع ، ثم مطابع الحجر التى كان يطبع عليها منشوراته وقد رأينا الكثير من تلك المنشورات كتبت بخطه فى نصائح دينية ولغة جميلة ثم خاتمه المربع وسريره من خشب منسق مرتفع يجدل وسطه بسيور من جلد و بعض نقوده وهناك بعض آلاته لسك النقود و بعض الصحاف الكبيرة كان يقدم فيها الطعام للفقراء يوميا ، ومن المعروضات سيف الخليفة وعربة غوردون وعربة الخليفة التى جلبها من الحبشة على متون العبيد مخترقين بها الصحارى ، ولم يكن يبيح لأحد دخول أبوابه إلا لأخيه يعقوب ، وأمام البيت مقبرة المهدى دفن فيها ، وكانت تتوسطها قبة عالية هدمها الانجليز بعد فتح أم درمان ، و بددوا محتوياتها حتى أن الملكة فكتوريا أرسلت تحتج على كتشنر لأنها لاتود اهانة العقائد هكذا فكان



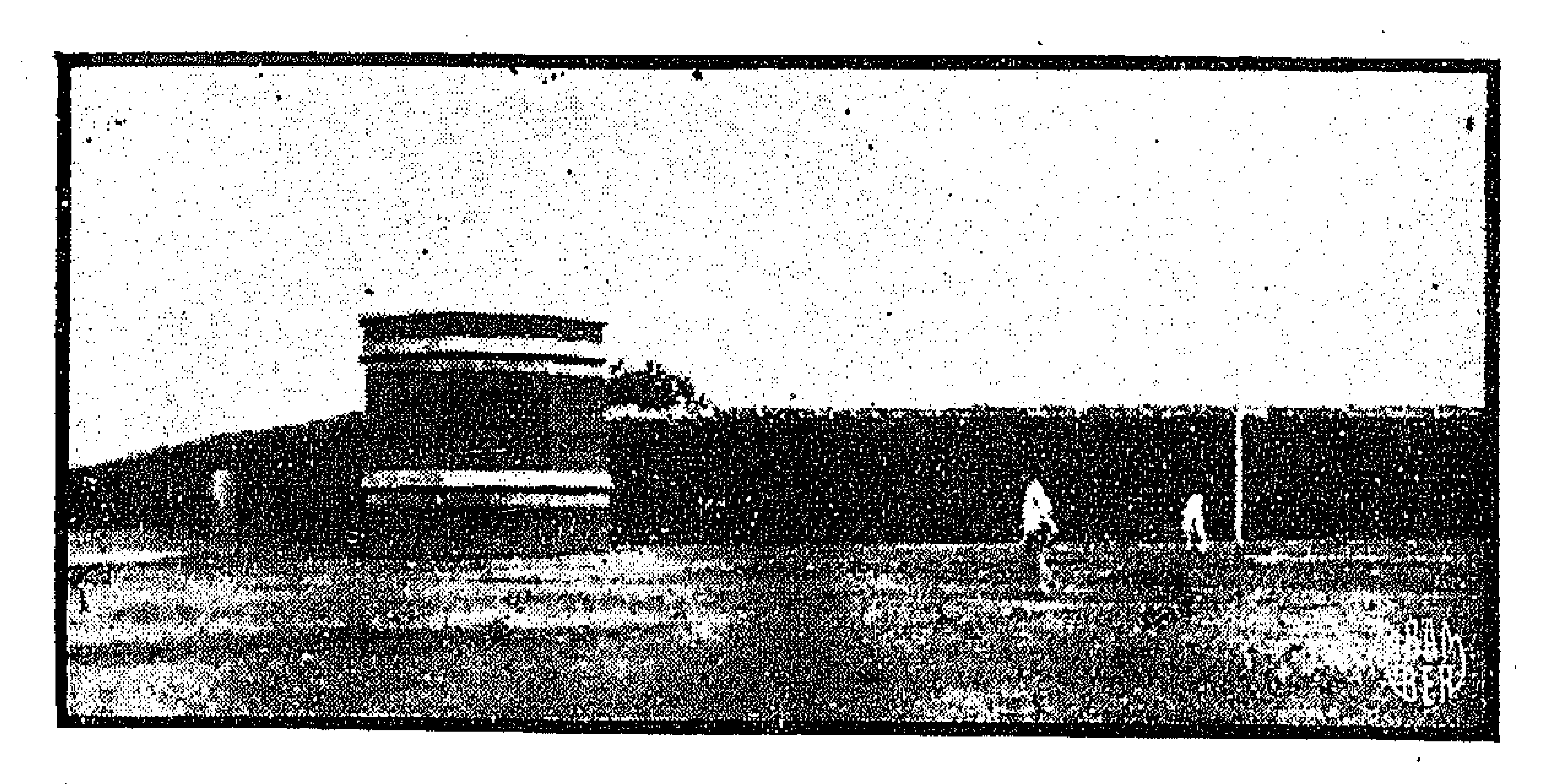
(بعض آلات الطبع القديمة فى بيت الخليفة بأم درمان)

اعتذاره أنه قصد بذلك صرف الناس عن تلك الخرافات ولم يقصد اهانة الدين ، والمقبرة اليوم مغلقة لايباح دخولها لـكن رغم ذلك يفد الجماهير ليتبركوا بجدرانها و يقدموا لها القرابين

والى جوار المقبرة سجن الخليفة الذى زج فيه كثيراً من الأنجليز والمدينة مكتظة بالبيوت الوطنية غالبها من الطين إلاشارع واحد عليه مجموعة من (قلات) تؤدى الى القسم (مركز البوليس) ثم الى قنطرة أم درمان على النيل ومن فوقها يتجلى اللسان أو المجرن (Mogran) أى مقرن النيلين عنده لسان من الارض يجانبه النيلان حتى يندمجا وأنت ترى الماء بعده يسير مسافات بعيدة اللون الابيض الطفلى الى اليسار من النيل الابيض واللون الاسمر الطينى الى اليمين من الازرق ، وكان النيل الازرق إذ ذاك

فى أعلى فيضه بتياره الجارف أما الابيض فكان تياره هادئا لأن ماء الازرق يحجزه فيتراكم ويعلو ويتسع ولذلك بدا الابيض عظيم الاتساع مائج الماء والناس هنا يشبهون أهل صعيد مصر فى الشكل والعادات غير أن ألوانهم أميل الى السواد حتى أنى أحيانا كنت أنسى أننى خارج مصر وألفت نظرى ميلهم الى الهدوء وعدم الضوضاء ، إذ كنت فى الترام لا أكاد أسمع كلاما وان حدث فبصوت خافت وقد علمت أنهم لا يتشاجرون مطلقا ويحب الواحد لأخيه الخير ويميل الى معاونته ، وهم يذكرون مصر والمصريين أطيب الذكرى ويتكلمون عن مصر وكأنها وطنهم

قصدت شجرة غوردون الى جنوب الخرطوم فى مكان اعتاد غوردون أن يركب اليه كل أصيل ويجلس تحت شجرة لا تزال هناك مطلة على النيل الأبيض وقد زرتها لأرى ماتقوم به مصلحة الرى المصرى هناك من المنشآت فقد اتخذت المنطقة مستعمرة للرى أقامت بها البيوت الفخمة وهى تتخذ شاطئ النيل مرسى لأسطولها والعمل قائم هناك لتصبح المنطقة مقر عمارة وميناء للأسطول المصرى وقد أدهشنى مابدا لى من اسراف شديد وتبديد فى الأموال فى شىء خبرنى كثير من مهندسينا ألا طائل تحته . وزاد عجبى لما رأيت غالب الموظفين والقائمين بالعمل من غير المصريين ، ولما أردنا الدخول لم يسمح لنا رغم من كانوا معى من المهندسين المصريين وقالوا لابد من ترخيص من الرياسة الانجليزية وكانت على الباب لوحة كتب عليها : جناب المستر فلان هو دون غيره المتصرف المطلق فى تعيين الموظفين والعمال



(سجن الخليفة الذى زج فيه كثيرا من الانجليز فى أم درمان)

وفصلهم ، والناس هناك مندهشون لهذه المنشآت التى تنفق فيها الأموال تحت ستار الاصلاح ، ولما سألت كم باخرة تحتاج للاصلاح سنويا حتى تقام تلك العمائر التى بدت وكأنها مدينة صناعية صاخبة كان الجواب الضحك والسخرية لأن قطع الأسطول كله محدودة العدد !

برحت الخرطوم فى صباح منتصف سبتمبر فسار بنا القطار يشق أراض مبسوطة يكسوها العشب المنثور والشجيرات الشائكة الا فى بقع قريبة من النهر كانت تقوم فيها أعواد الذرة (العويجة) وغالب تلك الأراضى الجيدة القريبة من الخرطوم تملكها عائلة المهدى والمرغنى وهما من الطوائف المرضى عنهم ! معهم بعض الأجانب ولهم آلات لرفع الماء (وابورات) على أن الأغلبية أراض مهملة . وكلما تقدمنا شمالا بدت الربى الجرانيتية متفرقة فى مخاريط حولها أراض شبه صحراوية ثم أخذت تتصل تلك الربى وتتقارب فأضحت نجاداً ثم ظهر خانق شبلوكا فى سلسلتين من الجرانيت متجاورتين جداً بينهما

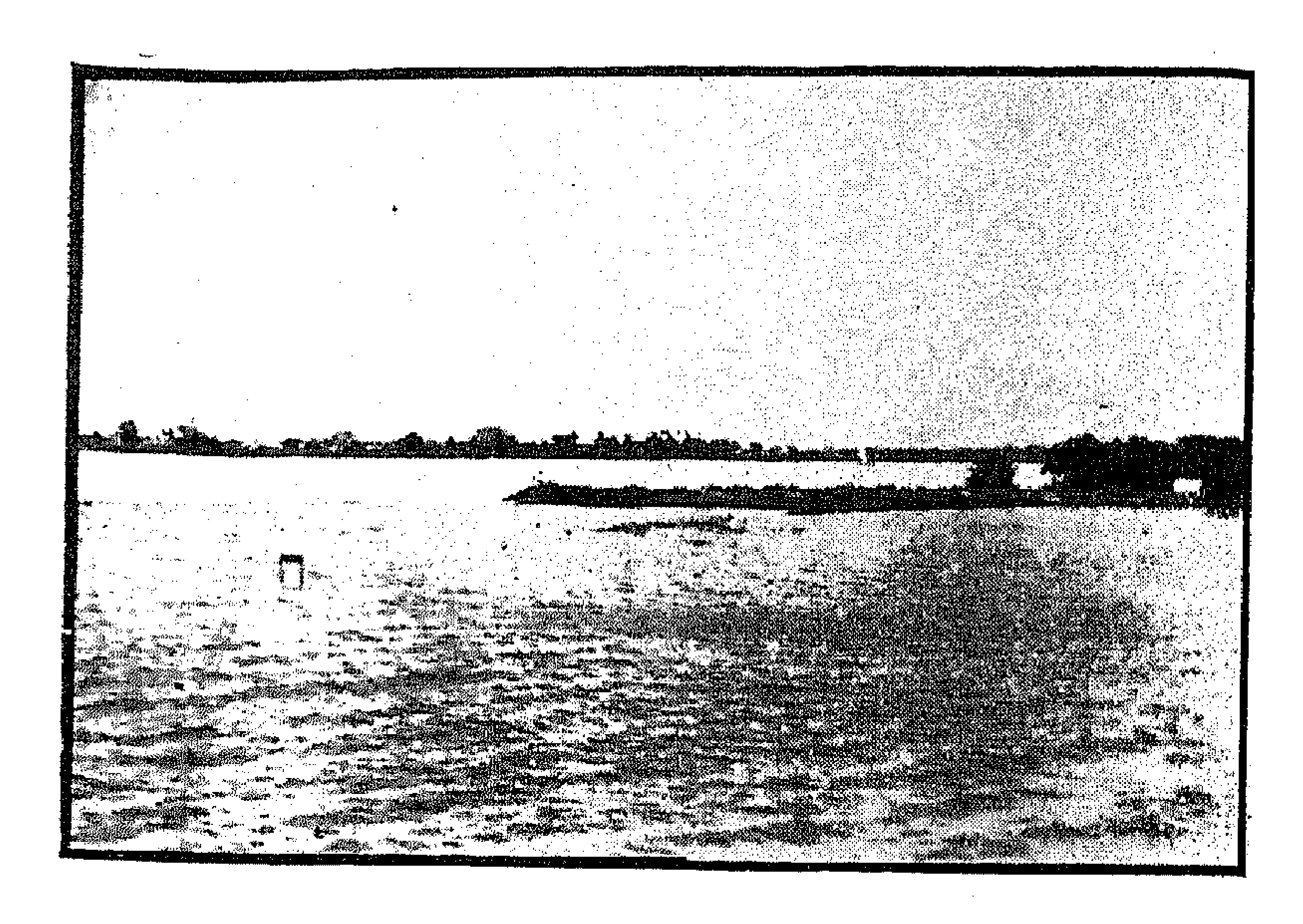


(امام قسم ام درمان يرفرف عليه العلمان المصرى والانجليزى)

ماء النيل وفى نهايته تبدو الجنادل مترامية . بعد ذلك عادت السهول واختفت الربى وأضحى المنظر صحراويا كثير الرمل والحصى ثم دخلنا شندى ومن ورائها بدا النيل تقوم عليه بيوت من اللبن والطين وهنا فاجأنا مطر غزير لطف الجو وخشى القوم نزول السيول التى تهدد تلك المنطقة فى مواسم المطر وقد تبلغ من الشدة أن تجتاح طريق القطار واذا وصل بعضها النيل اندفع فيه وأوقف تياره وشق له طريقاً الى الضفة الأخرى ومصلحة سكة الحديد تعرف مواضع الخطر وتتقيه بأن تمد أسلاكا كا يدفعها الماء فتدق الأجراس فى المحاط وتأمر بأيقاف القطر حتى يعاين المكان (عمال الدريسة) وها قد وقفنا ساعة فى المحطة التى تلى شندى . ومنطقة شندى وما حولها أشهر مناطق السودان بالمستلى لجودة مراعيها بكافة أنواعها .

ظل المنظر حولنا سهولا تكسوها الأشواك شبه الصحراوية وقد تتخللها ربى الجرانيت ولبث النيل ملازماً لنا وهو غامر الفيض يسامت ماؤه الضفاف وقد يعدوها الى المنخفضات المجانبة له فتبدو فى قنوات متلوية حولها أرض خصيبة وقبل دخولنا مدينة عطبرة (اتبره) جزنا بلدة الدامر ثم بدت عطبرة حيث اخترق القطار قنطرة على نهرعطبرة وكان فى أعلى فيضه عظيم الاتساع كأنه نيل مصر الفسيح فى تيار جارف وماء كدر أحمر حقق فى ظننا ما نعلمه عنه فى كثرة أمداد النيل بالطمى بنسبة تفوق أمداد النيل الأزرق نفسه على أنه بعد قليل يغيض ماؤه حتى يصبح شبه أخوار بها مسارب ضئيلة وقد خبرنى القوم انهم يخترقونه اذ ذاك سيرا على الأقدام دون أن يصيبهم بلل .

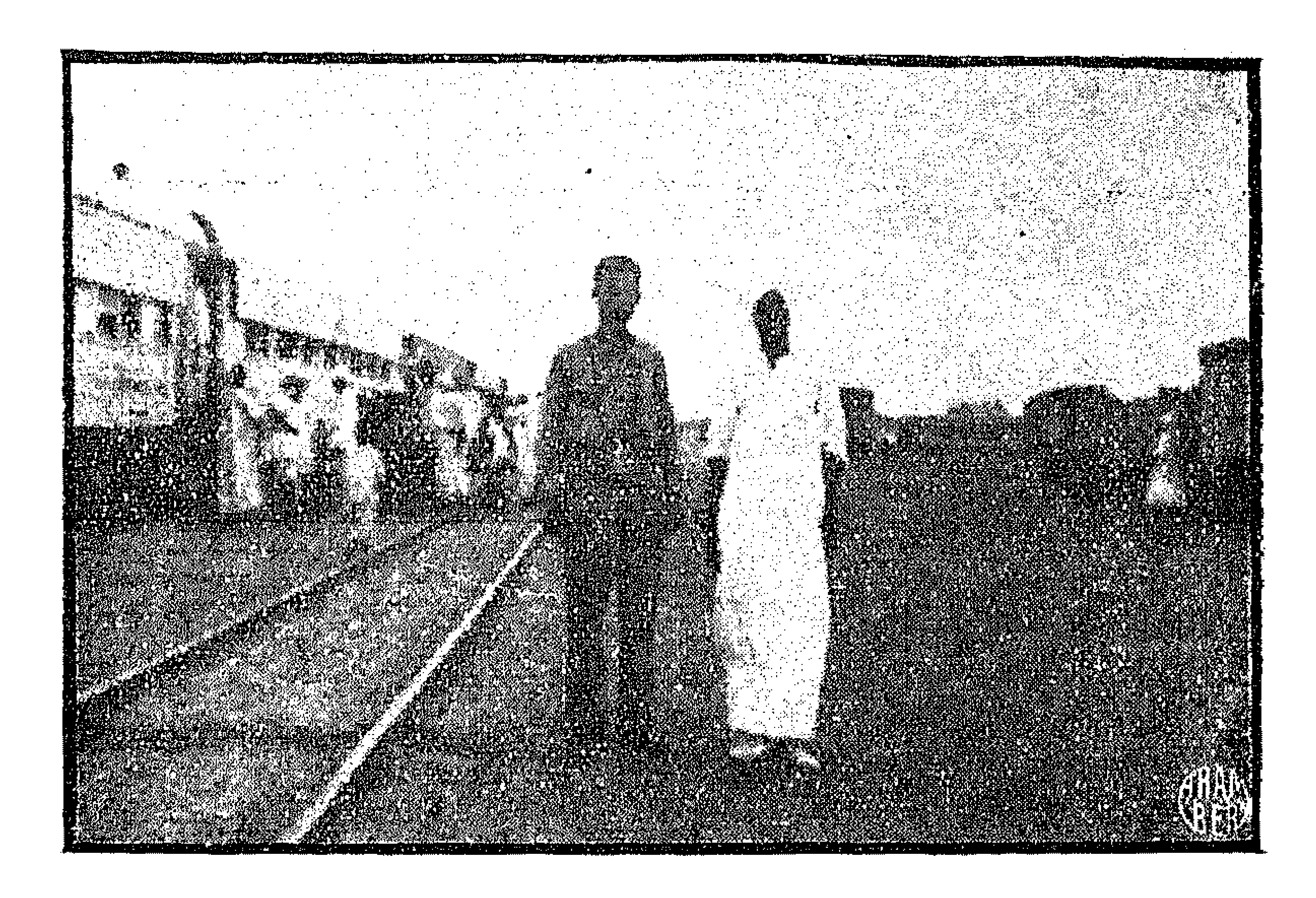
دخلنا المدينة التى تقع على العطبرة والنيل وهى كبيرة كأنها أسيوط فى أضوائها الكهربائية ومبانيها المنسقة وأرصفتها الممدودة وهى نقطة تلاقى سكة حديد بور سودان وحركتها التجارية صاخبة ومن أغرب ما تصدره محصول (الدوم) أو (المقل) الذى رأينا من شجره الكثير وهنا ينقل الى مصنع لتكسر الطبقة الخارجية ثم يخرط اللب (المقل) ويصدر عن طريق بور سودان الى أوروبا واليابان لعمل الأزرة للسراويل على أنه قل اليوم عن ذى قبل وأضحت كسلا أشهر البلاد به . مررنا بعدها بمدينة بربر واسمها أكبر منها لأنها بدت قرية بيوتها من اللبن والطين وهى وطيئة لا تعدو طابقا واحداً



(المقرن فاصل النيل الازرق الى اليمين و الابيض الى اليسار و فى المقدمة امدرمان)

هنا جرى الحديث مع طائفة من علية القوم الذين أكدوا أن اخلاص أهل السودان جميعاً لمصر عميق متأصل على انهم نددوا بالمصريين الذين كانوا فى السودان اذ لم يحاولوا ادماج البلاد فى مصر فكان ضباط الجيش مثلا اذا أرادوا الزواج هناك صاهروا الزنوج المنحطين ولم يحاولوا مصاهرة العرب وكان القضاة الشرعيون يترفعون عن أهل البلاد ثم قال بعضهم : انظر الى وزارة الأوقاف المصرية مثلا كيف أهملت التعليم الدينى ولم تعاون على فتح المدارس الاسلامية واقامة المساجد مقابل ما تفعله هيآت التبشير اليوم هناك والحق أن من حل السودان من المصريين لم يخلفوا شيئاً من ذلك ولم يخدموا مصر فكم قرأت أسفاراً نفيسة ومجلدات ضخمة كتبها الانجليز

ممن كانوا موظفين بالسودان خدموا فيها الناحية الانجليزية وأغفلوا المصرية لا بل و بعضهم كان يتوج كتابه باسم (السودان البريطانى) و يتهكم على المصريين ممن كانوا موظفين معه و يرميهم بالخمول والترفه وعدم الرغبة فى الاقامة هناك مطهرين أمانيهم أن ينقلوا الى جنة القاهرة والتخلص من جحيم جواء السودان وما الى ذلك من الحط من شأننا ، وكان من السهل على المصريين أن يمهدوا السبل لاخوانهم ممن سيحلون بعدهم و يهونوا عليهم أمر الارتحال الى السودان الذى لم أر فى جوه كبير فرق عن جو مصر رغم ما كنت أسمع من مبالغات اخواننا فى حره اللافح لـكنه الجهل أو الاهمال الذى أساء الينا الى هذا الحد ، وقد روى لى بعضهم حادثة ظريفة هى أن الخديوى سعيد باشا لما زار السودان أمر باعفاء البلاد من الضرائب ذلك العام و بالافراج عن المسجونين تخليدا لزيارته ولما جاء عباس حلمى وزارها سنة ١٩٠٢ أعطيت الأوامر لـكبار الموظفين أن يحتاطوا به دائما احتراما له وحفاوة به فى الظاهر والواقع انهم كانوا يرمون الى ابعاد الناس عن الاتصال به فاقبل رجل اسمه (محمد مكين) وتقدم ليصافح الخديوى فمنع بحجة أن الخديوى تعب فصاح الرجل قائلا بأنه غنى موسر لا يريد من وراء ذلك عطاء فسمعه الخديوى وكان يتفقد المكان الذى قتل فيه القائد اسماعيل باشا فى موقعة شندى فناداه وصافحه فقال الرجل : أن جدك سعيد قد خلف فى البلاد مكرمة كبيرة فما مكرمتك ؟ قال : زمن سعيد غير زماننا . يعنى ان السودان كله كان ملكا لمصر وحدها اذ ذاك فقال الرجل : (فى نصفك

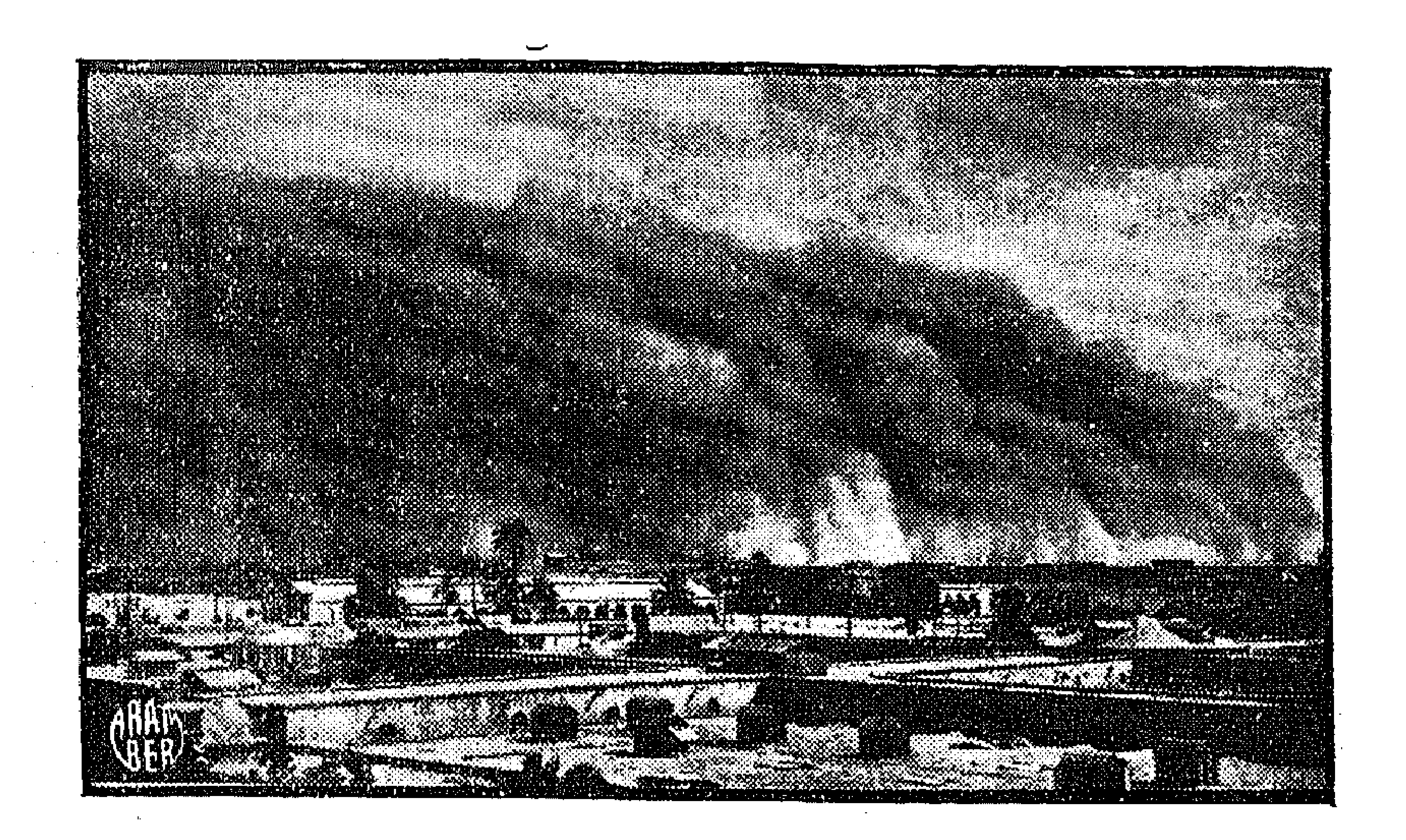


(فى محطة شندى والى جانبى احد طلبة كلية غوردون بملابس الدرس)

سَولَكْ شويَّة) وهو عتب معناه ان لم يكن وابل فطل أو أنت فى حقك متهاون فجرى هذا القول مجرى المثل على ألسن الناس جميعاً الى يومنا هذا ويقولونه فى مقام طلب التصرف فى الجزء المملوك .

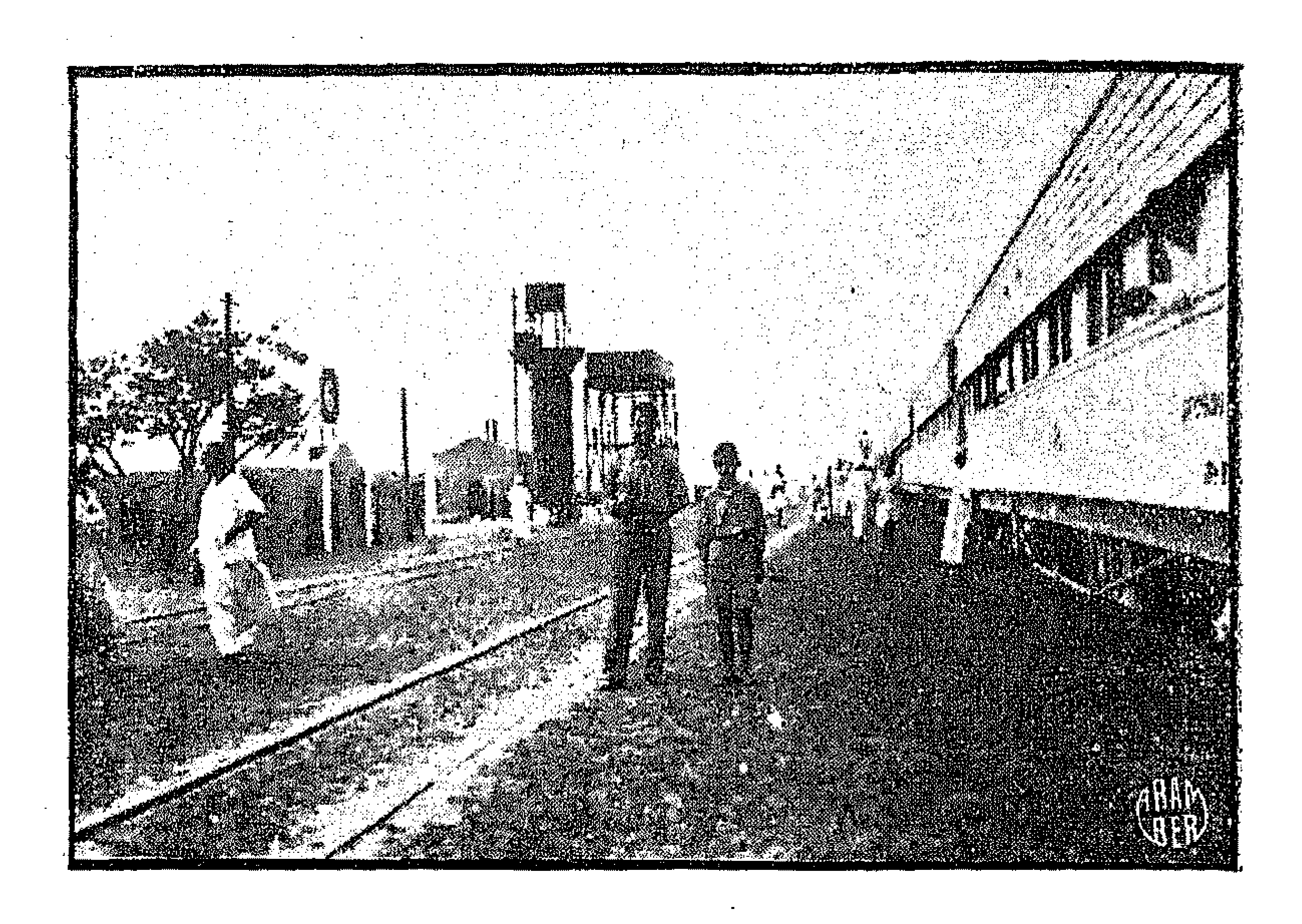
ومما قص بعضهم وهو متألم نبأ انسحاب الجيش المصرى أخيراً رغم تضامنه مع السودانى الذى فنى أغلبه دفاعا عن حق مصر وحفظا لعهدالتضامن بينه و بين الجنود المصرية

دخلنا (أبو حمد) وهى بلدة صغيرة ريفية و بعدها أوغلنا فى صحراء رملها ناعم كاد يطمرنا بهبو به وكانت تبدو نواتئ الجرانيت مبعثرة ويسمونها أحيانًا صحراء العتمور أو عتمور أبو حمد والمسافة بين أبو حمد وحلفا ليس بها



(الهبوب الرملى الذى يداهم الخرطوم فيكاد يطمرها)

بلدان مأهولة كبيرة بل محاط لوقوف القطار كى يزود بالماء وهى عشر نمر أهمها المحطة رقم ٦ وسبب شهرتها ان منها طريقاً يؤدى الى أم نباره حيث توجد مناجم للذهب وقيل ان المأمون أرسل جيشه الى هناك واستغلها وقد قاوم الجيش أهل البلاد من عرب البشاريين والبجا ويروون ان المأمون أزعج ابلهم بالدق على الصفائح وكان هذا سبب انتصاره عليهم ومنها طريق الى دنقله غربا. والبشاريون مبعثرون شرقاً بين أبوحمد وأسوان ، أما النوبيون فكانوا فى الأصل سكان النيل نفسه لا الصحراء ابتداء من اسوان جنوبا ولما دخل العرب اعتنقوا الاسلام واختلطوا بهم خصوصاً أهل دنقله ولذلك يحاول كل نوبى أن يسمى نفسه (دنقلاوى) ويغضب اذا قلت له بأنه نوبى اللهم إلا أولئك الذين يجاورون اسوان وهؤلاء يحتقرهم باقى الأهالى المنتسبين



(فى المحطة رقم ٦ وسط عتمور ابو حمد)

الى العرب و يرمونهم بالخسة بدليل احترافهم الأعمال الوضيعة فيما لا يزيد على عمل الخـدم . أما الفريق من النوبيين الذى رفض الاسلام فهاجر جنوباً واعتصم بجبال النوبة حول تالودى وكلهم لا يزالون وثنيين وقد جئنا فيما سبق على طرف من سيرتهم

لبثنا نسـير فى بادية النوبة (العتمور) تسع ساعات ثم بدت جبال الخرسان التى يجانبها النيل الضيق حوله نطاق ضيق من المزارع يزينها النخيل وهى بدء حلفا التى وصلناها فانتقلنا توا الى الباخرة بعد أن مررنا بالجمرك حيث سألنا الحراس عن الممنوعات أمثال : الأسلحة والعاج وريش النعام وشعر الزراف . أما الباخرة فمريحة جميلة هى أفخر من جميع البواخر



(وسط الشارع الرئيسى فى وادى حلفا)

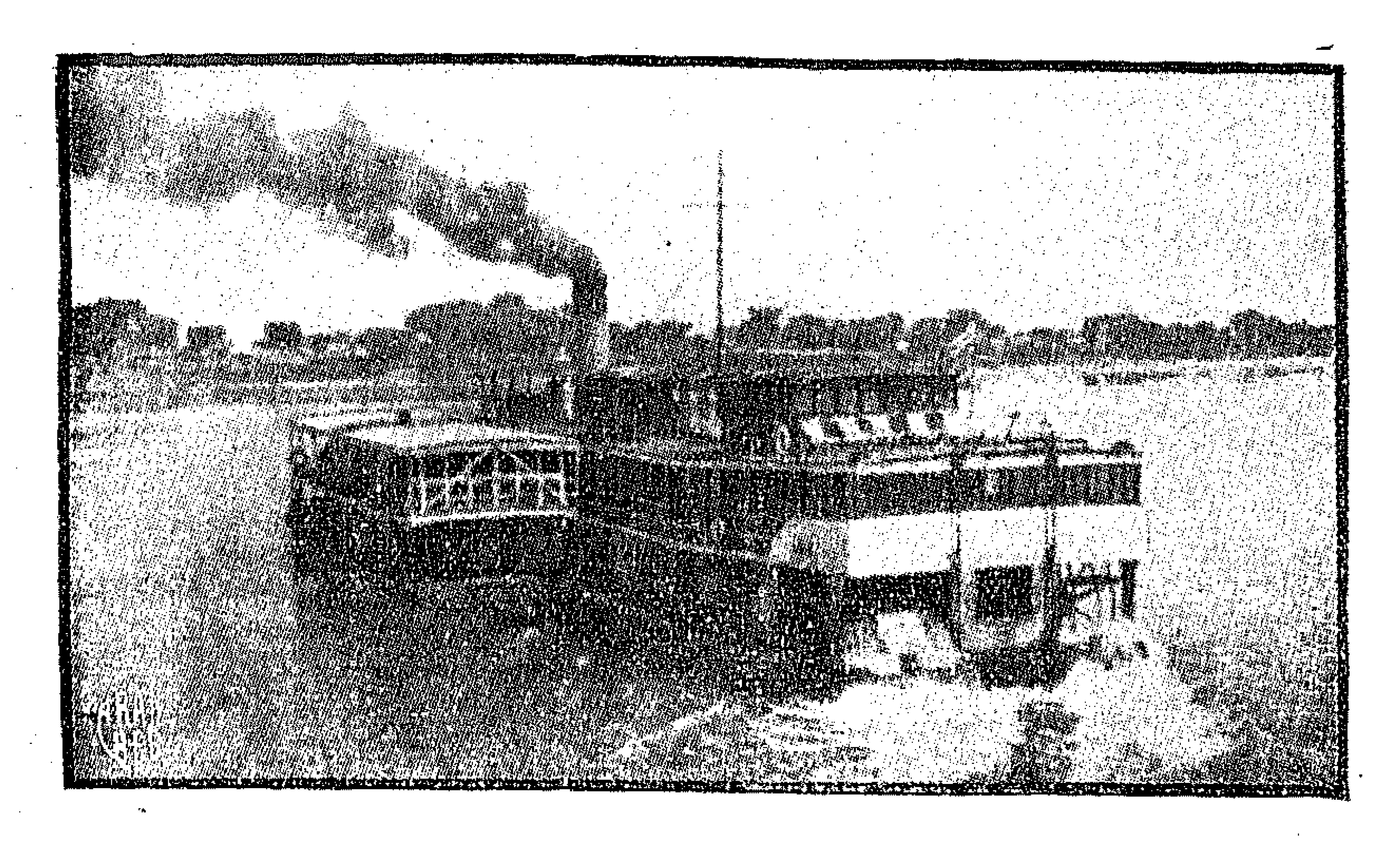
السابقة . ووادى حلفا جبناها فى أقل من ساعة فهى كالمراكز الصغيرة عندنا طرقها ضيقة يظلها شجر اللبخ وأظهرها طريق البحر (النيل) . قمنا نشق النيل تحفه الجبال الرملية تحتها المزارع والنخيل ولبثت تلك طويلا والنيل يختنق تارة وينبسط أخرى وأخذت الخضرة تشح فى الضفة اليسرى حتى كادت تنمحى تماما وسادت الصحراء والشجيرات الشائكة وبعد ساعتين مررنا بمحطتين لبوليس الحدود احداهما الى اليمين والأخرى الى اليسار والى جانب اليمنى بيت رجل يمتلك بعض الأراضى يتوسطها مسكنه الصغير وقد صادف ان خط الحدود بين السودان ومصر مر بالبيت فشطره ولما أرادت الحكومة تعويضه ليتركه أبى وأصر على الاحتفاظ به فترك له وهو اليوم



(البيت الصغير الذى يقع نصفه الجنوبى فى السودان والشمالى فى مصر)

يدفع عن جزئه الجنوبى الضرائب لحكومة السودان وعن الجزء الشمالى للحكومة المصرية .

تعددت الربى المجدبة ثم اتصلت فى سلسلة جبلية الى اليسار وتجلت فى وسطها تماثيل (ابو سمبل) الرائعة وهى جاثمة تشرف على النهر ثم أخذت تبدو المنابت تارة الى اليمين وطورا الى اليسار وسط تلك الصحراء المجدبة وكان أظهرها النخيل والذرة وفى كثير من البقاع كان الشاطئان مقفرين فى صخور منحدرة الى سطح الماء فى درجات سريعة . بتنا ليلتنا نرسو على مقربة من الدر وفى باكورة الصباح أقلعنا وأخذت القرى تزيد عدداً فى بيوت متجاورة رغم ضيق النطاق المنزرع وكلها من الطين النظيف تطلى



(الباخرة التي أقلتنا من حلفا الى الشلال)

بغشاء من الجير الأبيض ويزينها جميعها المسجد ذو المئذنة القصيرة وكثير من البيوت يقوم على مدرجات الصخر بعضها فوق بعض وظهر فى الصخور الحد الذى يصل اليه مستوى الماء عند مايمتلى الخزان اذ يبدو الصخر أسفله فى لون اردوازى يعلوه الصخر الجرانيتى الأحمر وأخذ ذلك الحد يزيد علوا كلما قاربنا (الشلال) وفى كثير من الجوانب كانت تظهر المعابد المصرية وفى الخامسة مساء رسونا وراء مدينة الشلال لندخلها صباحاً وذلك قصداً من السفينة فى دفع رسوم الميناء

(تمت بحمد الله)

فهرس

صور الكتاب مائة وخمسون (١٥٠) حسب هذه الموضوعات

